

الأدب الأجنبي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق



السنة الثالثة

العدد ٣

الادب الاجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة الثالثة - العدد الثالث - كانون الثاني ١٩٧٧

المدير المسؤول : حافظ الجمالي
رئيس التحرير : د. أحمد سليمان الأحمد

هيئة التحرير :

د . ابراهيم كيلافي
د . حسام الخطيب
د . نايف بكتون

الادارة، اتحاد الكتاب العرب - دمشق - شارع مرشد الخاطر
هاتف ٤٤٦٧ - المراسلات باسم رئاسة التحرير ص.ب. ٣٢٣ دمشق



تنويه

- جميع المراسلات تكون باسم رئيس التحرير
- تتوجه رئاسة التحرير الى الأدباء والمترجمين في الوطن العربي لتزويدها بمواد مترجمة من الأدب العالمي في مجالات القصة والشعر والمسرحية والنقد والبحث الأدبي ، وتقديم أو تلخيص الكتب ذات الشبيرة والفائدة الفنية والفكرية • ويرجى من الاساتذة الذين يرسلون المواد المترجمة أن يرفقوها بالأصل ، من أية لغة كانت ، أو الإشارة الى مرجعها اذا كان مشهوراً • وتعتذر الادارة عن اعادة هذه المواد سواء نشرت أو لم تنشر •

النار

في التحليل النفسي

بقلم : فاستوتش بشلر
ترجمة : نوار خياطك

الفصل الخامس

كيمياء النار : تاريخ مسألة خاطئة

في هذا الفصل سوف نغير ميدان الدرس ظاهرياً فنحاول درس الجهود التي بذتها المعرفة الموضوعية في الظواهر الحادثة بالنار . لكن هذه المسألة لا تكاد تشكل ، في نظرنا ، احدى مشكلات التاريخ العلمي ، لان ما فيها من علم قد زيفته تقويمات كنا بيننا أثرها في الفصول المتقدمة . نهائياً ، ليس علينا أبداً أن نتناول ما سوى تاريخ العوائق التي راكمتها احداث النار في العلم . ان احداث النار تشكل عائقاً في طريق المعرفة ، وكلما صنعت ازالتها كانت أظهر من الناحية البسيكولوجية . ان الموضوع يتعلق ، على نحو شبه ملتو ، بنوع من التحليل النفسي المستمر بالرغم من اختلاف وجهات النظر . وبدلاً من أن يتجه هذا التحليل الى الشاعر والحالم ، يتجه الى علماء الكيمياء وعلماء الحياة من القرون الخالية . فهذا التحليل يعترض استمرار الفكر والهاجس فيتضح له أن الفكر دائماً هو المضطرب والمنهزم نتيجة لهذا الاتحاد بين الافكار والاحلام . ولذلك كان ضرورياً ، مثلما بيننا في عمل سابق ، أن نتناول الروح العلمية بالتحليل النفسي ، ونقسرها على سلوك التفكير الاستدلالي الذي لا يساير الهاجس بل يوقفه ويفتته ويحول دونه .

يمكننا أن نأتي بدليل عاجل على تنافر مشكلة النار مع العرض التاريخي .
فقد وضع السيد ج . ك . غريغوري كتابا اتسم بالوضوح والذكاء عن تاريخ
العقائد المتعلقة بالاشتعال منذ أيام هيرقليط حتى لافوازييه . والحال أن هذا
الكتاب يربط الافكار ربطا سريعا حتى أن خمسين صفحة كافية لان تقص حكاية
« العلم » في عشرين قرنا . يضاف الى ذلك ، أن هذه النظريات لو تكشف خطؤها
موضوعيا لدى لافوازييه ، لاقتضى تدقيق الصفة الفكرية لها . من العيب
الاعتراض بأن العقائد الارسطية واضحة ، وانها اذا ما ادخلت عليها تعديلات
ملائمة يمكنها تفسير مختلف أحوال المعرفة العلمية ، والتكيف مع فلسفة مختلف
العهود . يبقى أن صلابه هذه العقائد وديمومتها لا تحددان جيدا باللجوء الى
قيمتها الوحيدة من التفسير الموضوعي . يجب النزول الى ما هو أعمق ، وعندئذ
نلامس القيم اللاشعورية . وانها لهي هذه القيم اللاشعورية التي تصنع ديمومة
مبادئ معينة من التفسير . بشيء من العذاب العذب ، ينبغي على التحليل
النفسي أن يحمل العلماء على الاقرار بدوافعهم التي لايعترفون بها عادة .

- ٢ -

لعل النار هي الظاهرة التي شغلت اهتمام الكيمياءوين أكثر من أية ظاهرة
أخرى . ولقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا بأن حل اللغز المركزي للكون يتوقف على
حل لغز النار . كتب بويرهاف في حوالي ١٧٢٠ يقول (١) : « اذا أخطأت في
تبيين طبيعة النار ، امتد خطوك الى جميع فروع الفيزياء ، وما ذلك الا لان النار
دوما هي العامل الرئيسي في جميع ما تنتجه الطبيعة » . وبعد نصف قرن يقوم
شيل فيذكرنا من جهة (٢) « بالصعوبات التي لا حصر لها التي تنشأ عن البحث
في النار . وانه لما يخيفنا حقا أن نتفكر في تلك القرون العديدة وقد انقضت
دون أن يتوصل فيها الى مزيد معرفة عن خصائصها الطبيعية » ، ومن جهة أخرى ،
« بالاطفاء المضادة التي يقع فيها بعض الناس اذ يفسر طبيعة النار وظواهراتها

(1) Boerhaave, Eléments de Chimie, Trad. 2 Vol., Leide, 1752, T. 1, P. 144.

(2) Chrls - Guillaume Scheele, Traité Chimique de L'art et du feu, Trad.,
Paris, 1781.

بكثير من اليسر حتى ليخيل للمرء أن جميع الصعوبات قد تذلت تماما . لكن ما أكثر الاعتراضات التي تنهض في وجه هؤلاء ! وما هو الا أن تغدو الحرارة نارا عنصرية حتى تكون الحرارة أثراً من آثار النار : هنا يكون الضوء هو النار الانقى وعنصراً من العناصر ، هنا ينتشر الضوء على مدى الكرة الارضية قاطبة ، ويتولى سعار النار العنصرية مهمة إيصال حركتها المباشرة اليه ، هنا يضحي الضوء عنصراً يمكن ضبطه بواسطة حامض البنغ Acidum Pingue الذي أطلقه تمده المزعوم ، الخ « . ان هذا التأجج الذي أشار اليه شيل اشارة ظاهرة لما يميز جدلية الجهل (دياالكتية الجهل) ، التي تذهب من الظلمة الى العمى متناولة في يسر المصطلحات الخاصة بنفس المسألة اللازمة لحلها . وبما أن النار لم تستطع الكشف عن سرها ، فقد اعتبرت وكأنها علّة عالمية قادرة على تفسير كل شيء . وكلما كان انسان ما قبل العهد العلمي أمياً ، كانت المسألة التي يتخيرها لبحثه كبيرة ، فهو لا يؤلف الا كتيباً صغيراً عن هذه المسألة الكبيرة . هكذا اقتصر كتاب المركيز دي شاتليه ، وهو كتاب يبحث في مسألة النار ، على ١٣٩ صفحة فقط .

في الجهود السابقة على العهد العلمي ، كان من الامور البالغة الصعوبة تحديد موضوع للدرس . فقد كانت المفهومات الاستحيائية والمفهومات الجوهرية مختلطة أشد الاختلاط في ظاهرة النار أكثر منها في أية ظاهرة أخرى . فبينما استطعنا في كتابنا العام أن نحلل هذه المفهومات تحليلاً منفصلاً ، ينبغي علينا هنا أن نتناولها بالدرس وهي في اختلاطها . واذا استطعنا أن نمضي في التحليل قدماً ، فبفضل هذه الافكار العلمية التي أتاحت لنا شيئاً فشيئاً أن نميز هذه الاخطاء . لكن النار لم تجد عملها كما وجدته الكهرباء ، فظلت عند انسان ما قبل العهد العلمي مثل ظاهرة معقدة تستمد قوامها من الكيمياء وعلم الحياة في آن . يجب علينا ، اذن ، أن نحترس ازاء مفهوم النار من اتخاذ الموقف التعميمي الذي يتفق مع غموض التفسيرات التي تذهب وتجيء من الحياة الى المادة ومن المادة الى الحياة في مقابلات لا تنتهي في سبيل تبين ظاهرات النار .

وهكذا تفيدنا النار في توضيح القضايا التي عرضناها في كتابنا عن تكون.

الروح العلمية *La Formation de L'esprit Scientifique* ، خاصة وانه ، عن طريق الافكار الساذجة التي تتكون منها هذه الروح ، يقدم لنا مثالا على العقبة الجوهرية *L'obstacle Substantialiste* وعلى العقبة الاستحيائية *L'obstacle Animiste* اللتين تعترضان سير التفكير العلمي .

سوف نبين ، بادئ ذي بدء ، الحالات التي تتبدى فيها التوكيدات الجوهرية غير مستندة الى أدنى دليل . فالأب ل . كاستل مثلا لا يشك في واقعية النار (٣) *Le Réalisme du feu* : « ان الالوان السوداء المستعملة في الرسم هي في معظمها ناتجة عن النار ، والنار دوما تترك في الاجسام التي تتلقى أثرها الحي شيئا مما يقرض ويحرق . يريد البعض أن يقول أن هذه هي الاجزاء المشتعلة التي تظل في الكلس ، وفي الرماد ، وفي الفحم ، وفي الدخان » . ما من شيء يسوِّغ هذه الديمومة الجوهرية *Permanence Substantielle* للنار في المادة الملوّنة (بكسر الواو) ، لكننا هنا نرى كيف يقوم التفكير الجوهري بوظيفته : الذي يتلقى النار يجب أن يظل مشتعلا ، وبالتالي أكالا أو قراضا *Corrosif* .

أحيانا يتبدى التوكيد الجوهري في نقاء ساكن ، مجردا تماما عن أي دليل، بل عن أي شبيهه . هكذا كتب دي كارلا (٤) : « ان الذرات المشتعلة تدفئ لأنها تكون ، وهي تكون لأنها كانت . . . لا ينفك هذا الفعل يحدث الا اذا افتقر الى سببه » . تتبدى الخصيصة الحشوية للنسبة الجوهرية هنا في أجلى مظاهرها . وان النكته التي أطلقها مولير عن القوة المنومة التي في الافيون ما منعت مؤلفا كبيرا في نهاية القرن الثامن عشر من القول بأن للقوة المولدة للحرارة في الحرارة خاصية التدفئة .

للنار ، عند كثير من المفكرين ، مثل هذه القيمة التي لا يحد شيء من بسطة نفوذها . فبويرهاف يزعم أنه لا يقدم أية فرضية عن النار ، لكنه لا يتردد في القول أن « عناصر النار تتلاقى في كل مكان ، وانها توجد في الذهب الذي هو

(3) R.-P. Castel, *L'Optique des couleurs*, Paris, 1740. P. 34.

(4) Ducarla, *Loc. Cit.*, P. 4.

أكثر الاجسام المعروفة صلابة كما توجد في فراغ توريتشلي (٥) والنار ، عند الكيمياوي كما عند الفيلسوف ، وعند المثقف كما عند العالم ، تتجوهر في يسر حتى انها تعلق في الخواء كما تعلق في الملاء . لا شك أن الفيزياء الحديثة سوف تعترف بأن الخواء (الفضاء) تجتازه ألوف من تموجات الحرارة ، لكنها لن تجعل من هذه التموجات صفة للفضاء . واذا ما لاح ضوء في ميزان حرارة محرّك ، لم تستنتج الروح العلمية من ذلك أن خواء توريتشلي يحتوي على نار كامنة .

أن تجوهر النار يوائم في يسر بين الصفات المتناقضة : فالنار يمكنها أن تكون حية سريعة في أشكال مبددة ، وعميقة متينة في أشكال مركزة . يكفي أن تثار مسألة التركيز الجوهرية حتى تتبين أكثر الواجه اختلافا . وعند كارا ، وهو كاتب كثيرا ما أثر عنه في نهاية القرن الثامن عشر (٦) : « ان السائل الحراري المتمم (١) Phlogistique نادر جدا في القش والورق ، على حين أنه يكثر في الفحم الحجري . فبينما تلتهب المادتان الاوليان عند أول ملامسة من النار لهما ، نجدهما في الفحم تستغرق زمنا طويلا حتى تحترق . لا يمكن تفسير هذا الاختلاف في النتائج الا اذا اعترفنا بأن السائل الحراري المتمم هو في القش والورق - وان كان أقل مما في الفحم الحجري - أقل تركزا وأكثر تبديدا ، وبالتالي أقل قابلية للتطور السريع . وهكذا تفسر تجربة ضئيلة الشأن ، كتجربة الورق الذي يشتعل سريعا ، بالكثافة الناشئة عن التركيز الجوهرية للسائل الحراري . هنا ، ينبغي لنا أن ننوه بهذه الحاجة الى تفسير التفصيلات للتجربة الاولى . هذه الحاجة الى التفسير الدقيق ملاحظة كثيرا عند العقول غير العلمية التي تزعم انها لا تهمل شيئا وتأخذ بحسبانها جميع أوجه الخبرة الملموسة . هكذا تضعنا النار أمام مسألتين خاطئتين : لقد أثرت في مخيلتنا ونحن أطفال ! ان نار القش تبقى ، في الخافية ، نارا متميزة .

(5) Boerhaave, Loc. Cit., 1, P. 145.

(6) Carra, Dissertation Elémentaire sur la nature de la Lumière, de la Chaleur, du feu et de L'électricité, Londres, 1787, P. 50.

(١) سائل تصوره الكيميائيون القدامى التفسير الاحتراق . - العرب -

كذلك بالنسبة الى مارا ، الذي يمثل العقل غير المتشدد في ما قبل العهد العلمي ، تقوم علاقة الخبرة الاولى بالحدس الجوهري على أساس مباشر أيضا . ففي كتيب يلخص أبحاثه عن النار يعبر عن نفسه على هذا النحو (٧) : « لماذا يتصل السائل المشتعل بالمواد غير المشتعلة دون سواها ؟ أليس بفضل قرابة خاصة بين حبيباتها والسائل الحراري الذي تتشبع به هذه المواد ؟ هذه الجاذبية ملاحظة جيدا . عندما ننفخ الهواء في قصبه ونحاول ابعاد المادة المشتعلة عن اللهب الذي يلتهمها ، نلاحظ أن هذا لا ينكفيء بلا مقاومة وانه سرعان ما يستعيد الفراغ المتروك » . لقد كان بوسع مارا أن يضيف لكي تكتمل الصورة الاستحيائية التي تستولي على خافيته ، : « وهكذا تعود الكلاب الى الطريدة التي كانت قد أقصيت عنها » .

تتيح لنا هذه الخبرة المألوفة جدا أن نكون مقياساً عن عناد النار حين تباشر طعامها . حسبنا أن نطفئ ، على بعد قريب ، شمعة متقدة أو أن ننفخ في محلول ملتهب لكي يتكون عندنا مقياس ذاتي عن مقاومة النار . وهي مقاومة أخف وطأة من مقاومة الأشياء الجامدة للمس . وهي لا تحدث من الآثار الا ما يوجه الطفل نحو تبني نظرية استحيائية عن النار . وفي جميع الاحوال تعتمد النار الى اظهار سوء خبيثتها : فهي صعبة الاشتعال ، كما هي صعبة الانطفاء . الجوهر ذو مزاج متقلب ، لذلك كانت النار شخصاً .

ما من شك في أن هذه الحيوية وهذا العناد اللذان تتصف النار بهما هما من الصفات الثانوية التي اجملتها المعرفة العلمية وشرحتها شرحا وافيا . ولقد أدى التجريد السليم اهمال شأنها . ان التجريد العلمي هو شفاء الخافية . لانه ، في أصل الثقافة ، يقوم بعزل العوائق الموزعة على جميع تفصيلات الخبرة .

(7) Marat, Découvertes sur la feu, L'électricité et la Lumière, Constatées par une suite d'expériences nouvelles, Paris, 1779, P. 28.

لكن ربما كانت الفكرة القائمة على أساس أن النار تتغذى كما يتغذى الكائن الحي هي التي تحتل أوسع مكان من بين الافكار التي تتشكل منها خافيتنا . فعبرة « غذى نارا » باتت عند الانسان المعاصر مترادف « ادامتها » ، لكن الكلمات تسيطر علينا بأكثر مما نظن ، والصورة القديمة تعود أحيانا اليها ، ما ان تعود الكلمة القديمة الى شفاهنا .

ليس من اليسير علينا أن نجمع النصوص التي تحتفظ فيها عبارة « غذاء النار » بقوة معناها الاصلي . يذكرنا أحد الكتاب في القرن السادس عشر بأن^(٨) : « المصريين كانوا يعتقدون بأنه (غذاء النار) حيوان ساحر لا يشبع ، يلتهم كل ما يلد ويتكاثر ، ثم يلتهم نفسه ، بعد أن يكون قد أتى على كل شيء ولم يبق عنده من حرارة وحركة لا يتمكن من ادخال الطعام في جوفه والهواء اللازم لنفسه » . وهكذا يمضي فيجنير في كتابه كله ناسجا على هذا المنوال . فهو يرى في كيمياء النار جميع خصائص الهضم . وهو يرى ، كما يرى غيره من المؤلفين ، ان الدخان براز النار . وهناك مؤلف آخر كتب في حوالي نفس الفترة يقول (٩) : « كان الفرس يقدمون الذبيحة للنار لكي تأكلها على المذبح وهم يتلون هذه الصيغة . . . كلي وأولي آيتها النار ، سيدة العالم كله » .

وفي القرن الثامن عشر يكتب بويرهاف قائلا أنه « يجد من الضروري توضيح ما يجب فهمه من عبارة غذاء النار في دراسة مطولة . . . فاذا سمي هكذا بالمعنى الضيق للكلمة ، فلأننا نعتقد بأن (هذا الجوهر) يؤدي واقعا وظيفة التغذية للنار ، وأنه بفعل النار يتحول الى جوهر صاف من النار العنصرية ، وأنه يتخلص من طبيعته الخاصة والاولية لكي يكتسب طبيعة النار ، وهكذا يقدم لنا واقعة تستحق منا الدرس (١٠) » . هذا ما فعله بويرهاف في صفحات عديدة حاول فيها

(8) Blaise de Vigenère, Traité du feu et du sel. Paris, 1622, P. 60.

(9) Jourdain Guibelet, Trois Discours Philosophiques, Eureux, 1603, P. 22.

(10) Boerhaave, Loc. Cit., t. 1, P. 303.

مقاومة العدس الاستيحائي الذي أراد تجنّبه لكن مقاومته كانت بالغة الضعف ،
 لانه لا يمكننا أبدا أن نقاوم حكما سابقا مقاومة تامة باضاعة كثير من الوقت في
 التهجم عليه . على كل حال ، لم يتخلص بويرهاف من الحكم السابق الاستيحائي
 الا بتقوية الحكم السابق الجوهري : فهو يرى ان **غذاء النار** يتحول الى **جوهر النار** .
 بالتمثل ، يصبح الغذاء نارا . لكن هذا التمثل الجوهري هو نفي لروح الكيمياء .
 الكيمياء يمكن أن تدرس كيف تتضامّ الجواهر وتمتزج وتتألف . هذه ثلاثة
 مبادئ يمكن الدفاع عنها ، لكن الكيمياء لا يمكنها أن تدرس كيف يتمثل جوهر
 جوهر آخر . وهي اذا قبلت بمثل هذا المفهوم ، وهو صيغة شبه علمية لمفهوم
 التغذية ، فقد أنارت ما هو مظلم بما هو أشد ظلاما ، أو بالأحرى فرضت على
 التفسير الموضوعي تلك الايضاحات الزائفة التي نعرفها في خبرتنا الداخلية
 عن الهضم .

سوف نرى الى أين تمضي بنا التقويمات اللا شعورية لغذاء النار ، وكيف
 انه من المرغوب فيه أن نتناول بالتحليل النفسي ما يمكن تسميته بعقدة بانتاغرويل
Complexe de Pantagruel القائمة في خافية ما قبل العهد العلمي . والحق
 ان المبدأ القائل بأن كل ما يحترق يجب أن يتلقى طعام النار هو مبدأ يعود الى
 ما قبل العهد العلمي . كذلك ليس هناك ما هو أكثر شيوعا في كونييات العصور
 الوسطى والعهد ما قبل العلمي من مفهوم غذاء الكواكب المستمد من التبخرات
 الارضية . فالتبخرات تغذيّ المذنبات ، والمذنبات بدورها تقدم الغذاء للشمس .
 نحن هنا لا نقدم الا بضعة نصوص ، جرى انتقاؤها في عهد متأخرة بقصد بيان
 ديمومة اسطورة الهضم وقوتها في تفسير الظواهر المادية . وهكذا كتب روبينيه
 في عام ١٧٦٦ (١١) : « لقد قيل بشيء من الاحتمال ان الكرات المشعة تتغذيّ من
 التبخرات التي تجتذبها الكرات المظلمة ، وان غذاء هذه الكرات الطبيعي هو هذا
 الدفق من الاجزاء المشتعلة التي تنبعث اليها من التبخرات على وجه الدوام ،
 والبقع الشمسية التي تتراءى لنا وكأنها تتمدد وتظلم كل الايام ليست الا تجمعا

(11) Robinet, Loc. Cit., t. 1, P. 44.

للأبخرة الهائلة التي تجتذبها ، والتي يكبر حجمها • ان هذا الدخان الذي نحسبه يرتفع الى السطح انما يسقط عليه على خلاف ما يظهر لنا • والشمس في النهاية تمتص كمية كبيرة جدا من المادة المختلفة التي لا تتغلف وتتلبّس بها وحسب ، كما يزعم ديكرت ، بل تشيع فيها كليا • وهي ، اذا جاز التعبير ، ما ان تنطفئ حتى تموت ، بالانتقال من حالة الضوء ، الذي هو حياتها ، الى حالة الظلمة ، التي يمكننا أن ندعوها موتا حقيقيا بالقياس اليها • وهكذا تموت العلكة فيما هي ترتوي من الدم « • يلاحظ هنا ان الحدس الهضمي له السيادة : فعند روبينيه تموت الشمس بسبب افراطها في الطعام •

ان مبدأ اغتذاء الكواكب بالنار يبدو في غاية الوضوح اذا نحن قبلنا بالفكرة التي ظلت شائعة جدا حتى القرن الثامن عشر ، ومفادها ان « جميع الكواكب مخلوقة من جوهر سماوي واحد هو النار اللطيفة (١٢) » • فكانت تعقد مقارنة أساسية بين الكواكب المشكلة من النار اللطيفة السماوية والكبريتات المعدنية المشكلة من النار الكثيفة الارضية • وكان يعتقد انه بهذه المقارنة تتوحد الظواهر الارضية والظواهر السماوية ويتوصل بها الى رؤية شاملة للعالم •

هكذا تجتاز الافكار القديمة خلال العصور • انها تعود اليها دائما من خلال الهواجس التي نشعر بها نوعا ، محملة بشحنتها من السذاجة الاولى • فمثلا ، يقوم أحد كتاب القرن السابع عشر فيوحد في يسر أفكار العصور القديمة وأفكار عصره (١٣) : « بما أن الكواكب في النهار تجتذب الابخرة لكي يأخذ منها الليل انعكاسه ، سمي الليل باسم أوريبيد مطعم الكواكب النائمة » • بدون أسطورة الهضم ، بدون هذا الايقاع المعدي للكائن الاكبر ، الذي هو الكون ، الذي ينام ويأكل خالعا نظامه على النهار والليل - بدون هذا كله ، يصبح كثير من احداث ما قبل العهد العلمي ، أو احداث الشعر ، غير قابل للتفسير •

(12) Joachim Poleman, Nouvelle Lumière de Médecine du Mystère du Soufre des Philosophes, Trad. du Latin, Rouen, 1721, P. 145.

(13) Guibelet, Loc. Cit., P. 22.

- ٤ -

مما يشير الاهتمام على وجه الخصوص ، ونحن في صدد تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي ، أن نرى كيف يتصدى لتفسير الظواهر الجديدة حدس محمل بالعاطفية كحدس النار . فقد كانت الحال على هذا المنوال حينما قام الفكر قبل - العلمي بالبحث عن تفسير للظواهر الكهربائية .

والبرهنة على ان السائل الكهربائي عبارة عن نار ليس الا ما هي بالامر الصعب اذا نحن ارتضينا لانفسنا الوقوع في غواية الحدس الجوهري . هكذا سارع الاب دي مايجن (١٤) « الى الاقتناع بقوله « في جميع المواد القارية Bitumineux والكبريتية ، كالزجاج والقطران نلتقي بالمادة الكهربائية ، كما الصاعقة تستمد مادتها من المواد القارية والكبريتية المنجذبة بفعل الشمس » . ينتج عن ذلك ان ليس علينا الا البرهنة على ان الزجاج مادة حاوية على النار ، وتصنيفه في فئة الكبريت والقطران . هكذا يرى الاب دي مانجن « ان الرائحة الكبريتية التي يطلقها (الزجاج) عند احتكاكه وتكسره (هي البرهان القاطع) على ان المواد القارية والزيتية غالبية عليه » . ألا ينبغي هنا أن نذكر بعلم الجذور اللغوية القديم ، وهو العلم ذو الفعالية الشديدة في الروح قبل - العلمية ، الذي يزعم ان الزجاج Vitriol القارض قد جاء من زيت الزجاج Huile de Vitre ?

هنا ، يبدو الحدس الداخلي ، الصميمي ، الوثيق الصلة بالحدس الجوهري في منتهى البراعة بمقدار ما يدعي القدرة على تفسير الظواهر العلمية البالغة التحديد « فالزيت والقار والمطاط والصمغ الصنوبري - هذه المواد على وجه الخصوص وضع الله النار في قلبها كما يوضع اللب في داخل القشرة التي تحتويه وتطبق عليه » . وما أن يقع المرء تحت وطأة مجاز الخاصية الجوهريّة التي تنطوي عليها القشرة حتى يغدو أسلوبه مثقلا بالصور البيانية . ولئن كانت النار الكهربائية

(14) Abbé de Mangin, Question Nouvelle et Interessante sur L'électricité, 1749, PP. 17, 23, 26.

« تستطيع أن تشير الى نفسها خلصة ، حيث تكمن الكريّات النارية ، التي يمتلئ بها نسيج الاجسام الذاتية الكهربائية ، وتستطيع أن تفصل هذا الجسم الغفير من الاكياس الصغيرة التي تتمتع بقوة الامساك بهذه النار الخفية ، السرية ، الداخلية ، وتستطيع أن تتحد بها جميعا ، فان هذه الحزم النارية الطليقة ، المتقلقلة ، المحتشة ، الفالطة ، المتجمعة ، العنيفة الهياج ، تستطيع أن تبعث في النار الكهربائية فعلاً وقوة وسرعة وتسارعاً وغضباً ينشأ عنه انفصال في المركب وتكسير واحترق وتفطيت » . لكن لما كان هذا الامر محالاً ، كان لا بد لاجسام ذاتية الكهربائية ، من مثل الصمغ الصنوبري ، أن تترك النار مقفلاً عليها في داخل قشراتها الصغيرة ، لانها غير قادرة على تلقي الكهرباء عن طريق الانتقال . هذا هو التفسير اللغوي لخاصية الاجسام الرديئة النقل الكهربائي أو العازلة ، بكل ما فيه من تصور وهمي ، وبكل ما يحمله من حرفة . يضاف الى ذلك ان هذا التفسير الذي يترتب عليه نكران خاصية من الخصائص هو تفسير في منتهى الغرابة ، لانه تفسير لا نرى فيه ضرورة للنتيجة . ويبدو ان هذه النتيجة ما هي الا قطع لهاجس كان يتطور في يسر عندما نكتفي بتجميع المترادفات اللغوية .

وعندما نقر بأن الشرارات الكهربائية الصادرة عن الجسم البشري المكهرب انما تقوم باشعال ماء الحياة (*) ، نكون عندئذ أمام عجيبة حقيقية . النار الكهربائية ، اذن ، هي نار حقيقية . ان ونكلر يؤكد « حادثة بمثل هذه الغرابة » . والحق اننا لا يمكننا أن نرى كيف يتأتى لمثل هذه (النار) اللماعة ، الحارة ، اللهبية ، أن يحتويها الجسم البشري بدون مضايقة ! فهذا مفكر دقيق ونفاذ مثل ونكلر لا يعتوره شك في مسلّمة جوهرية ، وانه لهو غياب النقد الفلسفي الذي يلد المسألة الخاطئة (١٥) .

« ان السائل لا يمكن أن يشعل شيئاً الا اذا كان حاوياً على جزئيات نارّية »

(*) نوع من المشروب Eau-de-Vie . - المغرب -

(15) Winkler, Essai sur la Nature, les Effets et les Causes de L'électricité, Trad., Paris, 1748, P. 139.

وبما ان النار تخرج من الجسم البشري ، فلأنها كانت فيما مضى داخل الجسم البشري . ألا يجدر بنا أن نلاحظ مبلغ السهولة التي استطاع بها انسان مما قبل العهد العلمي أن يقبل بمثل هذه النتيجة وهو يسير غير مرتاب وراء الغوايات التي نوهنا بها في الفصول السابقة ؟ السر الوحيد هو ان النار تشعل الكحل (*) في الخارج بينما هي لا تشعل الانسجة في الداخل . ان فقدان الحدس الواقعي لا يؤدي مع ذلك الى نفي حقيقة النار . ان حقيقة النار هي من الحقائق التي لا يمكن نفيها .

- 0 -

ان جعل كل من الحرارة والنار حقيقة واقعة هو من الامور البارزة جدا حين يستخدم في موضوعات الجواهر الجزئية والجواهر النباتية . ان الغواية الواقعية قد تفضي بنا الى معتقدات وممارسات غريبة . هاكم واحدا من بين ألف الامثلة التي أوردها باكون في (سيلفا روم المقطع ٤٥٦) : « اذا كان لنا أن نؤمن بصلة قربي معينة ، فما علينا ألا نحدث عدة ثقوب في جذع شجرة التوت وندخل فيها أسافين معمولة من خشب شجرة ذات طبيعة حارة ، كالبطم والمصطكا (**) والغياك والعرعر الخ ... حتى نحصل على توت من نوع ممتاز ويغدو للشجرة ثمر كثير - وهو أثر يمكن أن نعزوه الى هذه الحرارة الاضافية التي تنشط النسغ وتحييه وتقويه ، والى الحرارة الاصلية التي للشجرة » . ان هذا الاعتقاد بفعالية الجواهر الحارة يتصف بالديمومة عند اناس معينين ، لكنه على الاغلب يضعف وينتقل شيئا فشيئا الى حال من المجاز أو الرمز . وهكذا زالت قيمة أكاليل الغار وباتت تصنع الآن من الورق الاخضر . لكن ها هي ذي في تمام قيمتها (١٦) : « ان أغصان

(*) الاصل العربي للكلمة الفرنجية Alcool هو (الكحل) لا الكحول كما شاع خطأ .

- المغرب -

(**) المصطكا : شجر من الفصيلة البطمية يستخرج منه علك تجاري معروف .

- المغرب -

(16) Jean-Baptiste Fayol, L'Harmonie céleste, Paris, 1672, P. 320.

هذه الشجرة التي كرسها الاقدمون للشمس ، لتتويج جميع غزاة الارض ، اذا ما تصادمت فيما بينها انبثقت منها نار ، مثلما تنبثق من عظام الليث » . والنتيجة الواقعية لذلك ليست ببعيدة : « فالغار يشفي قروح الرأس ، ويمحو نمش الوجه » . ما أشد لمعان الجبين تحت الاكليل ! أما في عصرنا هذا الذي أضحت فيه القيم كلها من قبيل المجازات ، فلم تعد أكاليل الغار إلا شفاء للغرسة المقروحة .

اننا مدعوون لان نضرب صفحا عن جميع هذه المعتقدات الساذجة لاننا لم نعد نفهمها الا في نطاق تفسيرها على انها من قبيل المجاز . لكننا ننسى انها تنطبق على حقائق ببيكولوجية . والحال ان المجاز ، في الغالب لا يمكننا أن نجرده تماما عن الواقعية أو المحسوسية . لاننا ما نزال نلمس ، في بعض التحديدات التامة التجريد أثراً لشيء من الحسي . وان تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي يجب أن يعيد الحياة الى عملية التجريد عن الواقع وأن ينجزها . وما يعطينا مقياسا صحيحا للاخطاء المتعلقة بالنار هو انها ما زالت مرتبطة الى الآن ، ولعل ذلك أكثر من أي شيء آخر ، بتوكيدات محسوسة واختبارات داخلية لم يتطرق اليها .

وهكذا نجد أن بعض الصفات الخاصة جدا ، وهي مما يجب أن يتناوله الندرس على وجه الخصوص ، قد جرى تفسيره بالرجوع البسيط الى النار الداخلية . من ذلك مثلا ، « القوة الفائقة التي نلاحظها في بعض النباتات . . . التي تنطوي في داخلها على كمية من النار أكبر مما تنطوي عليه سواها رغم كونها من نفس الفصيلة » . هكذا يتطلب النبات الحساس (الميموزا) نارا أكثر مما يتطلبه نبات آخر أو شيء طبيعي . أفهم من هذا ، ان هذا النبات اذا لمس جسما آخر نقل اليه قسما كبيرا من ناره ، التي هي حياته ، فيقع في المرض وتذوي أوراقه وغصونه الى أن يحين الوقت لاستعادة قواه فيستمد من جديد نارا من الهواء الذي يحيط به . لهذه النار الداخلية ، التي يطلقها النبات الحساس (الميموزا) حتى الاستنزاف ، اسم آخر عند المحلل النفسي . لكنه لا يرقى الى درجة المعرفة الموضوعية . اننا لا نرى شيئا يمكنه أن يبيح لنا موضوعيا أن نعقد المقارنة بين نبات حساس عار عن الارتكاس (رد الفعل) وآخر حساس استنزفت منه ناره . ان التحليل النفسي

للمعرفة الموضوعية يجب أن يطرد نهائياً جميع الافكار العلمية التي لم تتشكل في الخبرة الموضوعية تخصيصاً .

لقد طالما تكرر القول ، في جميع المجالات وبدون أدنى ظل من البرهان ، بأن النار هي مبدأ الحياة . ان مثل هذا القول هو من القدم حتى لقد بات يتداول تلقائياً . ويبدو أنه مقنع بصفة عامة ، لكنه مقيد بتحفظ وحيد هو أنه لا ينطبق على أية حالة خاصة . وكلما كان هذا التطبيق دقيقاً ، كان أكثر مدعاة الى الضحك . هكذا وصل أحد أطباء التوليد ، بعد أن بحث مطولاً في نمو الجنين وفي فائدة ماء السابياء(*) ، الى القول بأن الماء ، هذا السائل الناقل الغذاء في الممالك الثلاث ، يجب أن يكون مشبعاً بالنار . ولعلنا نجد في خاتمة بحثه مثالا صبيانياً على الجدلية الطبيعية بين الماء والنار (١٧) : « الانبات هو نوع من الشراة تتوق بها (النار) الى الاتحاد بالماء الذي يقوم في الحقيقة بدور المعدل » . هذا الحدس الجوهرى للنار المنشطة للماء هو من الغواية بحيث يحمل مؤلفنا على « تعميق » نظرية علمية قائمة في منتهى البساطة والوضوح على مبدأ أرخميدس : « ألا يجب أن نتغلى بالمرءة عن المبدأ السخيف القائل بأن الماء يتحول بخارا ويتصاعد في الجو لانه ، وهو في حالته الجديدة ، أخف من حجم الهواء ؟ » . يرى هذا المؤلف ان مبدأ أرخميدس يصل الى آلية فقيرة جدا . فهو بالعكس يرى من الواضح أنها هي النار ، هذا السائل المنشط . الذي لا عطالة فيه ، التي تسحب الماء وترفعه الى أعلى . « ربما كانت النار هي هذا المبدأ الفاعل ، هذا السبب الثاني الذي تلقى كل طاقته من الخالق ، والذي عنته الاسفار المقدسة بهذه العبارة : « وكانت روح الله ترفرف فوق الماء » . هذا هو « التحليق » الذي يحمل طبيياً مولداً على التأمل في ماء السابياء .

(*) ماء السابياء Annios غشاء الجنين لدى المجترات اللبونة والطيور والزواحف .

- المغرب -

(17) David, loc. cit., PP. 290, 292.

ان النار ، من حيث جوهر ، هي أكثر الجواهر تعرضا للتقويم ، الامر الذي يترتب عليه تشويه الاحكام الموضوعية أكثر من أي شيء آخر . اذ يبلغ تقويمها ، في اعتبارات كثيرة ، الى درجة ترقى بها الى قيمة الذهب . فالذهب ، فيما عدا قيمته المتعلقة بالانبات اللازم لتحويل المعادن وقيمتها المتعلقة بالعلاج مما كان شائعا في الصيدلة قبل - العلمية ، ليس له الا قيمة تجارية . كذلك كثيرا ما يعزو السيميائي قيمة للذهب لانه قابل لتلقي النار العنصرية : « ان خلاصة الذهب نار كلها » . زيادة على ذلك ، ان النار متقلبة التقويم اذ تنقل من أكثر القيم اغالا في الميتافيزائية الى أكثر المنافع جلاء . فهي المبدأ الفاعل الاساسي الذي يختصر جميع أفعال الطبيعة . في القرن الثامن عشر كتب أحد السيميائيين (١٨) : « النار ... هي الطبيعة التي لا تصنع شيئا عبثا ، ولا يمكن أن تخطيء ولا يصنع شيء بدونها » . وعلى سبيل الملاحظة العابرة ، قد لا يقول الرومانسي شيئا آخر عندما يتكلم عن الحب . ان أقل مشاركة من النار كافية ، اذ ما أن تبصم خاتم حضورها حتى تظهر لنا قوتها : « النار دائما هي الاقل من حيث الكمية ، لكنها الاولى من حيث النوعية » . ان هذا الفعل المنسوب للكميات الخسيسة هو من الاعراض البارزة جدا . وحين نفكر في هذا الفعل غير مستندين الى براهين موضوعية ، كما هو الحال هنا ، فلأن الكمية الخسيسة الداخلة في الاعتبار قد جرى تعظيمها بواسطة ارادة القوة . اننا كثيرا ما نركز الفعل الكيمياوي في مسحوق اصفاء Poudre de projection والحقد في سم زعاف، وحباً هائلاً ، لا يوصف ، في هدية متواضعة . ان للنار أفعالا من هذا القبيل في خافية (لا شعور) انسان ما قبل العهد العلمي : فذرة واحدة من النار في أحلام كونية معينة كافية لاشعال العالم .

ان الكاتب الذي ينتقد الصور السهلة معلنا (١٩) : « اننا لم نعد في ذلك

(18) Lettre philosophique en suite du Cosmopolite, Paris, 1723, PP. 9, 12.

(19) Reynier, Du feu et de quelques-une de ses principaux effets, Lausanne, 1787, PP. 29, 34.

العصر الذي كان يُفسر فيه لذع بعض الاجسام المحلّة (بكسر الحاء) وتأثيراتها بما عليه جزئياتها وأشكالها من لطافة . تلك الاشكال التي كان يُزعم بأنها عبارة عن زوايا حادة تشيع في الاجسام وتفصل أجزاءها بعضها عن بعضها الآخر» . ثم يذهب يحبّر في وقت لاحق بضع صفحات قائلا : النار « هي العنصر الذي يسكن كل شيء ، وكل شيء مدين لها بوجوده ، وهي باعتبارها مبدأ الحياة والموت ، والوجود ، والعدم ، تتولى تحريك نفسها بنفسها ، وتحمل في داخلها قوة الحركة » . ان مثل هذا الكاتب ، على ما يبدو تتوقف عنده الروح الناقدة أمام القدرة الداخلية للنار ، لان التفسير بالنار يذهب الى مثل هذه الاعماق التي تستطيع أن تقرر الوجود والعدم للأشياء ، وفي نفس الوقت تجرد جميع التفسيرات الميكانيكية الفقيرة من قيمتها . ان التفسير بالنار هو تفسير غني دائما وفي جميع المجالات . ان التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يجب ألا ينفك عن شجب مثل هذا الادعاء بالعمق والثراء الداخليين . لذلك كان من حقنا أن نتناول بالنقد ما عليه النظرية الذرية المجازية من بساطة . كما ينبغي لنا أن نقر بأنها قابلة للبحث الموضوعي على حين ان اللجوء الى قدرة النار غير المحسوسة ، كما هو الحال بالنسبة الى لذع بعض العناصر المحلّة ، يذهب بنا الى حد مقاومة كل امكانية للبحث الموضوعي .

ان معادلة النار والحياة تشكل الاساس في نظام باراسلز Paracelse الذي يرى ان النار هي الحياة ، وان الذي يحتوي على النار انما يمتلك بزره الحياة بحق . فالزئبق العادي ، في نظر اتباع باراسلز ، ثمين لانه يحتوي على نار بالغة الكمال ، وعلى حياة سماوية دفيئة ، تماما كما يقول بويرهاف (٢٠) . والنار ، هذه الدفيئة ، هي التي يجب استحضار فعلها من أجل الشفاء والتوليد . وهناك نيقولا دي لوك ، الذي يقيم كل تقويمه للنار على أساس صميميتها (٢١) . فالنار ، عنده « اما داخلية ، واما خارجية . فالخارجية آلية ، مفسدة ، مخربة . والداخلية بازره ، مولّدة ، منضجة » . وللحصول على جوهر النار ، يجب الذهاب

(20) Boerhaave, loc. cit., t. 11, P. 876.

(21) Nicolas de Locques, Les Rudiments de la philosophie naturelle touchant le systeme du corps mixte, Paris, 1665, PP. 36, 47.

الى المنبع ، الى حيث تكون مختزنة ومتكثفة ، أي الى المعادن • ها كم ، اذن ، أفضل ما تفتقت عنه قريحة الكيمياويين القدامى Spagiristes تبريراً لمنهجهم : « هذه النار السماوية ، التي تصنع الحياة ، هي نار شديدة الفعالية في الحيوان ، لانها تتبدد فيه بأكثر مما تتبدد في النبات والمعادن • ولهذا السبب شغل الفلاسفة أنفسهم دواماً بالبحث عما يكفل إعادة تموينها • ولما رأوا أنهم لا يمكنهم الاحتفاظ بها طويلاً بواسطة نار الحياة ، التي هي في الحيوان والنبات ، عمدوا الى البحث عنها في المعادن حيث تكون أشد ثباتاً وأقل قابلية للاحتراق ، وأكثر تجمعاً واعتدالاً في الفعل ، تاركين الاعشاب الى اتباع غالين Galénistes يصنعون السلطة منها حين لا تكون هذه النار المباركة الا كما تكون الشرارة » •

باختصار ، لقد كان الاعتقاد في المملكة العالمية بأن النار تؤدي بنا الى هذه النتيجة الجدلية (الديالكتية) السريعة : اذا كانت النار مبددة في الحيوان ، فلأنها مكثفة في المعادن ، حيث نجد لها دفينة ، صميمية ، جوهرية بالتالي كلية القدرة • هكذا الحب الصامت هو الحب المخلص •

- ٧ -

ان الايمان الشديد بالقدرات الخفية لا يمكن أن يتأتى حصراً عن الاختبار الخارجي للرفاه الذي نستشعره ونحن أمام موقد مضيء ، بل لا بد من اضافة توكيدات أخرى ، موغلة في داخليتها ، ذات صلة بالهضم ، وبالعدوبة المريحة التي نحسها اذ نتناول حساء ساخناً ، وباللذع السليم الذي نحسه في المشروبات الروحية • والانسان الشبعان تنقصه العناصر العاطفية الاولى لكي يفهم ببيكولوجية البداة الواقعية ، ما دام لم يقم بتحليل هذه العناصر تحليلًا نفسيًا • لقد بينا في مكان آخر كل ما تدين به الكيمياء الواقعية لاسطورة الهضم • ففيما يتعلق باحساس الحرارة المعدية ، وما ترتب عليها من استنتاجات مغلوطة موضوعياً ، يمكننا أن نجتمع من ذلك ما لا حصر له من الروايات • هذا الاحساس ، في الغالب ، هو المبدأ الحسي للصحة والمرض • أما فيما يتعلق باحساس الآلام الخفيفة ، فكتب الممارسين

ترکز الانتباه بصفة خاصة على « الحرارة » و « السيالات الحرورية » ، وما يعترى المعدة من حالات جافة تكفل لها الاشتعال . كل مؤلف يظن نفسه مضطرا لان يفسر هذه الحرارة تفسيرا متفقا مع منهجه ، ذلك لان هذا المنهج يفقد كل قيمة له ان هو لم يفسر كل ما له صلة بالمبدأ الاساسي للحرارة الحيوية . هكذا يفسر هيكيه نار الهضم طبقا لنظريته المتعلقة بالطاحونة المعدية ، فيذكرنا بالدولاب الذي يشتعل بالاحتكاك . اذن ، ان طحن المعدة للاطعمة هو الذي ينشئ الحرارة اللازمة « لاحتراقها » . والصفة العلمية التي يتمتع بها عالم مثل هيكيه لا تسمح له بالذهاب الى حد مشاركة بعض علماء التشريح اعتقادهم بأنهم « رأوا نارا تخرج من معدة العصافير » (٢٢) . الا أنه يدلي بهذا الرأي واضعا اياه في محله الصحيح ، مبيّنا أن صورة الانسان الذي يتقيأ لها وهو يرقص هي صورة محببة لدى الخافية (اللا شعور) . ان نظرية الاضطرابات المعدية خليقة بأن تفسح المجال لما لا نهاية له من الملاحظات ، فهي تتيح لنا البحث في أصل جميع المجازات التي آلت الى تصنيف الاطعمة بحسب حرارتها وبرودتها ، حرارتها اليابسة ، حرارتها الرطبة ، وقوتها المنعشة . كما تمكننا من أن نثبت في يسر مبلغ الضرر الذي سببته الاحكام المسبقة المتشكلة عن الانطباعات الاولية ، العابرة ، التافهة ، في الدراسة العلمية للتقييم الغذائية .

وبذلك نجدنا غير مترددين في البحث عن أصل من الاحساسات الداخلية Cénésthésique لكي نفسر بعض الاحداس الفلسفية الاساسية ، لا سيما ونحن نعتقد أن ما يحوزتنا من حرارة داخلية ، مغلفة ، محفوظة ، ان هو الا عملية هضم ممتعة ، تفضي بنا لا شعوريا الى التسليم بوجود نار خفية ، غير مرئية ، في داخل المادة ، أو في بطن المعدن - على حد تعبير أهل السيمياء . ان النظرية التي تقوم على هذه النار المنبعثة من المادة تضعنا أمام مذهب مادي من نوع خاص يجب أن نوجد له تسمية خاصة ، اذ تمثل تباينا فلسفيا كبيرا يقع في موقع الوسط بين المذهب المادي والمذهب الاستحيائي . فهذه الحرورية Calorisme تتفق مع جعل

(22) Hecquet, de la digestion et des maladies de l'estomac, Paris, 1712, P. 263.

النفس شأنها ماديا (تمديد النفس) أو مع جعل المادة شأنها حيا (استحياء المادة) ، فهي بهذا الاعتبار صيغة انتقال بين المادة والحياة . انها الوجدان الاصم للتمثل المادي للهضم ، ولحيونة غير الحي Animalisation de l'inanimé .

ونحن لو عدنا الى اسطورة الهضم هذه ، لاحسنا بالمعنى والقوة فيما قيل على لسان الزئبق في الكوزموبوليت بصورة أفضل (٢٣) : « أنا نار في داخلي ، والنار مني بمثابة اللحم ، وهي حياتي » . وهناك « سيميائي آخر يعبر عن هذه الفكرة بطريقة أقل تخييلا لكنه يصل الى نفس النتيجة : « النار عنصر يتحرك في مركز كل شيء » (٢٤) . ما أسهل أن يكون لمثل هذه العبارة معنى ! في الاساس ، ان القول بأن لجوهر ما داخلا ومركزا ليس أقل مجازية من القول بأن له بطنا ، وأن نتحدث عن صفة وعن ميل معناه اننا نتحدث عن قابلية للطعام . وأن نضيف الى ذلك قولنا ، كما يفعل أهل السيمياء ، بأن هذا الداخل هو موقد تحضن فيه النار - المبدأ التي لا تقبل التحطم ليس الا اقامة ملتقيات مجازية متمركزة فوق عقائد يقينية ذات صلة بعملية الهضم . يجب أن نبذل جهودا كبيرة من الموضوعية لكي نفصل الحرارة عن الجواهر التي تتبدى فيها ، ولكي نجعل منها حالة انتقالية تماما ، وطاقة لا يمكن أن تكون كامنة ولا خبيثة بأي حال .

ان جعل النار في الداخل ، أو تدخيل النار Intériorisation du feu أمر لا يعظم من شأنها وحسب ، وانما يتيح الظهور لاكثر التناقضات شكلية . وهذا ، بحسب رأينا ، ليس دليلا على الخصائص الموضوعية بل على القيم البسيكولوجية . ولعل الانسان هو الشيء الطبيعي الاول الذي تحاول الطبيعة أن تتناقض معه ، وهذا هو السبب الذي من أجله تتجه الفاعلية الانسانية الى تغيير وجه الكوكب . لكننا ، في هذا المقال الصغير ، يجب ألا نأخذ بالاعتبار الا تناقضات النار وأكاذيبها . بفضل التدخيل ، تأتي الى الحديث عن النار غير المشتعلة . كتب يواكيم بولمان بعد أن اشتغل زمنا طويلا على مادة الكبريت - كتب يقول (٢٥) :

(23) Cosmopolite, loc. cit., P. 113.

(24) Lettre philosophique en suite du cosmopolite, loc., cit., P. 18.

(25) Polman, loc. cit., P. 167.

« بما ان هذا الكبريت قد كان ، وهو في حالته الطبيعية ، نارا مشتعلة وضوءا ساطعا في الخارج فهو الآن لم يعد خارجيا بل داخلي وغير قابل للاشتعال . لم يعد نارا وهاجة خارجيا بل داخليا . وكما كان في السابق يحرق كل ما هو قابل للاشتعال ، كذلك هو في الحاضر يحرق الامراض الخفية بقدرته . وكما كان الكبريت قبل طبخه يلمع خارجيا ، فقد بات الآن لا يلمع الا في الامراض أو في النفوس المظلمة ، التي ما هي الا أرواح أو خصائص لسرير الموت . . . والنار ترد هذه النفوس المظلمة نفوسا خيرة مثلما كانت عليه عندما كان الانسان سليما معافى » . اننا ، عندما نقرأ مثل هذه الصفحات ، ينبغي لنا أن نتساءل من أي جهة هي واضحة ، ومن أي جهة هي غامضة . والحال ان ما كتبه بولمان غامض حقا من الوجهة الموضوعية ، وان الانسان العلمي المطلع على الكيمياء والطب ليحترق في تسمية هذه الخبرات المذكورة . أما من الوجهة الذاتية فتتبدى لنا كتابته واضحة اذا نحن بذلنا جهدا للحصول على مادة للتحليل النفسي ، واستبعدنا، على وجه الخصوص ، العقد الناشئة عن عاطفة التملك وانطباعات النار الداخلية . ان هذا لهو الدليل على ان هذه الكتابة ذات تماسك ذاتي ، لا تماسك موضوعي . ان تعيين محور الموضوع على هذا النحو ، سواء أكان ذاتيا أم موضوعيا ، ليبدو لنا انه أول تشخيص للتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية . واذا كان مجمل الاعتقادات الشخصية ، في معرفة ما ، يتجاوز مجمل المعارف التي يمكن توضيحها وتعليمها واثباتها ، كان التحليل النفسي ضرورة لا غنى عنها . ان بسيكولوجية رجل العلم يجب أن تجنح به الى بسيكولوجية متعارف عليها بوضوح ، والعالم يجب أن ينأى بنفسه عن تشخيص معرفته (*) ، وبصورة تناسبية يجب عليه أن يقسر نفسه على جعل اعتقاداته شأنا من شؤون المجتمع .

ان الاثار الفيزيولوجية التي تحدثها الحرارة في أجسامنا شائعة في المعرفة ما قبل - العلمية ، ودليل ذلك أن الحرارة الداخلية تحدد لنا أنواعا منها لا يستطيع المختبر الحديث أن يميز فيما بينها . بعبارة أخرى ، أن الجسم البشري يوحى

لنا بنقاط نارية يضطر أهل السيمياء الى تحقيقها • يقول أحدهم (٢٦) : « يميز الفلاسفة (الحرارة) تبعا لدرجة حرارة الحيوان ، فيصنفون منها ثلاثة أنواع أو أربعة : فحرارة هاضمة كحرارة المعدة ، وأخرى مولدة كحرارة الرحم ، وثالثة مخثرة كحرارة السائل المنوي ، وأخرى دارة للبن كحرارة حلقات الثدي ٠٠٠ فالحرارة في المعدة تفسخ المواد الغذائية وتهضمها ، وفي الرحم تحضن الجنين ، وفي الكلي والكبد وحلقات الثدي دارّة وحارقة » • وهكذا نجد أن الاحساس بالحرارة الداخلية ، مع الف من المباينات الذاتية ، يجد ترجمة له في علم بالنعوت Science d'adjectifs كما هو الحال دائما في كل علم تعترضه عوائق من الاعتقادات بالجواهر أو بالحياة •

ان اللجوء الى الجسم البشري كمصدر لمعرفة الحرارة يفرض نفسه منذ زمن بعيد ، حتى وان كانت الروح العلمية قد شهدت بعض التطور • لما أريد صنع أول ميزان للحرارة ، كان الجسم البشري احدى النقاط الثابتة التي جرى التفكير فيها في بادئ الامر من أجل تعيين درجات الحرارة • يبقى أن نعرف بالانقلاب الموضوعي الذي أحدثه الطب الحديث حين يحدد حرارة الجسم البشري بالمقارنة مع الظواهر الفيزيائية • ان المعرفة العامة تعمل من منظور معاكس ، حتى وان كانت داخل نطاق من التجارب المحددة بعض التحديد •

- ٩ -

لكن « هذه الحرارة الخفيفة ، التي تبعث فينا الحياة » ، كما يقول أحد الاطباء في نهاية القرن الثامن عشر ، أكثر ما تكون ظهورا عندما نعتبرها تحقيقا كليا للحياة ، وهي في اختلاطها أو في تركيبها ، وبدون أي تحييز مكاني • لان الحياة الجارية في الخفاء ما هي الا حرارة مختلطة • وان هذه النار الحية لها التي تشكل الاساس في مفهوم النار الخبيثة ، غير المرئية ، التي لا لهيب لها • وعندئذ تنطلق الحياة اللانهائية للهواجس العليمة من عقالها • ولما كانت

(26) Nicolas de Locques, loc., cit., T.I.P. 52.

النوعية البادية قد انفصلت عن المبدأ المشتعل ، وما عادت النار ذلك اللهب الاصفر ، ولا ذلك الفحم الاحمر ، بل أضحت نارا غير مرئية ، فقد بات ممكنا أن تتقبل من الخصائص أكثرها تنوعاً ، ومن النعوت أكثرها اختلافاً . لتأخذ الماء القوي l'Eau-forte الذي يحرق البرونز والحديد . فناره الخبيثة التي لا حرارة فيها تحرق المعدن حرقاً كاملاً فلا تبقي له على أثر ، هذا الفعل البسيط ، الخفي ، المثقل بالهواجس اللاشعورية ، انما يختفي وراء النعوت طبقاً لقاعدة في الخافية (اللاشعور) مؤداها : أن الشيء ، كلما قلت معرفتنا به زاد كلامنا عنه . يقول تريويزان (٢٧) ، في معرض حديثه عن الماء القوي ، ان هذه النار الخبيثة لهي نار « لطيفة ، متبخرة ، هاضمة ، دائمة ، محيطة ، هوائية ، واضحة ، صافية ، منغلقة عليها ، غير جارية ، متغايرة نافذة ، حية » . بكل بداهة ان هذه النعوت لا تعيّن لنا شيئاً ، بل تعبر عن عاطفة ، وعن حاجة للتدمير بارزة للعيان .

ان اللذع الذي يحدثه سائل ما ليدهش جميع النفوس . لقد طالما رأيت تلميذاتي وقد عرتهن الدهشة من تكلس الفدام (غطاء الزجاج) بحامض الكبريت . فقد كانت بلوزات العاملات الشابات تتلوث بالاحماض على وجه الخصوص ، بالرغم من كل التوصيات ، أو لعل ذلك ناشيء عن هذه التوصيات ، ان أردنا النفاذ الى الدوافع الخفية الكامنة في الخافية (اللاشعور) . ذلك أن التفكير يتجه الى مضاعفة قوة الحامض ، واردة التخريب تتضافر مع الخاصية التخريبية التي يعرف بها الحامض . ان التفكير في قوة ما لا يعني استخدامها وحسب ، بل الافراط في استخدامها كذلك . فبدون هذه الارادة في استخدام القوة في افراط ، لا يمكن أن يتضح الشعور بالقوة . كتب مؤلف ايطالي مجهول ، في نهاية القرن السابع عشر ، مبدياً اعجابه بهذه القدرة الصميمة على التسخين التي نجدها في « المياه القوية ، وفي المشروبات المماثلة ، التي لذعها في الشتاء لا يقل عن لذع

(27) Crosset de la Heaumerie, Les secrets les plus cachés de la philosophie des anciens, Paris, 1722., P. 299.

النار في جميع الفصول ، وتحدث آثارا كبيرة حتى ليعتقد في قدرتها على تدمير الطبيعة ، وردها الى العدم » . . وكمثال على هذه العدمية التي تميز بها مؤلف ايطالي طاعن في السن ، أن يكون من الامور المستغربة أن نقرأ هذا الخبر وما رافقه من تعليقات أوردتها صحف روما الصادرة في ٤ آذار من عام ١٩٣٧ . مؤدى الخبر أن السيد غبرييل داننزيو قد بعث برسالة انهاها بهذه العبارات الغامضة : « أنا ، منذ الآن فصاعدا ، رجل عجوز ، مريض ، ولذلك رأيت أن أعجل في نهايتي . لقد حظر علي الموت في ساحة القتال ، واني لأزدرى الموت على الفراش ، ولذلك سوف أقوم بتجربة اختراعي الاخير » . ثم توضح الصحيفة م يتكون هذا الاختراع : « إن الشاعر ، وقد أحس بدنو أجله ، قرر أن يفتس نفسه في حمام يجلب له الموت فورا ويخرّب للتو جميع أنسجة جسمه . انه الشاعر نفسه الذي اكتشف صيغة هذا السائل » . هكذا يعمل هاجنا العلمي والفلسفي . فهو يظهر حدّة جميع القوى ويبحث عن المطلق في الحياة مثلما يبحث عنه في الموت . ولما كان لا بد لنا من أن نغيب ، وكان لا بد لغريزة الموت من أن تفرض نفسها يوما حتى على الحياة الغارقة في بندها ، فلماذا لا نغيب جميعا ولا نموت ميتة واحدة . اذن ، فلتنطفئ نار حياتنا بنار عليا ، بنار عليا فوق - انسانية Par un surfeu surhumain ليس فيها لهيب ولا رماد ، بنار تحمل العدم الى قلب الكائن نفسه ، فحين تلتهم النار نفسها ، وتنقلب القوة على نفسها ، يتبدى بجلاء أن الكائن قد جمع شمله في نفس اللحظة التي يفقد فيها نفسه ، وان حدة الدمار لهي أكبر دليل وأنصح برهان على تحقق الوجود . ان هذا التناقض ، القائم في أساس حدس الكائن ، ليلائم تغيرات القيم الى ما لا نهاية .

- ١٠ -

عندما يعثر الفكر قبل - العلمي على مفهوم كمفهوم النار الكامنة الذي تتلشى فيه الصفة التجريبية ، نجده يتخذ موقفا يتميز بسهولة لا نظير لها : لقد بات من حقه أن يتناقض مع نفسه تناقضا ظاهرا من الوجهة العلمية . ذلك

لان التناقض ، الذي هو من طبيعة الخافية (اللاشعور) ، ينضح في المعرفة قبل - العلمية - لناخذ ، على سبيل المثال ، ذلك التناقض الذي يتخذ شكلا فجأ لدى كاتب اتسم بالروح الناقدة . فالنار ، عند رانبيه كما هي عند السيدة دي شاتليه ، هي مبدأ التمدد . وبالتمدد يمكن الحصول على مقياس موضوعي . لكن هذا لا يمنع رانبيه من الذهاب الى أن النار هي القدرة التي **تقلص وترص** . فالاجسام جميعا مدينة للنار في تراص مبادئها . بدونها تغدو غير متراسة . لان النار ما أن تدخل في واصل *Combinaison* حتى تتقلص في فراغ أضيق بكثير من الفراغ الذي كانت تشغله (٢٨) النار ، اذن ، هي مبدأ التقلص بمثل ما هي مبدأ التمدد . هذه النظرية طلع بها عام ١٧٨٧ مؤلف كان همه أن يتجنب كل ثقافة آتية من العالم الخارجي . وكان أهل السيمياء يقولون أن « الحرارة تعزل ما تنافر من الاشياء وتطهو ما تجانس منها » . ولما لم يكن ثمة اتصال بين المؤلفين الذين نورد ذكرهم هنا ، كان جليا أننا نمس مساً شديداً أحد الحدوس ذات الطبيعة الذاتية التي تسعى الى الموامة اعتسافاً بين النقائض .

وانما اتخذنا من هذا التناقض مثالا لتعلقه باحدى خصائص الهندسة المستوية ، وبما انه كذلك ، كان من الامور التي لا طاقة لاحد باحتمالها . أما اذا أخذنا بالاعتبار تناقضات أخرى أشد خفاء ، تناقضات في مستوى النعوت الموغلة في غموضها ، فان الامر يفضي بنا الى الاعتقاد في يسر بأن هذا التناقض الهندسي ، شأنه كشأن التناقضات الاخرى ، قد نشأ عن بسيكولوجية النار بأكثر مما هو ناشيء عن فيزيائيتها . ولسوف نلح على ابراز هذه التناقضات لكي نبين أن التناقض من الخافية هو حاجة حقيقية بأكثر منه ضربا من المسامحة . والحق أن بلوغ الاصاله ممكن بأكثر ما يكون من اليسر بواسطة التناقض ، لان الاصاله هي من المزاغم التي تسود الخافية . وهي عندما تطبّق على المعارف الموضوعية ، تتولى هذه الحاجة الى الاصاله ابراز تفصيلات الظاهرة ، **وتحقيق المتباينات** ، وتعليل المصادفات ، تماما كما يصنع الروائي ، بفضل مجموعة اصطناعية من

المزايا الفردية ، شخصية مريده بفضل مجموعة من النتائج المفاجئة • هكذا شأن نيقولا دي لوك (٢٩) : « هذه الحرارة السماوية ، هذه الحرارة التي تصنع الحياة ، مقيدة غبية في مادة يابسة ، جد ممتدة في مادة رطبة ، جد فاعلة في مادة حارة ، باردة متجلدة منكتمة في مادة باردة » • هكذا نجده يؤثر القول بأن النار متجلدة في المادة الباردة على القول بتلاشيها • أن التناقضات تتراكم لكي تحفظ للنار قيمتها •

بعد قليل سنتناول بالدرس مؤلفة عرفت بالعلم في الاوساط الادبية • لناخذ كتاب المركيزة دي شاتليه • فالقارئ يجد نفسه في مركز الدراما منذ الصفحات الاولى : النار لغز ، والنار شيء مألوف « النار بعيدة عن متناول ادراكنا ، رغم انها في داخل نفوسنا » • في النار ، اذن ، صميمة همها نقض **ظواهر** النار • فهي تغاير ما هو مسموح بظهوره منها • والنور والحرارة عند السيدة دي شاتليه ، حالتان من النار لا خاصيتان من خواصها • هذا التمييز الميتافيزيائي يناهض بنا عن الروح قبل - الوضعية التي أريد لها أن تتفق من كل وجه مع تجريبي القرن الثامن عشر • والسيدة دي شاتليه تعكف على القيام بسلسلة من التجارب ، الغرض منها فصل الذي يلمع عن الذي يسخن ، فتذكرنا بأن أشعة القمر غير محملة بالحرارة ، وأنها غير محرقة وان تكثفت في بؤرة العدسة • القمر بارد ، اذن • هذه التأملات كافية لتسويغ هذه المقولة الغريبة : « ليست الحرارة شيئاً أساسياً للنار الابتدائية » • تبدو السيدة دي شاتليه ، منذ الصفحة الرابعة من مذكرتها ، ذات فكر أصيل وعميق بفضل هذا التناقض وحده • وقد قالت هي عن نفسها انها ترى الطبيعة « بعين أخرى غير العين العامية » • ومع ذلك حسبها بعض الاختبارات الاولى أو الملاحظات الساخرة لكي تقرر أن في النار ميلاً نحو الاعلى دون أن تكون ذات وزن ، كما يريد لها ذلك بعض الكيميائيين • لكن هذه الملاحظات القابلة للاخذ والرد ، سرعان ما تفضي بها الى مبادئ ميتافيزيائية • « النار ، اذن ، هي الخصم الدائم للوزن ، انها تأبى الانقياد

(29) Nicolas de Locques, loc. cit., P. 46.

اليه • كل شيء في الطبيعة هو في تذبذب دائم بين التمدد والتقلص بفضل تأثير النار في الاجسام ، ومقاومة الاجسام لتأثير النار بفضل الوزن والتراص في اجزائها ••• أن نريد للنار وزنا معناه تدمير الطبيعة ، ومعنى ذلك بالتالي انتهاك حرمة أشد خواصها أساسية ، تلك الخاصية التي تكون بها واحدا من ملاجيء الخالق «• الا ينبغي لنا أن ندرك مدى فقدان التناسب بين الاختبارات والنتائج ؟ على أية حال ، ان السهولة التي تم بها اكتشاف قانون مضاد Contre-loi ينقض الوزن الكوني ، هي ظاهرة جد ملحوظة في فاعلية الخافية (اللاشعور) • ان الخافية هي عامل الجدليات المتكثلة التي كثيرا ما نجدها في المناقشات التي تصدر عن سوء نية ، وكثيرا ما نجدها جد مختلفة في الجدليات المنطقية الواضحة ، التي تعتمد على اختيار بيّن • ان الخافية تتخذ من التفصيلات الاستثنائية ذريعة تصنع منها تعميما معاكسا : ان فيزياء الخافية هي أبداً فيزياء الاستثناء • • *



* نشرت الفصول السابقة من « النار في التحليل النفسي » في الأعداد الماضية من « الآداب الأجنبية » •

زوجانا

قصة : ميخائيل شولوخوف
ترجمة : ليان درافين

وراء الحظيرة البعيدة عن عمُد
البرق ، خط متعرج من الغابات ،
يكسو التلال : إنها غابات كاتشالوفكا
واتامانسك وروغوجينو . وثمة سفح
زاخر بالاشواك ، ينحدر الى مزرعة
كاتشالوفكا التي تنتهي اكواخها
المنخفضة حيث تبدأ بيوت التعاونية.

كان أرسيني كليوفكين ، رئيس
التعاونية ، واقفاً قرب حجر يربوع
وهو منفرج الساقين ، قليل الانحناء .
كانت الريح تعبث بقميصه وتدفع
العرق من جبهته الى منبت انفه ،
الى جانبه الأب أرتيوم ، ويده الخشنة
تظل عينيه ، ينظر الى الجرار الذي
يقسم الارض السوداء الى قطع براقية:
لقد فلع أربع ديسياتين (١) منذ هذا

(١) ديسياتين : وحدة قياسية روسية قديمة،

تساوي ١٠٩ ر من الهيكتر .

ميخائيل شولوخوف

كاتب سوفيتي كبير، ذو شهرة عالمية .
فاز بأكبر الجوائز العالمية : جائزة
لينين وجائزة الدولة في الاتحاد السوفيتي
وجائزة نوبل للآداب والجائزة البولونية
(السنبلة الذهبية) ، كما حاز لقب
دكتور شرف من أعرق الجامعات في أوروبا .
ومنح عضوية المجمع العلمي .

أشهر رواياته : (الدون الهادي)
(الاراضي المستصلحة) (قدر انسان) .
تميزت كتاباته بواقعيته الأصيله التي
تكشف عن الواقع بكل ما يزخر به من
تنوع وغنى ، انها تنقل الحياة في زحمة
الصراع المستمر بين المبادئ المتناحرة وترفع
عالياً في العالم صوت الانسانية الاشتراكية .
عرف شولوخوف بقدرته الفائقة على
التغلغل في قرارة أعماق الانسان ، كما
عرفت كتاباته بتمكنها من اللغة الشعبية
وفنها الراسخ في الوصف الانساني والطبيعي .

الصباح ! وهي أول تجربة تجري اليوم ! ولقد جف حلق أرسيني لشدة فرحه ، فهو يلاحق بنظراته شبح الحرار المحدودب ويمرر لسانه على شفثيه المسودتين من الحرارة ، قائلاً :

— انت تتكلم على الآلة ، ايها الاب ارتيوم !

فاندفع العجوز وهو يلهث ويتأوه ويتعثر في الاخدود والتقط قبضة من التراب الغضاري ، ما لبث أن أفتتها بين يديه والتفت الى أرسيني وهو يلقي بعمرته على التراب الذي سحقته السكك وهتف بصوت بالك :

— هذا ، لعمرى ، ما يمزق الصدر ! خمسين عاماً قضيت ، وأنا أشقى من أجل ثوري وثورى يشقى من اجلي ! .. احث به نهاراً وأسهر عليه ليلاً ، فما من سبيل الى النوم أو الراحة ! ولا احثك عن الشتاء الذي أقضيه في خوف دائم على البهائم ! فكيف تريد مني أن اتحمل الآن ؟

رسم العجوز إشارة يأس بمقبض سوطه الموجه الى الجرار وأعاد عمرته الى رأسه ومضى دون أن يلتفت الى الورا .

احتجبت الشمس خلف الهضبة تمهيداً لحلول الظلام . وعجل غسق الربيع باكتساح السهب . فنزل السائق من جواره وبطرف كمة لطنج وجهه بالفبار الأدكن .

أقبلت أنا نحو الغدير المجلل بطبقة من الجليد الرمادي القذر وهي تضم الطفل الى صدرها ، متعثرة في كل خطوة من خطواتها . كان القصب على ضفاف الغدير يضج في مهب الريح ورؤوسه الشعرية ، تقدم الى أنا تحيات متعالية مقتضبة .

تقدمت من حفرة ماء . وكان سطحها مغطى بقشرة رقيقة وعلى شاطئها ما تبقى من الجليد ومن الروث المتجمد .

حدقت أنا الى فوهة الماء السوداء الفاغرة وهي تزيد من ضم طفلها اليها . فحثت . وفي هذه اللحظة نفسها ، تعالى بكاء الطفل تحت غطاءه وبين

اقمطته . واذا بموجة لاذعة من الخجل تصفع وجهها . فنهضت عن الارض واقفة وهرولت الى التعاونية دون أن تلتفت الى الورا . ها هوذا الباب الجميل الصنع ، وقد صبغه الشتاء بشيء من الاصفرار ، وها هو ذا هدير المولد الكهربائي وهو يعمل جاهداً في الاهراء ...

ارتقت آنا الدرجات بخطى مترددة ودفعت باب المجاز بصريه ، وراح قلبها المذعور يخفق على انغام وقع اقدامها . هذا هو الباب الثالث الى اليسار ، دقته ، لم تلق جوابا . دقته بقوة اكبر . على هذه الثيران ، ولا سبيل الى اقناعها بأن تسير . ياللمصيبة !

— من اين انت قادمة هكذا ؟

— من الطاحون . انقل حمولة كاملة من القمح ، ولكن الثيران لا تتحرك .

سارع أرسيني الى خلع عباءته ، وألقاها على ذراعي المرأة وهو يمازحها :
— وان أنا انقذتك من هذه الورطة ، أتقدمين لي كأسا ؟ كان يحقد في عينيها .

فأدارت عنه أنظارها وأعدت منديلها على وجهها .

— قدم لي مساعدتك دائما ... والحساب يتم فيما بعد ...

كان أرسيني في نحو السابعة والعشرين من العمر ، قوي البنية ، مفتول الساعدين . ما إن نقل ستة أكياس الى رأس الرابضة ، حتى جلس على طرف العجلة وهو يتصبب عرقاً ، كي يأخذ قسطاً من الراحة .

— إذن ، ما من اخبار عن زوجك ؟

— هناك من عاد منهم من وراء البحار ، من عند (ورنجل (١)) وروو١

خبر موته في تركيا .

— وكيف ستصرفين الآن ؟

— كما كنت في الماضي ! حسناً ، تأخرنا ... شكراً لمساعدتك ، يا أرسيني

اندريفتش !

(١) ورنجل : قائد روسي أبيض قادم الثورة السوفيتية . حتى انهزم وفر خارج البلاد .

– شكرك لا يسمن ولا يشبع من جوع !

جمدت البسمة على شفتي أرسيني ، فلزم الصمت برهة وجيزة ، ثم مال وأمسك فجأة بالراس المعصوب بمنديل أبيض ، وأطبق شفتيه على الفم الندي المرتعش ، وإذا بصفحة سريعة من اليد الخشنة توقد فيه جمرة الخجل ، فتخلصت منه آنا وأعادت منديلها الى ما كان عليه وصاحت بصوت عال :

– الا تستحي ايها القذر !

– علام تصيحين بهذا الشكل ؟ قال أرسيني وهو يخفض صوته .

– اني متزوجة ، على كل حال ، اليس كذلك ؟ هذا مالا يليق ! فتش عن امرأة غيري ، تتلهى بها !

شدت آنا على اللجام وصاحت بصوت غارق بالدموع :

– هكذا انتم كلكم ! انتم لا تفكرون الا بهذا ، ايها التيوس الحقيرون !



ازدانت البساتين بأزهار بيضاء وازهار وردية ، تشيع النشوة في النفس ، وبدت بهية كأنها في أعراس الشباب . وكانت الضفادع في غدير كاتشالوفكا ، بين الجذور المحمرة الدبقة ، تثير جلبة صاحبة في الضباب المتصاعد من المياه . الطقس جميل ، وأرسيني ، رئيس تعاونية كاتشالوفكا حسن المزاج ، منشرح الصدر ، فالأرض لن تبقى باثرة ، دون حراثة (فالجرار موجود !) ولكن ثمة غصة تحز في قلبه وتمنع عنه الراحة والهدوء . . . ففي اليوم الثالث ، نهض أرسيني قبل صياح الديك ومضى الى ناحية الطاحون وجلس على ربوة عالية وعرة . لا فرق لديه أطلقت النسوة الثرثرات فيه غداً لألسنتهن العنان ، او انصرف فتیان التعاونية الى النيل منه والطنن به ، على شرط أن يراها وأن يتمكن من القول لها ، انه منذ الخريف الماضي ، منذ أن كانا يعملان معاً ، جنباً الى جنب ، في حزم الشعير اكواما عالية ، منذ هذا الوقت ، لم يعد كثير الاهتمام بالعمل ولا بأي شيء آخر في الدنيا . . .

لمح المنديل الابيض على مسافة بعيدة جدا .

- صباح الخير يا آنا سيرغييفنا !
- صباح الخير يا ارسيني اندرييفتش !
- بودي لو اقول لك كلمتين اثنتين ...

ادارت له ظهرها وهي تعبت بمنديلها ، والامتعاض بادٍ على محياها .

- على مرأى من الجميع ، الا تخجل ؟ كلمتين ، هيا تكلم !
- صبراً ، دعيني اتكلم !
- لا مجال الآن ! فالبقرة قد تشرد بين الذرة .
- انتظري ! تعالي الى ما بين اشجار الحور ، عندما يهبط الظلام ، فانا بحاجة الى التحدث اليك ...

فأدخلت رأسها بين كتفيها ومشت دون ان تلتفت .

... كانت العواسج الشائكة تحتضن اعشاش السُمانيات ، تحت اشجار الحور المتشابكة الأغصان ، وكان الضباب يخط في الليل دروباً وهمية بين الأعشاب . ترقب ارسيني هبوط الظلام وحين تدحرجت من اعلى الراية كتل ترابية ، تحت وقع اقدام حذرة ، خفيفة ، أحس كأن صقياً يدب في اصابعه ، وعرقاً يتصبب على جبينه .

- آنا ، أما زلت تنقمين عليّ من المرة السابقة ؟
- كلا ، فقد تعودت هذا ، منذ ان فقدت الزوج ...

- حسناً ، هالك الآن ما نويت ان اقول لك . انك تعيشين حياة أرملة وحموك يضيق بك ذرعاً ... افلا توافقين على أن نتزوج ؟ سألتزم جانب اللطف معك ! أيتها البهيمة ، لماذا تنوحين ؟ آه من هؤلاء النسوة الساذجات . هن جميعاً متشابهات ! ولئن كانت الهواجس تقلقك بشأن زوجك ، فأنت مخطئة .. تعلمين اني لن أكرهك على البقاء معي ، اذا ما قدر له أن يعود ... فتمضين اليه ، اذا ما طاب لك ذلك ...

جلست الى جانبه على العشب المبلل بالندى ، مطاطئة الراس . واخذت ساقاً يابسة وراحت ترسم بها على التراب ، اشكالاً غريبة .

جذبها اليه بجبن وقد خشي أن تدفعه عنها وأن تصرخ فيه وتنفر منه في وسط هذا البستان كما فعلت في المرة السابقة . بيد أنه حدق الى عينيها ، فلاحظ تحت ظل عصابتها ، بسمه ما زالت مبللة بالدموع .

– هلمي يا آنا ، لننس كل شيء ! لنمض ونسجل زواجنا ، لننصرف معاً الى العمل في تعاونيتنا ! فلن تقضي عمرك كله في الوحدة والكآبة ، اليس كذلك ؟



ها هو الجفاف . المناجل في المروج ترن فتبعث الذعر في الطيور . والناس الاخير لا يحصدون الاعشاب حصداً بل يقتلعونها اقتلاعا . اما جرار التعاونية فقد كان خلف هضبة افديوشكا مشدوداً الى حصادتين اثنتين . وكانت اكوام القش في الفبار وفي الحرارة اللافحة ، أشبه بندوب على جسم السهب . فاذا ما آن اوان الظهر وتربعت الشمس في كبد السماء ، ازاح ارسيني الفبار اللاذع عن منجله ومضى ينضح وجهه بالماء ، فيبصر امراته آنا ، قادمة اليه . انه يعرف مشيتها السريعة على بعد فرسخ منه . ها هي ذي تأتي الى الحصادين بالطعام . فتدنو منهم وخداها متوردان من قبلات الشمس .

– أمتعبة أنت يا آنا ؟ بيتنا يبعد ما يزيد على ثلاثة عشر فرسخاً
– كلا ، ليست المسافة بهذا القدر ، ولكن لولا هذه الحرارة ، لما كان لهذا شأن يذكر . . .

جلسا جنباً الى جنب مستندين الى احدى الكومات . فداعب ارسيني ذراعها بيده الخشنة وسرّى عنها ببسمة تحجب .

تلقته في هذا المساء ، أمام منزلها وهي تمسك بالدرابزين ، كأنها تخاف على نفسها من الوقوع ، وبمشقة بالغة لفظت شفتها الممتعتان :

— أرسيوشا ! الكسندر . . . ! زوجي . . . كتب رسالة من تركيا . . .
يقول انه عائد . . .
ان ما هو خير للبعض ليس خيراً للآخرين . . .

فالجفاف أحرق القمح في كاتشالوفكا ، وأغاني الصبايا لا تتجاوب فوق
السنابل الفارغة . . . أما في حقول التعاونية بين غابات كاتشالوفكا وآتامانسك
وعلى طول الطريق ، حيث ظلت الريح حتى الخريف تعبت بلوحة (زراعة
نموذجية) فقد ارتفع القمح وطال حتى بلغ بطن الخيل . فلكل نصيبه حسب
الاحوال . . . فالثري يا شتشوروف (وهو يمتلك اثني عشر زوجاً من الثيران
وسرباً كاملاً من الخيل وحصاداً بخارية ونظرات ثاقبة كنظرات الفأر) حين
كانت الأمطار في الربيع تروي حقول كاتشالوفكا ، ولا تهطل على حقول التعاونية
الاقطرات شحيحة ، كان هو يسخر ضاحكاً وسنه الصفراء تعبت بشعر لحيته
التي هي بلون القمح الناضج ويقول :

— إن الله تعالى عادل . يسوق الغيث الى من يعيشون في طاعته ويرفعون
لواء محبته ! أما ساكنو التعاونية ففي وسعهم ان يتأهبوا دائماً للنزال ! هذا
ما يعلمهم كيف يعيشون ! عندما نقول لهم ، لولا الله تعالى ، لما كان شيء على
الارض !

وكان يقول كذلك أشياء كثيرة أخرى ، وهو يتبختر على الطريق الممتد
على طول الغابة ، ممسكاً بجواده المعلوف ، البطر ، وموجهاً سوطه نحو اللوحة
المدلاة من عمود وهي في مهب الريح . كان يهزأ ويضحك مكشراً عن انياب ،
كانياب الخنزير وبطنه يعلو ويهبط .

— « زراعة نموذجية » . . . مهزلة المهازل ! سنتقابل في الخريف !

كان الجرار يقلب التراب على عمق نصف ساق ، على حين ان المزارعين
في كاتشالوفكا ، فكانوا يحرثون كما يعرفون ، على طريقة أجدادهم . انهم لم
يحصدوا سوى ثمانية مكاييل في الديسياتين الواحد ، أما التعاونية فقد بلغ
الحصاد فيها اربعين مكايلاً . كان الفلاحون في كاتشالوفكا يخفون حسدهم
بضحكة صفراء قائلين :

— حقاً ، هناك اله يعطف على الايتام ...

بيد ان الامور جرت على هذا الشكل ، ففي ايلول ، يوم عيد القرية ، توجه سكان كاتشالوفكا جميعا الى التعاونية بعد ان عقدوا اجتماعاً فيما بينهم . تمشوا قليلاً ذهاباً وإياباً أمام المخازن المكتظة بالحبوب وتفحصوا الجرار وتلمسوه طويلاً ، وحين آن اوان انصرافهم تقدم ارتيوم العجوز وهو المزارع من الطراز العتيق ، وانفرد بأرسيني ، ودس في أذنه لحيته المفعمة برائحة الدخان وتمتم قائلاً :

— يا أرسيني اندرييفتش ، نحن نود ان نسألك خدمة لنا . اكراماً لله ، اقبلنا كلنا ، مهما بلغ عدداً ، أعضاء في تعاونيتك . نحن عشرون اسرة من أفقر الناس ...

فوجه أرسيني الى الشيوخ تحية إجلال وهو يطفح بشراً :

— اهلاً بكم !

العمل في التعاونية ليس قليلاً . ولا سيما في سنة الجفاف هذه . ففي المزارع وفي القرى المجاورة ، شح القمح ، فانطلق المتسولون على الطرق جماعات جماعات . وكان بينهم من يعرج على كاتشالوفكا . فتتعالى تحت مصاريع النوافذ المظلية بالالوان ، اصوات متوسلة ، باكية !
— خبزاً اكراماً لله

فتفتح النافذة الموشاة بأوساخ الذباب ويطل وجه سكيرٍ ملحى ، وتصيح مفتاظة :

— تابعوا طريقكم ايها الكسالى ، ان شئتم ان لا اطلق كلابي عليكم . اذهبوا الى التعاونية ! إنهم ، هم الذين نصبوا هذه السلطة ، وعليهم وحدهم ان يطعموكم !

فكان هؤلاء البائسون يحتشدون كل يوم جماعات وفرادى امام باب التعاونية ، الجميل الصنع .

ويبدو أرسيني الضامر الجسم ، المفلوح بحرارة الشمس ، صائحاً :

— ماذا تطلبون مني أن اصنع لكم ؟ لم يبق عندنا محل ! وليس لدينا من الطعام ما يكفينا وإياكم !
بيد أن نسوة التعاونية كنّ يدمدن كأنهن النحل خارج خليته . وأخيراً ،
يدعن أرسيني ، فيسوق الرجال الى الحصّادة ، أما النساء فيذهبن بالمتسولين
اللاجين ، الى مخزن طويل هيبىء للنوم ، ويظل صنب القدور الكبيرة والصغيرة
قائماً ، ينطلق من نوافذ المطبخ حتى المساء .

وكان الأب أرتيوم ، أمين مخزن الحبوب يهرع لاهتاً ، مذعوراً ، مغيضاً !

— لم اعد قادراً على الوقوف في وجه هؤلاء النساء ! يجب أن تسارع الى
تدارك الأمر ، يا أرسيني ! لقد جئني أيضاً بطائفة كبيرة من العجائز ، وانتشلن
مني مفاتيح المخزن ! ثمانية افواه اضافية على العشاء ، هذا ما لا يطاق !

— لا تبال يا عماه ! يقول أرسيني باسماً .

لقد تضاعف افراد التعاونية . . . وازداد عدد الاولاد ازدياداً كبيراً .
فانصرف قسم من الرجال الى حراثة الاراضي البائرة ، وعمل القسم الآخر في
بناء المدرسة .

كانت التعاونية من الصباح الى المساء ، أشبه بقرية للنمل ، في غليان
شديد . وكان ما ساور آنا من قلق قديم ، قد تبدد في خضم الاعمال والمشاغل
اليومية . فأقلعت عن التساؤل عما قد يحدث اذا ما ظهر زوجها الأول الى
عالم الوجود . . . تولى الصيف سريعاً مثل برق حار . وأخذ الخريف يجثم على
ابواب التعاونية وشرع الاولاد يتوافدون الى المدرسة كجمع من المها ، أرخيت
لها الأعنة .

وفي بكرة احد أيام الخريف ، مثل الكسندر ، زوج آنا ، عند الباب وبيده
غصن شجرة بندق ، يرد به الكلاب . دخل يخطى ثابتة ، ففتح باب الغرفة ،
واتكأ على مصراعه ، كبير القامة ، أسود اللون في معطفه المهترىء . قال ببساطة
دون اية تحية ودون اية كلمة زائدة :

— آنا ، جئت لأذهب بك . اجمعي حوائجك .

صعقت أنا لهول المفاجأة ، فأخذت تروح وتجيء بين الخزانة والسرير ،
تمسك بيد متشنجة ، هذه الحاجة تارة وغيرها تارة أخرى ، انتزعت منديلها
عن المشجب ثم جلست مرهقة ونظراتها تنقل بين زوجها وبين أرسيني . أخيراً
حركت شفيتها بعناء وقالت :

— كلا ، لن أذهب . . .

— لن تذهبي ؟ سنرى . — ابتسم الكسندر بسمة شريرة ورفع كتفيه
وخرج . أغلق الباب خلفه دون ضجيج ولكن بحزم .

قضت أنا هذا الخريف الطويل الكئيب في اضطراب مستمر ، فمال لونها
الى الاصفرار سواء من جراء مرض أم من جراء هواجس ممضة . في مساء
يوم سبت ، بعد أن حلبت البقرات ، ادخلت العجول الى العظيرة ، وعدتها ،
فوجدت أحدها مفقوداً . عادت الى السهب لتبحث عنه بجانب الطاحونة
الهوائية . كان عجل التعاونية المرقش يرعى في المقبرة القديمة المهجورة ، بين
الصلبان التي غزاها العشب ، وبين القبور الفضة الخربة . عادت به الى
البيت وهي تحاذر الظلام المتكاثف حولها . وما إن بلغت المجرى المعد للماء حتى
جلست مكتوفة اليدين . تبينت مع خفقات قلبها ، جرساً غامضاً خفيضاً . . .
فنهضت بجهد وانصرفت متعبة ، متيقظة والبسمة ترسم على زاوية شفيتها .

كانت الحديقة عارية والرياح في أعالي الصفصاف نشيطة ، تنثر تحت
الأقدام بساطاً من الأوراق الارجوانية . لمحت قرب العريشة ، شبحاً ينفصل
عن العوسجات ويسد عليها الطريق .

— أنا ، هذه أنت ؟

عرفت صوت الكسندر . فدنا منها مقوس الظهر ، مفتوح الذراعين .

— إذن ، هكذا ، نسيت السنوات الست التي عشناها معاً ؟ كانت مدة
غيابي كافية كي تدفعي بي الى الهاوية ، اليس كذلك ؟

توقعت منه أنا ، أن يطرحها أرضاً ويدوسها بنعليه العامرتين بالمسامير
الحديدية كما كان شأنه حين كانا يعيشان معاً ، ولكنه جثا فجأة على ركبتيه

في الوحل الدبق ، القوي الرائحة ، وقال بصوت مختنق وذراعا ممدودتان الى
امام :

— آنا ، حبيبتي ، اشفقي علي* ! تذكرني كم احببتك ؟ اما كنت احنو
عليك كما نحنو على الصغار ؟ اتذكرين ما كنت اوجه لامي من قوارص الكلام ؟
حين كانت تقسو عليك وتنتهرك ؟ امن الممكن ان تنسي* حينا ؟ وانا الذي عدت
من بعيد ، من البلاد النائية لكي اراك !! وانت ... آه ، يا إلهي !..

نهض بعناء منتصباً ومضى بجانب صف العواسج ، دون أن يلتفت الى
السوراء . وعندما بلغ المنعطف ، استدار فجأة وصاح بصوت مبحوح :

— اعلمي جيداً ، أنك إن لم تعودي الي* ، وان لم تهجري صاحبك هذا ،
فاني قادر على ارتكاب ما لا تتصورين !

ظلت آنا جامدة ، بلا حراك ، وكما تتيقظ الاعمى ، تيقظت في قرارة نفسها
الرافة بهذا الانسان الذي عاشت واياه ست سنوات تحت سقف واحد ...
واخذت الامور تتوالى على الشكل التالي . ازدادت آنا ايفالاً في إحياء الماضي ،
واقصاء ما كان يقع بينها وبين زوجها من مشاجرات ومشاحنات وما كان يحل
بها من قسوته ووحشيته ، فلم تعد تذكر إلا أيام السعادة والبهجة ، فيزخر
قلبها بحرارة الحنين الى الماضي ، الى الكسندر ، ويفرق وجه أرسيني في كآبة
من الضباب ثم يتوارى .

لم يعد أرسيني يعرف فيها آنا المعهودة فقد غدت حزينة ، مشاكسة ،
تلازم بيتها المنعزل ، وتتجنب النساء الاخريات وكثيراً ما كان أرسيني يفاجئها
وهي ترميه بنظرات طافحة بالكراهية والمرارة .



حين انتصف الليل ، شبت النار في ثلاث كومات من علف التعاونية في
السهب ، بالقرب من وادي افديوشكا . وما كاد يتعالى صياح الديك حتى
هرع الاسكافي ميتروخا ، وهو في ثياب النوم ، الى بيت أرسيني وراح ينقر
الزجاج المنقش بالصقيع .

– هلموا ! العلف يحترق ! النار ، النار !
 لم يضع أرسيني وقته في ارتداء ثيابه ، بل خرج كهبوب الريح وحقق
 الى السهب من بين أغصان الكرز الكثيفة مهدداً ، متوعداً وهو يصر بأسنانه ،
 كان عمود من الدخان يتعالى من وراء الرايبة ، الى السماء ، متكسراً تحت
 الريح . كان الأب ارتيوم قد اخرج من الزريبة حصاناً ، امتطاه بمشقة وانطلق
 به نحو النار في عدو مترجرج ، وما إن مرّ بمنزل أرسيني حتى صاح به :
 – عامداً متعمداً ! اقول لك ، الحريق متعمد ، لكي يقضى بالجوع على
 حصاني الأشهب !... عليك أن تنقذ الدواب . وبسرعة اكبر ...



عند بزوغ الفجر ، توجه أرسيني الى مكان الحريق . كانت الارض عارية
 حول كومة الرماد الزاخر بالدخان ، وكانت بعض الحشائش الخضراء ، لاتزال
 تحتفظ بنضارتها .

جلس أرسيني القرفصاء واخذ يتفحص الارض ، فعثر على الثلج الآخذ
 بالذوبان ، على آثار أحذية انكليزية حديدية وثقوب رؤوس مسامير سوداء .
 أشعل سيجارة ، وعيناه تلاحقان أثر الأقدام التي تتوغل في السهب ، متعرجة
 في اتجاه كاتشالوفكا . كانت الآثار تنعطف حيناً ، وتمسحي أحياناً ، وتنزلق وتحك
 الجليد عند الوهاد . وهكذا تتبع أرسيني في صمت هذه الخطوات البشرية
 كأنها خطوات وحش مفترس . تلاشت الآثار عند جدار بستان الكسندر ...
 فأزاح أرسيني بندقية أبيه عن كتفه ونقلها الى الكتف الثانية وعاد الى
 التعاونية .



ضربت القابلة الجسم الصغير اللزج ضربة خفيفة وصاحت من وراء
 الحاجز :
 – هيه ، أرسيني ، لقد وضعت لك تعاونياً صغيراً !... اعتقد أنك لن
 تقبل بتعميده ، اليس كذلك ؟

لم ينبس أرسيني ببنت شفة ، بل أزاح الستارة القماشية ، فحدجته
آنا من تحت غطائها الملوث بالدم ، بنظرة حقد من وجهها الأزرق وقالت وهي
تشرق بدمعها :

– أكرهك !... إليك عني ! لا أريد رؤيتك !...
ادارت وجهها الى الجدار وانخرطت في البكاء .

كانت الحياة ، منذ أمد قريب ، تمتد سهلة ، منبسطة مثل طريق في وسط
الحقول ، أما الآن ، فان أرسيني يشعر بمرارة في حلقه وبشقاء كفك الذئب
يطبق عليه .



انصرف أرسيني الى الاهراء ، بعد يومين ، لانهاء دراس القمح . كان
من المحتم عليه ، تشغيل المحرك حتى المساء . وعندما نشر الظلام غلالته على
أشجار الحور ، سمع من يقول له :

– أرسيني اندرييفتش ، هل لك ان تأتي برهة قصيرة ؟
فجاء . كانت آنا مستندة الى الجدار الخشبي ومنديلها على كتفيها .
– ماذا جرى يا آنا ؟

لم يكن الصوت الغريب المبحوح صوت زوجته المعهود .
– أتوسل اليك ، بحق السماء ... دعني اذهب الى بيت زوجي ! هو
يدعوني اليه . يقول انه يقبلني عنده مع الطفل . عليك أن لا تلومني ، يا أرسيني
اندرييفتش ... دعني انصرف . على كل حال ، سأرحل عنك ، مهما كلف
الامر ... لم أعد احبك ...

– حين تنهين مدة إرضاع الطفل ، اوافق ولن أجبرك على البقاء . اما ان
أتخلي لك عن ابني ! فقد قاتلت أربع سنوات دفاعاً عن سلطة السوفييت وأنثخت
بالجراح ، أما زوجك ، فهو من أتباع (ورائج) ... ولو تخليت عن ولدي
لوجب عليه عندما يشب ، ان يتحمل الذل بسببه وهذا ما لا اسمح به ! أبداً !
تقدمت آنا وصعدت أنفاسها الملهبة الى وجهه :

— ان تعطيني الطفل ؟

— كلا !

— احقاً ما تقول ؟

طغح صدر أرسيني غضباً ، لأول مرة ، منذ ان عايش آنا ، فاطبق قبضتيه كي يضرب بهما ، ما بين هاتين العينين اللتين تبرقان حقداً ، إلا أنه تمالك وقال بصوت أجش :
— حذار يا آنا !



في هذه الليلة ، بعد ان قامت آنا بارضاع الطفل ، لفت رأسها بمنديل وخرجت . مضت فترة طويلة قبل ان تعود . كان أرسيني في احدى الزوايا يرقع (بردخة) ، فسمع صرير الباب . وعرف خطوات آنا ، دون ان يلتفت اليها . مضت الى مهد الطفل فغيرت له الخرق في هدوء وذهبت لتنام . فحذا أرسيني حذوها . لكنه لم ينم ، بل ظل يتقلب على فراشه منصتاً الى أنفاس زوجته المتقطعة والى دقات قلبه المشوشة . في منتصف الليل غرق في نومه . وكان نوماً ثقيلاً مرهقاً . . . فلم يسمع حركة آنا وهي تنسل من السرير كهرة وتلف الولد وتتوارى عند صياح الديك ، دون ان تحدث في الباب ادنى صرير .

تقضى نحو شهرين وأنا تحيا في منزل الكسندر . لقد خامرها بادىء ذي بدء ، غبطة ممزوجة بالخوف ، وكادت ان لا تأسف على حرية الحياة في التعاونية ، إلا لما . ثم توالى مهمات حميها الوقحة :

— ما هذه الفاسقة التي جاءنا بها . . . نحن في البيت ما شممنا مرة في حياتنا رائحة هذه التعاونية المقيته ! لم يكن يعوزنا الا اطعام هذه الفبية مع وليدها ! فليذهبوا عنا . . .

اما الكسندر ، فلم يبد شيئاً من اللطف إلا في الايام الاولى . وتلت هذه الفترة القصيرة من الحنان أيام زاخرة بالاعمال المتلاحقة المضنية . فلقد اناط بها زوجها جميع الاعمال المنزلية ، أما هو فكان يقوم بزيارات، تتزايد يوماً

فيوماً الى لوشكا ، صانعة الكحول ، فلا يؤوب الا ثملاً ، لينقش بتقيئه ارض منزله وجدرانه .

كان يظل حتى الفجر مرتمياً على مقعد خشبي وطاقيته على مؤخرة راسه ، يتجشأ بعفونة مخمورة وهو يعبث بطرف شاربه ، طلق المحيا ، منبسط الاساير .

– الحقيقة ، يا عزيزتي آنا ، ما انت إلا من الحفاة ، العراة ، الجاهلات . نحن ، على الاقل ، تجولنا في الدنيا ، كنا في البلاد الاجنبية ، فعرفنا السلوك القويم والعادات الحسنة ! الحق يقال ، انك لست تلك المرأة التي تليق بي ، وتصلح لي ، لا ، لا ، عفواً ، معذرة ... لو كانت ابنة لواء مكانك ، لكنت في بحر من السعادة ... احياناً ، اذكر حين كنت ... آه ، تبأ لي ، على كل حال ، فلن تفهمي ما اقول ... هؤلاء الحمر القذرون ، كان من الأجدى بهم ان يقوموا بجولة في البلاد الاجنبية ، ويروا بأعينهم كيف يكون الناس ! ...

كان يستسلم الى الرقاد دون ان يغادر مقعده . وحين يستيقظ صباحاً كان يجأر بصوت مخمور :

– يا امرأة ! اقلعي الاحذية من قدمي ... يا للغباوة ، كان عليك ان تشكريني لأنني اتكرم واطعمك مع جروك هذا ! حذار هذا ما لا اطيع الصبر عليه طويلاً ...



في يوم بارد ، كئيب من شهر شباط نقر الحارس باصبعه زجاج نافذة الكسندر .

– المعلم هنا ؟

– نعم ، ادخل .

دخل ووضع على الصندوق عصاه المهترئة من عضات الكلاب وانتزع من جيبه ورقة مجعدة ، ملوثة بالدهن ، فبسطها على المنضدة ومسدها بعناية .

– اسرعوا ، الى الاجتماع ! انتم لا مجال لمعاملتكم إلا بهذه الطريقة ،
هيا ، وقمي اسمك هنا !
– دنت أنا من المنضدة ووقعت على الورقة . فرفع زوجها حاجبيه
استغربا :

– عجيب ، متى تعلمت الكتابة ؟
– في التعاونية .

فأغلق الباب وراء الحارس دون أن ينبس بكلمة ، ثم زمجر بشراسة :

– سأحضر الاجتماع لأسمع ما يهرف به عملاء السوفييت هؤلاء ، وفي
هذه الأثناء ، تنصرفين أنت الى العناية بالدواب ، إيالك أن تمدي يدك الى
علف الحبوب ولئن تبين لي خلاف ما أقول ، لسوف تتلقين على شذك لكمة
فخمة ! هذه التصرفات لا أريدها ! نصف العلف بذرتة وما زال امامنا من الشتاء
شهران على الأقل !

كان يزور عباته وهو يقذف من تحت حاجبيه الكثيفين نظرات قاسية ،
فيها تحذير وفيها يقظة . أقبلت أنا بخطوات خائفة نحو زوجها وبعد تردد
قصر ، قالت :

– ساشا ... قد يكون من الجائز ان اذهب أنا ايضاً الى الاجتماع ؟
– ماذا ؟ ماذا ؟
– قلت الى الاجتماع ...
– لماذا ؟
– لاستمع الى ما يقال .

تصاعدت الى وجه الكسندر شيئاً فشيئاً ، حمرة شديدة وارتعشت
اطراف شفثيه وكانت يده اليمنى تلمس الجدار وتنتزع السير الجلدي المعلق
فوق السرير .

– هكذا إذن ، أيتها الساقطة اللعينة ، تريدان أن تمرغني زوجك بالتراب؟
أما أن لهذه القدارات التعاونية أن تنتهي في بيتي ؟ – صر بأسنانه ومشى نحو

آنا وقبضتاه مطبقتان - ايتها الحشرة الخبيثة ، لا بد لي ان أعلمك كيف تسدين شذقك الكبير !

- ولكن النساء الأخريات ، يا ساشا يحضرن الاجتماع ايضا !

- اخرسي يا سافلة ! هذا ما لن يحدث في بيتي ! الذهاب الى الاجتماعات هنّ من ليس لهن أزواج ، من يشردن هنا وهناك ! ويشردن ايضا الى الاجتماع !

فانقضت تحت وطأة الاهانة وقالت ممتعة اللون ، بصوت متهدج ، متصدع :

- هكذا إذن ، لم أعد من عداد المخلوقات البشرية ؟

- الفرس ليست حصاناً والمرأة ليست رجلاً .

- أجل ولكن في التعاونية ...

- انت وجروك تأكلان خبزي انا لا خبز التعاونية ! إنني انا الذي اعيلكما وأنفق عليكما وأوامري يجب ان تطاع ! زمجر الكسندر .

- وانت الذي وعدتني بأن تعاملني باللطف والمحبة ! فأين هي وعودك الحلوة وكلامك الظريف ؟

- هنا ! صاح الكسندر وهو يهوي بقبضته على صدرها بلكمة اليمية موجعة .

ترنحت آنا ، وأطلقت صيحة مدوية ، وهي تحاول إمساك ذراع زوجها ، بيد انه أمسكها من شعرها وهو ينهال بالشتائم الكريهة ، الحاقدة ورفسها على بطنها بوحشية وشراسة . فهوت خائفة ، تعب الهواء وقد أشرفت على الاختناق . كانت تتلقى ضربات الزوج المتناثرة عليها بشيء من عدم الاكتراث ، وكانت تتبين بعسرٍ من خلال حجاب من الضباب ، وجهه القرمزي المضطرب ، المهتاج .

– خذي ، خذي !... اقبضي !... يا ساقطة ! سأعلمك اغنية
اخرى ! اقبضي !...

كان هياج الكسندر يتضاعف بعد كل ضربة ، تنهال على الجسد الهامد ،
المكوم على الارض ، وكان يهوي بضربات منتظمة محاولاً ان يصيب بطنها
وصدرها ووجهها المطمور بين يديها . ظل يضرب ويضرب حتى تبلل قميصه
عرقاً ، وترنحت قدماه إعياءاً ، ثم وضع عمرته على رأسه وبصق وخرج وهو
يفلق الباب بعنف .

ما إن ألقى نفسه تحت السماء حتى توقف وفكر لحظة ثم انعطف الى
العواسج المدوسة في الحديقة المجاورة واتجه الى منزل لوشكا ، صانعة الخمرة .

بقيت آنا مطروحة حتى المساء . وعند غروب الشمس ، دخل عليها
حموها ، فركلها برأس حذائه وهو يدمدم :

– هيا ، قفي !... لا فائدة من التهريج والضحك علينا ... ما هذا ،
لا يكاد زوجها يمساها بطرف اصبعه حتى تتظاهر بالموت !... والآن ، هلمي ،
اذهبي وقدمي شكواك ، الى السوفييت ! قلت لك قفي !... من ذا الذي
يعتني الآن بالدواب ؟ لعل من الواجب علينا ان نستأجر خادماً ليساعد السيدة
المصونة – دخل الى المطبخ بخطوات بطيئة – هي تأكل ، وقت الطعام ، كأربعة
اشخاص ، أما وقت العمل ، فلا تجد لها اثراً ! وليتها تعرف الخجل ... كان
يجب ان تقول ، ان بصقت في وجهها ، انه الندى الذي سكبته الله تعالى !

لبس حموها ثيابه ومضى الى الزريبة . فشرع الطفل في مهده يبكي ،
وعادت آنا الى وعيها ، فنهضت على ركبتيها وبصقت رملاً ممزوجاً بالدم
وحركت بعناء شفيتها المتورمتين قائلة :

– ما اشقاني !

كانت الريح تستقبل الظلام على الراية المبرقشة بيقع من الثلج الذائب .

وكانت الانوار في كاتشالوفكا ، قليلة ومُشعّة . والريح على طول الشوارع ، تحمل الدخان المقيت الفاتر الذي ينفثه الروث الجاف المعد للتدفئة .

عاد الكسندر الى بيته ، عند العشاء . فطرح بنفسه على السرير وهو يهدر مزجراً :

— آنا ! أحذيتي ! — وسرعان ما غرق في سبات عميق ملوثاً وسادته بمجاجة .

انتظرت آنا ريثما نام حموها على فراشه قرب الموقد ، فحملت طفلها بين ذراعيها وخرجت مسرعة . وقفت برهة جامدة ، تصفي الى دقات قلبها المتسارعة . كان الظلام يخيم بأجنحته على كاتشالوفكا . وقطرات الماء ، تتساقط من السقوف ، وسحابة خفيفة تعلو كومات الروث . كان الثلج رطباً ورخوياً تحت الاقدام . اندفعت .

— أرسيني اندرييفتش ، حان وقت العشاء ، عد الى البيت ، من المحتم ان النساء قد فرغن من حلب الابقار ، فابعث اليّ بشيء من الحليب .

مشى أرسيني بين سنابل قمح الشتاء ، مختصراً طريقه الى البيت . وفيما هو يصعد الرابية ، سمع صرير عجلة وصوتاً نسوياً باكياً .

— هيهو ، أيتها الحيوانات القذرة ! ماذا افعل بهذه البهائم الكسولة ؟ هيه !

كانت الثيران المشدودة الى العجلة واقفة ، بلا حراك على جانب الطريق ، في الطين ، الذي جعله ندى الليلة الفائتة طرياً ، دبقاً . وكان ظهر الحيوانات المتصبب عرقاً ينشر بخاراً كثيفاً . والمرأة تحوم حولها ، مشغولة البال ، مضطربة النفس وهي تلوح بسوطها دون جدوى .

دنا منها أرسيني .

— هل أنت بخير ، يا حسنائي ؟

— بخير ، الحمد لله ، يا أرسيني اندرييفتش . .

غمزت ارسيني بهجة عارمة ، لاهبة وارتجفت ركبتاه .

– لا اصدق عيني ، اهذه انت يا آنا ؟

– نعم آنا . لم اعد اطيع الصبر هناك من يمشي الى الباب . انفتح .
عرفت آنا بنظراتها المضطربة وجه ارسيني وقد عراه الهزال والشحوب ،
فاستندت الى العارضة واهنة القوة ، فاقدة الصواب .

تلقاها ارسيني بين ذراعيه وحملها الى السرير ، ثم حل اقمطة الطفل ،
ومدده في ارجوحته الفارغة منذ شهرين ، ومضى مسرعاً الى المطبخ ليأتي
بالحليب المغلي ، وقال ، وهو ينهال بالقبل على أرجل الطفل المكتنزة ووجه
آنا المبلل بالدموع :

– لهذا لم اذهب . . . كنت واثقاً أنك راجعة الى التعاونية ، وراجعة في
وقت قريب !

كتبت عام ١٩٢٥



قصة من الأدورغواي

وتبع الأذغال

بقلم : ماريو بينيديتي
ترجمة : ميخائيل عيب

ولد ماريو بينيديتي في باسني لوس توموس في الأورغواي عام ١٩٢٠ • عاش في مونتيفيدو • صدرت له مجموعة عام ١٩٤٥ • يكتب الشعر والنقد والمقالة • قصصه جمعت تحت عنوان « سكان مونتيفيدو » وصدرت المجموعة عام ١٩٥٩ وفي عام ١٩٦٠ صدرت له رواية بعنوان « العقبة » تلتها مجموعتان شعريتان ثم تلاهما كتابه « الأدب الأورغواي في القرن العشرين » ثم روايته « شكرا للنار » وقد صدرت عام ١٩٦٥ • وبينيديتي مناضل سياسي نشيط • وقد زج به في السجن مع العديد من التقدميين إذ انطلقت في الأورغواي موجة جديدة من القمع اثر الاحداث المساوية في شيلي •

- ١ -

الأصدقاء ، لا شيء آخر ، والبقية أذغال

« خورخي غيلن »

سقط على رأسه من مكان ما من الاعلى شيء يشبه الرماد أو الروث ، فلم تراوده فكرة ليتحقق كنهه • نظف نفسه قدر استطاعته بورقة من « هيرالد تريبون » وقرر تأجيل لقائه الاول مع الليلة البيضاء للتايمس سكوير وعاد الى الفندق للاغتسال للمرة الثالثة في ذلك اليوم •

أحس أورلاندو فارياس في اليوم الثاني بعد وصوله الى نيويورك انه ملفوح

بحرارة رطبة غبارية • استحال قميصه النايلوني الى اسطوانة مدعوكة بفعل العرق حتى لا تكاد تسمح له بالتنفس •

أوقف الناس في الجادة الخامسة ، الشارع الرابع والثلاثين اندفاعهم الارعن بسبب اشتعال المصباح الاحمر في شارة المرور • أحس فارياس ، وهو ينتظر ، بسواقبي العرق تسيل على صدره فزجر بصوت عال • كانت الى جانبه سيده شقراء نمشاء مغمورة بالعلب تبتسم له بمودة ، فقد يكون تفوه ، دون قصد بشيء عن الطقس •

كاد يخجل حينما انفض الزحام واجتازه الناس فلقد استبدلت من شارة الضوم الحمراء الشارة الخضراء • دهش فارياس ، بدا له هذا الاندفاع مفارقة ، أو هو على الاقل معاكس لسياق الفصول • هذا الركض الجنوني يبدو طبيعيا فيما لو كانت درجات الحرارة خمسا وعشرين درجة تحت الصفر وليس في مثل هذا القرن • ومشى متمهلاً ، أكثر تمهلاً مما يسير في أي مدينة أخرى في العالم ، وذلك بسبب الغيظ وحده •

كان ينتظره في الفندق ابلاغ • لقد بحث عنه السيد كلتين ، أي السيد ت - اكس - كلتين • فارياس يعرفه منذ عام ١٩٥٦ ففي ذلك الحين أمضى الناقد الاميركي الشمالي خمس عشرة ساعة في مونتيفيدو ويومين في بونتادال ايستي ، وقد قصد مشكوراً الاطلاع على الادب والفلكلور المحليين • فارياس يتذكر بأي مشابرة اهتم كلتين ب « الميرنفي » (دعاه الميرنغو) فقد قال له أحدهم انه الرقص الشعبي في منطقة المخروط الجنوبي • لقد تدبر فارياس أمره حتى هذه اللحظة بهوايته للغة الانكليزية ، وكان يبدو وكأنه يتكلم بأسلوب « نيويورك » • ومع ذلك كانوا يفهمونه • أما الحديث بالهاتف فشيء آخر • السيد ت • اكس • كلتين يتكلم بصوته الاذن الرتيب وهو لا ينجح الا بالتقاط كلمات متفرقة مثل « المجلس الاميركي ، مسرور جدا ، العشاء » • أتراه دعاه للعشاء ؟ لقد أخبره على كل حال انه مغتبط بالدعوة ولقد سجل العنوان وحفظه •

ليس ثمة مزيد من الوقت • صعد الى غرفته وتنفس طوال خمس دقائق فاستنشق الهواء المبرد بواسطة الاجهزة ثم أطفأ التلفزيون وبدأ يرتدي ثيابه •

لم يكن التلفزيون على ما يرام . لا يزال هذا السيد الذي يضع نظارتين ، ويتكلم بجميع النبرات الصوتية وهو مطبق الفم تقريبا يسير صعودا وهبوطا دون توقف . لم يكن أحد الازرار صالحا لايقاف هذه الحركة . ولقد فهم تحت المرشة « الدوش » في الحمام أن هذا السيد التمس « المتحرك صعودا دون توقف » يردد كما تردد اللازمة « هذا هو واقعنا » .

- ٢ -

ادعني تد ، أرجوك - قال السيد كليتن . كانت نبرته ودية فعلا . أما قامته فكانت مشدودة بجد وكأنما هي لانسان متضايق ولكنه معتد بضيقه . وجده فارياس الآن أقل نحولا ولكنه أقصر نظراً ، بشكل ظاهر ، مما كان عليه في اللقاء الاول .

- مسألة هامة أن أناديك باسمك - لقد حاول كليتن عشرين مرة أن يقول أورلاندو فلم يخرج من فمه سوى صوت حلقي غير مميز فكأنه خارج من مدخنة سفينة - أرى من الافضل أن أدعوك « أورلي » .

ووصلا الى غرفة (تحترضية) في غرينتش فيليج ممثلة بالكتب والاسطوانات الموسيقية والزجاجات . تمر قرب النافذة مختلف الارجل - بسر اويل وعارية ، وبجوارب قصيرة . ألقى فارياس نظرة على المكتبة ، وكان أول انطباع تكون لديه هو أن الكتب مجلدة بأنواع من التجليد أكثر بريقا ولمعانا من أية كتب على الرفوف في مونتيفيدو -

- سيأتي اليوم بعض الكتاب الجدد ، أردت أن أعرفك بهم : بريندلي ، كودك ، بليومنتل ، اليببي . ليسوا جميعا أسلوبيين ولكن ...

سأله فارياس :

- أهو لاري اليببي ؟ أمن سان فرانسيسكو ؟

- هو نفسه . هل قرأت شيئا منه ؟

- قرأت قبل فترة « أكثر أو أقل » .

- هل أعجبتك ؟
- كلا .
- ممتع . شعر لاري لا يعجب الأميركيين اللاتينيين . أما نحن الأميركيين فيعجبنا لأنه بالضبط ...
- تريد أن تقول أنكم أنتم الأميركيون الشماليون .
- طبعاً . أرى أنه يعجبنا نحن الأميركيين الشماليين لأنه يبدو لنا أميركياً لا تينياً .
- أم لان اليبى من أصل لاتيني ؟
- لا أعرف . ممكن .
- لم أقرأ شيئاً من كووك .
- متأثر بميلر الى حد مخيف . هل اشتريت « دعايات لنفسي » ؟
- لم أفعل بعد .
- اشتره . لكووك لغة متميزة حقاً .
- توقف أمام النافذة زوج من الارجل القذرة العارية . تلتوي احدى الرجلين ، بين العين والآخر ، وتطأ الاخرى . لو لم يكن هذا شيئاً اعتيادياً الى هذا الحد ، لكان بمقدور المرء أن يرى فيهما حيوانين صغيرين مذعورين لهما حركتهما المستقلة وحياتهما الخاصة .
- هل رأيت هذا ؟ - أعطاه كليتن عددا من (نيويورك تايمز) : احدى الصفحات الداخلية مطوية . قسم من ملحوظة موجزة محوطة بخط من قلم أحمر . قرأ فارياس ، ان الطبعة الجديدة من « أميركان كوليدج دكشنري » ستشتمل على بيان حول « كينونة الجيل » وقد ردها بصوت مرتفع : « كينونة الجيل » : أعضاء الجيل الذي بلغ سن الرشد بعد الحرب العالمية الثانية والحرب في كوريا والذي يوحده الهدف العام في أضعاف النشاط الاجتماعي والجنسي وضد الحفاظ على النظم المدونة ، ودفاعاً عن الانقسام التصوّفي وضرورة التبسيط المادي ، اذ يرى ان كل هذا نتيجة لخيبة الامل في الحرب الباردة » .

كان وجه كليتن غير مبال ثم سمح بعد بضع ثوان بابتسامة هي خليط من
السخرية والارتياح .

– هذا تقريبا في مثل صعوبة أن تصبح عضوا في الاكاديمية – قال فارياس
بأقصى حد من عدم الاكراه .

– أتعرف ماذا يعني هذا «الانقسام التصوّفي»؟ – سأل كليتن دون أي تواضع .

– ليس تماما – أجاب فارياس الذي كان جهله للسؤال تماما .

– هذا أحد أشكال الحوار الكثيرة التي تستعمل ولا يفهمها سوى المستنيرين .

– آ – ها .

– الانقسام وصف استخدم في العديد من المقالات ومزجه لبيتن في « نيشن »

فيما يخص سلوك الجدد من العاملين بأذهانهم . لقد أثبت لبيتن اقتباسا

لجون . ل . لويس : « نحن ننقسم » .

– ولكن عم ينقسمون ؟ – سأل فارياس وهو يحس أنه آخر الريفين .

غير أن جرس الباب قد رن ونهض كليتن ليفتح . دخلت امرأتان وثلاثة

رجال . خلعت إحدى المرأتين نعلها قبل أن يتعارفوا ، وبعد التعارف خلعت الأخرى

(الأكثر تمسكا بالشكليات) نعلها أيضا .

– آن ، دجو ، توم بردلي ، ميري ، جيم بليومنتل – عددهم كليتن . ولاحظ

فارياس أن المشهورين قد قدموا بذكر الكنية . أعجبه وجه بليومنتل . كان شابا

ليس له من العمر أكثر من خمسة وعشرين عاما ، يضع نظارتين وله لحية دون

شاربين . عيناه حيويتان بشكل غريب فلا يستطيع الانسان أن يكف عن النظر

اليهما فورا . ومن الصعب أن تحزر أكان طيب القلب أم كان من الطراز الذي

يكون مستعدا لان يخنق طفلا دون أن تفارقه الابتسامة الهائنة .

وصل بقية الضيوف معاً في الوقت المحدد تماما . « دقيقون بشكل مزعج » –

فكر فارياس . أحدهم زنجي طويل ذو لحية دقيقة كخط على فكيه ، لكانه ينظر الى

الآخرين من خلال زجاج . الجميع ، ما عدا الزنجي واثنان في زاويته لم يخلعوا

أحذيتهم . حرك فارياس أليا أصابع قدميه لئن طلبوا منه أن يخلع حذاءه فسوف

يرفض • لا يعرف لماذا ، فقد خيل له في هذه اللحظة ان البقاء بالجوربين أقل
لياقة من البقاء بالسروال الداخلي أو حتى بدونه • « هي ذي دعارة الروائح »
خطرت له هذه الفكرة فابتسم لها وقد تمثل كيف (قيموا) مظهره المتعاضم بأنه
« سبورت مان » •

رأى فجأة أمام ناظريه علبة سجائر « تشسترفيلد » تقدم له •
- شكرا ، لا أدخن - قال ذلك خارجا من ذهوله • سحب بليومنتل - مضيفه
السجائر - يده وابتسم ثم غمغم •
- المذرة ، أسفاً ، ليس لدي اليوم ماريجوانا •

لم يقل فارياس شيئاً • هو لا يعرف ان كان هذا سيجعله يشعر بالسعادة أم
يكونه ريفياً • ولم يكن ، ببساطة ، يريد أن يخيب أمله - هذا كل ما في الامر • وذلك
تماما كما لو أن أحدهم يحاول اقناعه بأن اليانكي لا يعلكون العلكة •

جاء وحيدا لاري الليبي الذي من سان فرانسيسكو • قد يكون كل شيء ولكنه
ليس ايطاليا • أهو باسم مستعار ؟ يدها ترتعشان ارتعاشا خفيفا • هذا لديه
ماريجوانا • ان القانون المضاد للشهرة من القوة بحيث جعل فارياس يعرف من يكون
من عدم اكرثائه بالآخرين ، بهؤلاء الذين كانوا معجبين به أنفسهم •

أداروا اسطوانة قديمة بالية لبيلي سميث فلم يكن يسمع منها سوى صرير
الابرة • كان ثلاثة أزواج يرقصون من حين لآخر • لم يخضر فارياس أبداً لهواً
يبعث على الاسى أكثر من هذا اللهو • « هلو جك ، هلو ميري ، هلو أورلي » أحس
فارياس في المطار أنه مضحك بهذا الاسم •

- انتبهوا أرجوكم - صرخ أحدهم من أريكة سوداء عميقة • انه صراخ
مبتذل يرسل في استقبال السفن عابرة الاطلنطي • ولكنه ما كاد يسمع هنا • كان
الذي أرسله فتى يكاد يكون أثريا « بلا جسد » وكأنما هو رسم ذو أذنين دقيقتين
كجناحين ويدين راقصتين لا أكثر •

- من منكم خبر الذهول الحقيقي هذا الاسبوع ؟ - سألت امرأة سميئة حافية
وكانت تدلك مترهلة الدوالي التي في رجلها الشعراء •

— أنا — قال الاثري من أريكته • أحس فارياس أن هذا الحوار أعد مسبقاً فهو أشبه بكتاب يحتوي على نص أو برا معد للضيوف الاجانب • استشعرت ذهولاً حقيقياً — تابع الرسم كلامه — حدث ذلك يوم الاربعاء الفائت ، وقد استمر خمس عشرة دقيقة •

يستطيع فارياس أن يقول بدقة انه لا يشعر بالسعادة وانما يحس أنه من الريف • أحسّ (دون أن يتمكن من تجنب ذلك) بخجل حقيقي لانه لم يعيش أبداً ذهولاً حقيقياً • ما هو كنه الدهول في نهاية المطاف ؟ أهو نوع جديد من الدغدغة ؟ أم هو نوع من السعال ؟ أم أنه مجاز حقيقي ؟ فكر ببعض حالات سكره البعيدة في (اغوادا) ثم جزم على الفور بأن من غير الممكن أن يكون هكذا •

من غير الممكن أن يكون • من غير الممكن أن تكون من لسان هذه الرطوبة على العنق • استدار متمهلاً ، لا من أجل ألا ينسكب هذا « البوربون » المزعج من كأسه وانما ليصرخ برأيه حول ما يراه • ظهر له أن تلك هي فعلاً مسّة من لسان • فعلتها امرأة طويلة ناحلة ، على وجهها آثار جدري أو ما شابه ذلك • لقد شربت دون ريب « بوربونها » العاشر وليس لدى فارياس مانع من أن يقترح عليها الحادي عشر • جعله جهاز التهوية الصغير الذي وراء ظهره يشعر ببرودة مزعجة في المكان الذي لا يزال رطباً من جراء تماس لسان المرأة •

— أورلي — قالت النحيلة — قد يكون هو الاسم الاجمل بين الاسماء التي سمعتها بعد اسم داغ كهالمار اغني كارا همرشولد • هل أستطيع أن أقبلك ؟

ابتسم فارياس ألياً ولا يعرف أحد لماذا لم يقل شيئاً •

— كلا ، كلا ، ليس على الفم • هذا مبتذل جدا • خلف الاذن • هكذا •

وأحس ثانية المسّة الرطبة واضطره جهاز التهوية على الارتعاش أيضاً • تلوت المرأة وكأنها تريد أن تختبئ خلف أذنه • وظلت دون حراك • تراخت اليد التي تحمل الكأس على مهل وانسكبت بضع قطرات من « البوربون » على « منفضة » السجائر المصرية القريبة كان كليتين قد كف عن الاهتمام به ولكن لاري اليبني ابتسم

له من كرسي من طراز « ويندزور » وعيناه نصف مغمضتين أدرك فارياس أن المرأة قد أغفت • أخذ الكأس ووضع قرب « منفضة » السجائر المصرية وأحس أنه ملزم بالاعتناء بالنحيلة • وضع إحدى يديه تحت أبطها والآخرى تحت ركبتها وحملها بأحسن أسلوب من أساليب « ليالي القران » الهوليودية • خطر له حينئذ أن ينتقم من ضحكة اليبى • اتجه نحوه ووضع حمله على ركبتيه • أحس أنه « انقصم » عن هذه المرأة ومن مسآت لسانها • ولكن اليبى ظل يبتسم • ثم راح يدندن وسيجارته متدلّية من أحد جانبي فمه •

ابتعد فارياس قليلا ، الى الحد الذي أتاحت له الفسحة الضيقة ، وتداعى في إحدى الأرائك • أغمض عينيه وأخرج منديله دون أن يفتحها ومسح رقبتة أولاً ثم أذنه • وصل إليه خليط من الأصوات وهو جالس مغمض العينين ، موسيقا جاز ورنين كؤوس تتحطم ، شخير وتأتأة اليبى السكران • أحس طوال عشر دقائق شعوراً بالهناء لان أحداً لا ينظر اليه • ولكنه أحس حينئذ أن أحداً يقف أمامه ، فتح عينيه • كان ذاك بليومنثل •

— هل أنت متعب ؟

— قليلا • قد يعود ذلك لانني تحدثت اليوم بالانكليزية وأصغيت الى الحديث بها أكثر مما فعلت طوال حياتي كلها • ان الانسان ليُستنفد بشكل مخيف اذا لم يكن اعتاد ذلك •

— أجل — قال بليومنثل وهو يتابع النظر اليه — رحّت أنظر الى شاربيك وأنت نصف غاف •

— أهكذا ؟

— ألا تكتب سوى القصص ؟ أم أنك تكتب الشعر ؟

— لماذا ؟

— لا لشيء •

— أكتب القصص فقط •

— أسفا !

— لماذا؟ هل تفضل القصائد؟
— قلت « أسفًا » لأنه كان يتوجب أن تكتب قصيدة طويلة من وحي
شاربيك • ابتسم فارياس بشعور ما من عدم اليقين • وظل بليومنثل ينظر إليه بجد •
— أسمح لي بلمس شاربيك؟ — سأله فجأة ومد يده — •

أمسكه فارياس بقوة من معصمه فأرخی يده باستكانة ورفع كتفيه •
كانت الساعة الثانية والرابع ، وكان ذلك كافيا كبداية • رأى ان كليتن
المترنح لن يلحظ غيابه • اقترب من الباب • أغفى اليبي فوق السيدة النائمة •
بليومنثل أحد القلة الذين لم يشملوا ولم يكونوا قد تناولوا المخدرات — لوح له
بيده دون قطرة من الكراهية • خرج فارياس • استنشق الهواء النقي مرارا •

سار في جادة أميركاس ولاحظ فجأة أنه ليس وحيداً • كان هناك (ايدي)
الزنجي الضخم ، وهو أحد الثلاثة الذين لم يخلعوا أحذيتهم ، وقد يكون الوحيد
الذي قال له شيئاً بترو : أنتم الاميركيين اللاتينيين تهتمون بالمسألة الزنجية في
الولايات المتحدة الاميركية وتتعاطفون معنا • وأنا أتساءل دائماً عن سبب ذلك •
ولقد وصلت ، لو تعلم ، الى نتيجة مفادها أن الادارة الحكومية تعاملكم
معاملة الزنوج •

ولقد سأله ايدي الآن :

— كيف ترون كل هذا؟
للزنجي ملامح انسان تخلص من دهشته • يسير مرفوع الرأس ويداه في جيبيه •

سأل فارياس هو الآخر :

— لماذا يفعلونه؟
— من الصعب ايضاح ذلك؟
— لا يريدون أن يعيدوا النظر • هذا كل شيء • يهربون •
— ولكن... مم؟

وصلا الى الجادة السادسة • أشار له ايدي بأن (الباص) يقترب • شد
فارياس على يده وصعد الى (الباص) بقفزة واحدة •

وصل اليه صوت الزنجي عن الرصيف أكثر اتزاناً من المعتاد :
- سمّه الروح العملية ان شئت ...

- ٣ -

الطريق من فينيكس الى البكرك تستغرق مدة ساعة ونصف بالطائرة • أمضى
فارياس نصف الساعة الاول في حديث بالانكليزية مع مشاركته المقعد • كان الاخير
مشمور الانف نصف أصلع ، سميناً يتعرق بغزارة لدى هبوط الطائرة في أي جيب
هوائي • أثر في فارياس مدى تفاهمه معه • واعتراه الشك فجأة • أحصى المرات
التي استعمل فيها السمين فعل « Toget » فوجد أنها مرة واحدة خلال
ثلاث دقائق • لا يمكن أن يكون يانكيا •

سأله فارياس بارتياح :

- من أين أنت ؟

- من الا - رجن - تين - نطقها السمين بجلاء •

- منذ متى من الارجنتين ؟ قالها فارياس حانقا بلغة اسبانية أصيلة - وما

تحن منذ نصف ساعة نجرجر هذه الانكليزية الغثة !

ابتسم السمين ومد له يده :

- مونتيڤيديو ؟

- مونتيڤيديو - كرر فارياس •

منذ ذلك الحين فصاعدا لم يتكلم سوى السمين • قص عليه حكاية حياته ،
تقاعده ومخططه • لا لن يمكث في البكرك (تنهد فارياس بارتياح) نصف ساعة
فقط ، الى أن يأخذ طائرة أخرى الى دالاس • تعابيره تبدأ وفق الاسلوب المحبب
لدى أهالي بوينس آيرس : « قسمتكم أنكم من بلاد صغيرة تكاد تكون مجهولة ،
انا نحن ، الذين ... الخ » أو (سعداء أنتم لكونكم لا تملكون سوى الصوف ،

أما نحن الذين لشقائنا ، من أغنى بلاد العالم .. الخ « وأخيرا « ولكن حسنا ، فيفتي - فيفتي ، كما يقول الأميركيون ، اننا أحسن لاعبي كرة قدم وأنتم تفوزون بالبطولة » .

- فزنا - غمغم فارياس وأدار رأسه الى الناحية الاخرى .

الولايات هي ببساطة مجرّم خدعة بالنسبة للمسمين . وكل شيء في الارجننتين أجمل باستثناء الجسور .

- أرجو ألا تحدثني عن الطعام . أن العقبة « الدسرث » التي تأكلها في أومينغ لها طعم اللدائن وهي تشبه العقبة في واشنطن - العاصمة .

عرف منذ فترة وجيزة أن واشنطن أخرى تتكون - « الولاية دائمة الخضرة » .

- أرجو ألا تحدثني عن كرة القاعدة (البايستبول) هل تفهم هذه الصرعة ؟ أقول لك إنني أفضل الغولف . وكيف يمكن أن تقارن مع كرة القدم عندنا !

اندفعت الطائرة بحدة نحو الاسفل في هذه اللحظة . تمكن الارجنطيني من لفظ بعض مقاطع « أعذرني » بصعوبة اذ انحني فوق غلاف من شركة T W A صمت بعد ذلك وأغمض عينيه ولكن ذلك لم يستمر سوى خمس عشرة دقيقة ، ذلك لان الطائرة حطت بعدئذ في البرك .

« السيد أوليندو فارياس ، السيد أوليندو فارياس ، فليحضر الى شباك شركة TWA فارياس يجد دائما صعوبة في فهم الصراخ بمكبر الصوت حتى لو كان ذلك بالاسبانية . ولهذا توجب عليهم مناداته أربع أو خمس مرات .

تقف قرب شباك شركة T W A امرأة نحيلة جدا ، ما بين الستين والخامسة والستين من العمر . تضع نظارتين لهما إطار معدني وقبعة هائلة تندفع من كل جوانبها مشابك للشعر وشاكلاته .

- السيد فارياس ؟ - سألت - أنا السيدة أغنيس بينين . جئت لاستقبالك باسم الشاعرات في البرك .

- شد فارياس على يدها العظمية وخيل له للحظة انها قد تتحطم من شدة عليها •
- سننتظر قليلا ، ستأتي السيدة روزفولويل أيضا •
- سأل فارياس عما اذا كانت السيدة بين تكتب القصائد •
- طبعا – قالت وأخرجت من حقيبتها السوداء كتاباً رقيقاً ذا غلاف قاس –
- هذه مجموعة قصائدي الاخيرة ، لي تسع وثلاثون قصيدة طويلة •
- قرأ فارياس العنوان المدهش (أنتخيليا القمر والكرنفال)
- نعم ، أشكركم شكرا جزيلا •
- ولكن السيدة بين تابعت •
- السيدة فالويل أكثر أهمية في الحقيقة
- أها •••
- أجل ، وهي تشارك في تحرير « ستردي ايفننغ بوست » ذاتها !
- فكر فارياس في مدى نسبية الاشياء • فلو وضعنا عدد النسخ والمسائل
- التقنية جانباً فان هذا يشابه مشاركتك في تحرير « موندو أورغوايو » •
- ها هي قادمة – هتفت السيدة بين ونشطت فجأة •
- رأى فارياس على السلم قرب الردهة عجوزا نحيلة الى حد لا يصدق • (قد
- تكون في الثمانين أو الخمسين بعد المئة من عمرها) عجوز ترتجف ارتجافاً طفيفة
- جداً ولكنها تسير منتصبه القامة تماما • اقترب والسيدة بين منها •
- السيد فارياس – قدمته السيدة بين – السيدة روزفولويل – شاعرة:
- البكر الشهيرة ، المشاركة في تحرير « ستردي ايفننغ بوست » •
- كفت السيدة فولويل عن الارتجاف لحظة وابتسمت له ابتسامة من أكثر
- ابتساماتها فتنة وهي من طراز القرن التاسع عشر •
- فلأخذه ليجرب المطعم المكسيكي – قالت واستدارت نحو السيدة بين •

— حقا ! — وافقت زميلتها على الفور

• اتجه فارياس نحو المخرج حاملا حقيبته وعلى كل من جانبيه عجوز هرمة •
• حياه الارجنطيني من الردهة مفرطا بتلويحات يده • صار لديه ما سوف
يقصه بعد انتهاء جولته : « هؤلاء الاورغواييون رهيبيون • عرفت في الولايات
واحدا منهم خطر له أن يذهب ويستمتع مع عجوزين عجفاوين شمطاوين » •
• تركوا الحقائق في الفندق وسمحتا له بخمس دقائق ليغسل يديه ويسرح شعره
ثم انطلقوا بسيارة السيدة بين نحو المطعم المكسيكي •

• اختاروا (الاصح اختارت السيدة فولويل) قائمة الطعام • قدمتها لهم
فتيات يافعات يتكلمن الانكليزية بنبرات اسبانية والاسبانية بنبرات انكليزية •
• قالت السيدة بين :

• أرجوك يا روز ، اسمعي السيد فارياس بعض قصائدك الطويلة •
• أوه ، قد لا يكون هذا الوقت هو الانسب — اجابت السيدة فولويل •
• وشعر فارياس انه ملزم بالتدخل فقال :

• على العكس ، أرجوك •

• سألت السيدة فولويل :

• أي القصائد ترينها أكثر مواءمة يا أغنيس ؟

• كلها جميلة — وأردفت وهي تلتفت نحو فارياس ، بنبرة انسان يقدم
آخر للمرة الاولى — السيدة فولويل ، مشاركة في تحرير « ستردي ايفننغ بوست ! »
• ما رأيك في « سيرينادا الالهية في نافاكو ؟ »
• رائعة ! وافقت السيدة بينين •

• وهكذا تلت السيدة فولويل بصوتها الرعش الحاد أدوار سيرينادها الالهية
الخمسة والعشرين • أعرب فارياس عن أن القصيدة بدت ممتعة وخلا وجه السيدة
فولويل المجدد من أي تعبير وهي تتلو المقطع الاخير •
• ممتعة جدا • ممتعة حقا •

بدا واضحاً أن السيدة فولويل قد عاشت طويلاً تجارب الخير والشر . أحس فارياس أن كلماته لم تكن متميزة نوعاً ما ، ولكن محاولة السيدة فولويل الابتسام جعلته يتفاءل .

— هيا ، فلنجعل السيد فارياس يذوق (التيكيل) — قالت المشاركة في تحرير « ستردي ايغنج بوست » وهتفت السيدة بينين بالطلب الوحيد (تيكيل) . استدارت نحوها السيدة فولويل :

— وأنت لديك قصائد جميلة يا أغنيس . إروي للسيد فارياس من تلك التي نشرتها في (البرك كرونكل) .
— تقصدين « بانتظار أفضل البلايا » أليس كذلك ؟ — سألت السيدة بينين بعصائية .

— تماماً .

— قد لا تكون هذه اللحظة هي الانسب — قالت العجوز الصغرى وقد احمرّت .
— ولكن ، أرجوك ، على العكس — تدخل فارياس وقد أحس أن اجابته جزء من حوار دوري مكرور .

بدأت السيدة بينين في اللحظة التي قضم فيها فارياس قضمة من كعكة مكسيكية ، وأحس أن الطعم الحاد قد أمسك ببلعومه ومعدته وبدماعه وأنفه ، بقلبه وكل كيانه .

— اشرب شيئاً من « التيكيل » — همست له السيدة فولويل متعاطفة معه ، بينما كانت السيدة بينين تقفي ما تتلوه ب « بذل » و « مذل » و « ببلس » مع « تربلس » ثم أشارت له السيدة فولويل اشارات واضحة تماماً شارحة أن التيكيل يشرب كما تلحس قبضة من الملح في راحة اليد من بين السبابة والابهام .

— تعلمت ذلك في أواكسك — همست مرارا بينما كانت السيدة بينين تنهي للمرة الرابعة أحد الادوار الشعرية ذي القرار التالي « حروف زائفة ، هنا وهناك » نزل « التيكيل » على فارياس فوق الطعام الحاد نزول اللهب المستعر . كررت السيدة بينين ، للمرة السابعة والاخيرة ، قرارها في تلك اللحظة . أراد فارياس

أن يقول « ممتع » فلم يخرج من حلقه سوى ما يشبه أنة مبتورة • وقد تبين له بعد ثلاث أو أربع ساعات أن شاعرتي البكر تنشدانه أعمالهما الشعرية الكاملة •
وحيث بدأ يشعر بالانشراح • لقد تحول رأسه وقلبه بفعل الطعام الحاد والكحول الى شيئين غامضين غير محدودين قابلين لكل شيء • أحس وكأنه قد تملكته موجة قاهرة من التعاطف مع العجوزين اللتين كانتا تنشدانه ما بين كأسين من « التيكيل » وقضمتين من الفليفلة الحادة أناشيدهما وأغنيات غرامهما وصلواتهما وهلوساتهما •

لقد عاش قصة حقيقية ، تكاد تكون جاهزة ، مرتبة ومنتقنة وكاملة • أحس أنه مأخوذ بما يكاد يكون حبا - من كرم ونبل - لهاتين العجوزين اللتين تتحملان بصلاية أقداح « التيكيل » المتتالية • ولكنه أصبح منفعلا الى حد كاف فراح يتهته كماداته حين يشمل :

و - أ - أي •• ه - هذه ال •• القصائد •• ق - قد ن - نشر ••
في « س - س - ستردي » ؟ - سأل مغالبا الضباب الذي في رأسه دون أن يتمكن من اضافة « ايفنغ بوست » •
وتلت ذلك زفرة جديدة • تدخلت حينئذ السيدة بين بفتنة ولطف :

- أترى عمق الفكرة في هذه الكلمات الارباع يا سيد فارياس ! « الآن تماما والا أبداً » نشرتها « ستردي ايفنغ بوست » في الخامس والعشرين من شهر آب عام ١٩٤٩ •

- ف - فكرة ر - رهيبة - أيدها فارياس • وصعدت آنذاك السيدة فولويل مراحل ورفعت الى رتبة « سيدة » •

- ق - قولي لي يا أغنيس - بدأ فارياس - لماذا تطيب لكما الاطعمة الحادة والقصائد الحادة الى هذا الحد ؟

- ممتع انك ربطت هذين الشيئين في سؤال واحد يا اولاندو - وأحست السيدة بين بتمالكها لنفسها وتولد الثقة لديها - قد تكون على صواب في الاساس •
ألا ترى أنهما قد يكونان شكلين للفرار ؟

ل - لماذا ل - لا ؟ - تهته فارياس - ولكن مم الفرار ؟

- من الفراغ • من المسؤولية •

خيل لفارياس أن السيدة بين تنناول كلماتها عشوائياً كما يسحب المرء أوراق لعب من مجموعتها لا على التعمين • ثم تنهدت قبل أن تضيف •

- من الواقع في نهاية المطاف •

- ٤ -

- يتوجب علينا المرور عبر جورج تاون لناخذ نريده بينوس - قال
الغواتيمالي ، ثم سنتابع السير الى هاري • سترون أي يانكي مسل هو •

سأل الشيلي :

- ومن هي نريده هذه ؟

- من مواليد تيغوسغالبا ولكنها تعيش منذ ألف عام هنا في واشنطن •
يقولون انها تمزج القصائد الرعوية العجيبة « بالكفتة » الرائعة • لكل شيء
عال هي ، الشقية ...

كان فارياس يصفي اليهما وحيدا في المقعد الخلفي من سيارة الفولكسفاغن
لقد تعرف الى الشيلي مونتس والغواتيمالي أورتيجا أثناء حفلة كوكتيل في بن
- غلوب في نيويورك • مونتس يدرّس الادب الاسبانو - أميركي في جامعة
نوتردام ، وهو الآن في واشنطن اذ لديه عمل في مكتبة الكونغرس • أما أورتيجا
فلم يكن مدرسا ولا شاعرا حتى وليس صحفياً • انه يعمل منذ سنتين في الولايات ،
وخصوصا في واشنطن حيث لديه مسكن • وهو يبيع جميع أنواع البضائع
بتخفيضات أو بالمصافقات « أوكازيون » لابناء جالية أميركا اللاتينية • تأتي
الى مسكنه ، أغلب الاحيان الامريكيات الشابات اللواتي يهملن أزواجهن • ويفسر
أرتيجا تعاستهن الجنسية بالطريقة التالية : « أتعرفون أيها الفتيان أنه تلزم

لهؤلاء اليانكي الكثير من أقذاح المارتيني لتدب فيهم النخوة ولكن النوم يطرحهم دائماً قبل أن تأتيهم النخوة » .

كان فارياس يصفي اليهما وهما يتكلمان ويضحكان ويشتمان ويخيل له أن هذين اللذين ولد أحدهما على بعد الاف الكيلومترات من مكان ولادة الاخر ، كان أحدهما أقرب الى الآخر من قرب كل منهما الى نفسه . أحدهما قادم من كواهينكيلايا والآخر من فالديفيا ، ولكن لديهما شيئاً مشتركاً هو أن اليانكي يستثمرون الفواكه الغواتيمالية والنحاس الشيلي . هذه هي اللغة الاميركو - لاتينية المشتركة الممكنة . قال له الشيلي في نيويورك :

— لكم ، أنتم الاورغواييون ، سعادة وتعاسة كون الولايات المتحدة الاميركية لا تحتاج الى الصوف . لا يشترون منكم ، لا يستثمرونكم . لا يحتقرونكم .

التفت ارتيفا نحوه في هذه اللحظة :

— لا تثق يا فارياس بحوانيت « الاوكازيون » حين تكون بحاجة الى جهاز راديو ترانزيستور أو آلة تسجيل أو علب أو مماطر أو آلات تصوير أو أقلام ناشفة ، ولتعلم انهم جميعاً من الغانغستر . قل لي عما تحتاج اليه وسأجد لك الاجمل وبنصف السعر . لا أنصحك بأخذ (براد) فقد تصدف ضابط جمارك لا يمكن التفاهم معه . كل ما ليس لديكم في الجنوب ...

ظهرت نريدة على الباب فوراً بعد رنين الجرس . كانت في نحو الخمسين من العمر وتزن ما لا يقل عن تسعين كيلو غراماً ، يشدها ما لا يعرف عدده من الزنانير والمشدات وغيرها . جلست على المقعد الخلفي قرب فارياس . ولكي يقول شيئاً امتدح جورج تاون .

قالت :

— أوه ، تعجبني جورج تاون كثيراً . وتعجبني واشنطن والولايات عامة أفكر في عدم العودة أبداً الى أميركا الوسطى .

— لماذا يا نريده - سأل أورتيفا - وهل نحن متوحشون ؟
— ما زلت في المرحلة الاقطاعية ، ولهذا فان رجالكم يفكرون بالجوبيترين

ونسأؤكم يفكرون بالاقمشة الوبراء المحشوة بالجوبيترين • هنا تهيمن سلطة الام
- الجمال الحقيقي • لقد دعيت ، حتماً ، يا أورلاندو للعشاء في بيت أميركي
نموذجي • ألم يبد لك الأميركيون فاتنين وهم منتصبون بمآزرهم ويعملون حول
الكعك الموضوع في الفرن ؟ لقد لاحظت حتما أن السيدات يفتحن الزجاجات هنا؟

وقهقهت بقوة جعلت أورتينا يرغمها على الصمت •

- أنا مع سلطة الام - أردفت نريده - ولهذا أنجزت هذه البلاد كل هذا •
- وما هو هذا الذي أنجزته الى هذا الحد ؟ - سأل مونتيس ولم تجب نريده
بشيء ولم يكلف أحد نفسه عناء الرد •

كان هاري وزوجته ينتظرانهم في ريفرديل • انتقل فارياس الى سيارتهما •
ويرجع هذا الامتياز لمعرفته الانكليزية • هاري يتكلم الاسبانية قليلاً ، أما
زوجة فلا تعرف منها سوى « اسستالافيسستا » (١) • نظرت الى فارياس ولوحت
بيدها وهتفت « اسستالا فيسسستا » وانفجرت في ضحك مدو • حذا فارياس
حذوها مرارا على الرغم من عدم قناعته التامة ، ولكنه بعد عدة مرات من هذه
الانفجارات أحس أن فمه يؤلمه ، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا استحسن أن يبتسم
كمن يتصنع الفهم •

- سأخذكم الى مكان صغير عجيب - قال هاري ، سعيدا بكونه القائد ثم
أردف على الفور - كيف رأيت نيويورك ؟
أجاب فارياس

- تستحق الاهتمام لعدة أسباب •

- كم من هذه الاسباب تحمل « تنانير » - تدخلت فلوره - أعرف ، أعرف •
لقد تركت نيويورك الان وقلت لهن : اسستالافيسسسستا ! ويضحك هاري
لاول مرة هو الاخر •

سأله هاري :

(١) تعني بالاسبانية الى اللقاء •

— هل ذهبت الى ربيديوستي ؟

— طبعاً ، ذهبت ، هذه أحد الاشياء التي بهرتني ، ان كل ما يصنع على نطاق واسع يضيع الاصاله في الطموح الى التأصيل . . قل لي يا هاري ، حين صعدت هذه الاوركسترا الضخمة ، التي صعدت ونزلت ودارت على المنصة الضخمة ، وكان عليها أن تؤدي عزفا أوركسترا ليا على الكمان ، لماذا راحت عازفة الكمان المنفردة تعزف فجأة ، على البوق بدلا من الكمان وكانت ترتدي السروال القصير « الشورت » بدلا من الفستان الطويل ؟ انني أقبل أن تستمع راهباتكم الى الروك أندرول ويقفزن مع السيدات المتزوجات ، أما هذه الجماعة من سيبيليوس بأفخاذها العارية فلا أستطيع ابتلاعها .

— لا تمثل بحماسة يا اورلاندو — قاطعه هاري — أنتم متأثرون بفيدل كاسترو .

• وضعك الجميع هذه المرة .

— سأقول لك الان جادا : لا تعتقد ان الانسان يمكن أن يكون موسيقيا معاديا للامبريالية . وفي خاتمة المطاف ليست وصفة « روشيته » ربيديوستي سيئة الى هذا الحد . الافخاذ الجميلة العارية تساعد الجمهور على هضم سيبيليوس بسهولة . تزوع ثقافي ، أليس كذلك ؟ وهذا الذي تحكيه لي أفضل بكثير من برنامج رأس السنة الجديدة ، حيث يطير بابانوييل عبر الصالة بحوامة « هيلوكبتر » .

مكان هاري الصغير العجيب هو غريت فولس — من ولاية ميريلاند . وعلى فارياش أن يدرك أن الشلال يستحق السفر .

— سنرى الآن نزهة منظمة — رائعة — قال الغواتيمالي ملتفتاً الى هاري :

وأضافت نريده :

— هاري متخصص .

أخرج هاري ، حينئذ ، من العربة حقيبة متوسطة الحجم وبراداً صغيراً هو

حلية حقيقية ، حيث كان اللحم ، ثم أخرج مشواة « ايروديناميكية » مفككة أعدت للعمل خلال دقيقة • ثم أخرج وقوداً صناعياً (شيئاً يشبه كرات من الفحم) وأخيراً ، أخرج أسياخا بسوائل مشتعلة خاصة بالوقود الصناعي الخاص بالنزهات الخاصة • فكر فارياس بأن الكبريت والنار هما نقطتا التماس الوحيدتان في تقاليد الشعراء في أميركا الجنوبية • نفخت فلورا عدداً من الفرش النايلون وجلس الجميع حول هذه النار المتمدنة • ولولا ضجيج المياه المتحدرة على مقربة لكان من الممكن أن تتم مثل هذه النزهة بهدوء في الطابق الثاني والتسعين من إحدى ناطحات السحاب •

أخرج هاري بعد الغداء ، « بولاريدة » وتجمع الجميع حول الرماد المستدير في الموقد الصناعي وراحت فلوره تصوره مع الأميركيين اللاتينيين الأربعة • أطلق نكتة حول طول قامته (طوله مئة وثلاثة وتسعون سنتيمتراً) • أما أطول قامة من قامات الآخرين فلا تتجاوز مئة وتسعة وستين سنتيمتراً •

– وتفكرون بعدم ضعف النمو – وضحك •

بعد أربع دقائق كانت الصور جاهزة •

– هذه هي الحضارة – قال هاري رداً على تصفيق نريده • لم يكن فارياس على يقين مما إذا كان الأميركي يفخر حقاً أو أنه كان يسخر من التقاليد الوطنية ، أو قد تكون المسألة أهون من الأمرين • وجده فارياس صريحا ودودا ، ولا أحد يعرف لماذا لم ترق له فلورا إلى هذا الحد •

ضجر الشيلي وذهب ليتأمل الشلال وسحب اورتيفا فارياس بلباقة نحو الطريق العام •

– هاري ودود ، كيف رأيته ؟ هو ليس بضاعة أميركية •

– أجل ، أعجبني كثيراً •

– هل تعرف ؟ لقد تقبل نمط الحياة الأميركي بانحياز ظاهر وهذا ما أنقذه •

لا أستطيع أن أقول إنه يفهمنا ، (هذا صعب جداً هنا) ولكنك تستطيع التحدث

اليه عن غواتيمالا وعن بوليفيا ، وحتى عن كوبا دون أن يصاب بالعصاب (الهستريا) • وهذا كثير • وهو لا يرى أن روزفلت كان شيوعياً •
- وفلوره ؟

- تعتبر فلوره مخففة لان كلمة هاري هي المسموعة في البيت : وحسب مقولة نيريده فان هاري هو الذي يفتح الزجاجات ، وأما فلورا فتطبخ • إي ، لا تنس أنه عاش سنتين في مكسيكو • وقد يكون معتادا من هناك •••

- راحت فلوره ومونتيس يقفزان فوق الصخور • هاري يدخن مستمتعاً ونيريده تقرأ مستندة الى شجرة •

بعد ساعتين كان فارياس يجلس بين هاري وفلوره على المقعد الامامي للسيارة الكرايسلر ذات أحدث طراز • ذهب الآخرون بسيارة ارتيغا الفولسفاغن • وقد اقترح عليه الاميركيان أن يوصلاه الى واشنطن • شعر بالارتياح • « اناس طيبون • » - فكر - صالبت فلوره ساقها • « ساقان جميلتان - خطر له ذلك - سيحتفظ بذكرى جميلة لليوم المنقضي •
- لماذا تعيشون جميعا خارج واشنطن ؟ - سأل فارياس لكي لا يبقى صامتا - تبدو لي مدينة مريحة جدا •

تغيرت هيئة هاري :

- كيف تريدنا أن نعيش في واشنطن وثمة هنا ما لا يقل عن ستين بالمئة من الزوج •

جرض فارياس ريقه :

- وماذا في ذلك ؟

نظرت اليه فلوره بلطف وكأنها مسرورة لكونه لم يتسرع :

- كيف ؟ هل فهمت يا أورلاندو ؟ ستون في المئة من الزوج !

صمت فارياس وقد أحس بالرهبة لم يطق احتمالاً فقال :

- المعذرة ، لم أستطع فهم ذلك •

زادت تعابير الحنق على وجه هاري • تحتم على الكرايسلر أن تتوقف عند تقاطع جادة ميستشوزيتس مع الشارع الرابع فضوء شارة المرور أحمر • مرت على ممر المشاة عائلة زنجية كاملة • أشار طفلان الى هاري وضحكا كما يضحك الزوج دائما - بغم مفتوح واسع • لم يستطع هاري احتمال المزيد • جمع قبضته فوق المقود وصرخ ملتفتا نحو فارياس :

- وأنت تسألنا : لماذا لا نعيش في واشنطن ؟ انظر ، هذا هو واقعنا ! هل تفهم الان ؟

قالت فلوره :

- اهدأ يا هاري •

- أجل ، فهمت الان - غمغم فارياس وكان يفكر بيوم أمس في غرينتش فيليج وبالعجوزين الصلبتين في البكر •

تركاه أمام الفندق • أبدع فارياس أثناء الطريق جملة عرفان طويلة بالرفقة والنزهة والغداء والصورة وايصاله الى الفندق • مد له هاري يده وقال هادئاً • كانت سعادة حقيقية لي أن أتعرف عليك يا أورلاندو • سعادة كبيرة فعلاً • قبلت فلوره وجنته •

ظل فارياس وهلة عند مدخل الفندق بانتظار انطلاق السيارة • ولحظة انطلقت الكرايسلر لوحت فلوره له بيدها مودعة وقالت بفرح حقيقي : « اسسستا لا فيسسستا ! »



قصة من المجر

القطب

بقلم : لايوس بيرو
ترجمة : حسنة كياحي

الكاتب في اسطر : لايوس بيرو (١٨٨٠ - ١٩٤٨) كاتب وصحفي مجري
نشرت مقالاته ورواياته في كتب • وقد كتب لايوس مسرحيات أهمها : الناس ،
بيت الأسرة ، السياسة ، الصحافة • القصة التي نشرها فيما يلي يعود تاريخها
إلى العام ١٩٣٠ •

فيكتور بالوكزي فتى يفيض حماسة • كان يتصفح الجريدة تصفح المتفضل ،
فلما وصل إلى صفحتها الأخيرة وقع نظره على الاعلان الصغير التالي :

« أستطيع أن أؤمن مركزا في العاصمة لمعلمة صبية حسناء قادرة على أن تظهر
لي العرفان بالجميل • اكتبني إلى الجريدة تحت عنوان « الصديق ذو النفوذ » •

قرأ فكتور الاعلان وهو لا يكاد يصدق عينيه وأعاد قراءته مرة أخرى • ولما
قرأه للمرة الثالثة احتقن وجهه ، واشتعل غضب أحمر قان في قلبه وخيل إليه أن
دمه كف عن الدوران في عروقه • هذا ، حقا ، أفضح ما يمكن أن تصل إليه الوقاحة
وقلة الحياء ! مؤكداً أن همّ الجريدة اجتذاب القراء ، وجريدة كهذه لا تعكس الا
صورة لعالم بائس محزن • ليس قدر المرأة على هذه الارض الا الاهانات والآلام •
الصفقات التي تعقد من طريق الاعلانات الصغيرة ، دنيئة ، غير شريفة • ولكن هذا
الاعلان يفوق كل ما يمكن أن يمر بالبال ! وكان فكتور ، منذ وقت طويل ، تخالجه
الرغبة في أن يشن الحرب على صنائر العالم • كان لديه دائما مخطط. ما ، غامض ،

يعتمل في خياله • واذا بدا لاحد أن يعلن حرباً عواناً تنسجم وفكر فكتور على السوقية التي تجتاح بودابست فسيكون هو أول من يحمل رايتها • في بعض اللحظات كانت تراوده فكرة خلق جمعية سرية ينحصر نشاطها في فضح كل خسة ، كل خيانة ، كل احتيال ، كل تواطؤ مموه يجري في بودابست وكذلك كل مساس بالقانون يعسر على القانون عقابه • ولكن ، حتى يومنا ذاك ، لم يكن أي من تلك المشروعات التي يبنيها فكتور قد تحقق ، ولكن الاعلان الصغير هذا كان بمثابة انهاء عهد التأمل والتفكير وفتح الباب على مصراعيه للعمل الجاد الحاسم • ليسقط الانتظار لقد وجب الحسم !

ووثب فكتور من مجلسه وأخذ نفسه بالعمل • فقد جلس الى مكتبه وحرر الرسالة التالية :

« سيدي الاكرم ،

أنا فتاة في التاسعة عشرة من عمري ، يمكن اعتباري ظريفة بل جميلة • سأكون صديقتك الوفية اذا استطعت أن تتدبر لي وظيفة معلمة في بودابست • في حال رغبتك وقدرتك على ادخالي المعارف العامة اكتب الى « أمل » ، شبك البريد المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف لكي تتفضل باعلامي عن المكان الذي أستطيع أن ألقاك فيه •»

أعاد فكتور قراءة الرسالة وهو مشمئز مما كتب لما في كلماته من غثاثة تميز أسلوب الاعلانات الصغيرة ، ووضعها في مغلف (نفيس) معطر ، وأرسلها الى الجريدة وراح ينتظر الجواب بصبر واهن •

ورد الجواب بعد يومين • جعل قلبه يخفق بشدة لما فض الرسالة الموجهة الى « أمل » التي سلمت اليه في المركز الرئيسي للبريد •

كان نص الرسالة هو التالي :

« اذا كنت جادة في ما تقولين فابعثي اليّ باسمك وغنوانك ، وأعلميني ، ببضع كلمات ، عن وضعك العائلي (اذا كانت لك أسرة

ممن تتألف ، الى آخره .) وأرسلني صورتيك الفوتوغرافية (آخر
واحدة) الى « أقحوان » ، المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف » .

كان فكتور متمسراً على بلاط شارع كوردناهرسينغ شاحب الوجه من غضب،
تضطرب يده التي تمسك بالرسالة وقد بلغ به الغيظ مبلغاً موجعاً جعله يصرف
أسنانه بقوة .

انه حذر ، التفاهة (الواطي) ، هكذا كان يهدر في داخله . السيد اذن و بَش
يملؤه سوء الظن ، وهو لا يريد أن يكشف عن اسمه ولكنه يستعلم عن الوضع
العائلي لصاحبته المعترفة بجميله . السيد يخاف أن يقع على أب غضوب أو أخ
غيور قد يجعله يدفع غالياً ثمن كرمه (المقرف) . أي سيدي ، السيد سييري
نجوم الظهر . . .

واندفع فكتور الى مقهى وطلب الى الساقى ورقاً وريشة وحبراً ، وكتب كلمة
« اقحوان » على مغلف زلّق فيه ورقة بيضاء . وكان على وشك أن ينصرف برسالته
المغلقة بحثاً عن أقرب صندوق بريد ، ولكنه ، فجأة ، عدل عن خطته فمزق الرسالة
وأخذ مغلفاً جديداً لم يضع فيه ورقة بيضاء ، لانه ، بعد أن أعمل الفكر ، بدا له
عمله هذا مثيراً للظنون . الاحسن أن يكتب كلمة صغيرة لطيفة . وهكذا فقد
كتب ما يلي :

« أنا لا أستطيع أن أمحضكم ثقتي كلها ما دمت أجهل اسمكم وأجدني غير
مطمئنة الى جدية نياتكم . أرجوكم أن لا تسيئوا الى خفر أنسة صبية « أمل » .

هذه الرسالة أرسلت أخيراً . واذا فكتور ، بعد ارسالها ، يغدو فريسة
اضطراب وانفعال دفعاه الى تمضية يومه كله في التسكع في شوارع المدينة . حتى
اذا كان المساء نام مبكراً حتى يكون في امكانه الاستيقاظ باكراً في اليوم التالي .
وهذا ما كان ، اذ أفاق الساعة الثامنة صباحاً واستطاع أن يصل الى المركز الرئيسي
في الساعة التاسعة . وتعوّد قرب كوة شباك البريد وراح ينتظر . وفكر أن صاحبنا
لا بد آت ليبحث عن جواب رسالته وهو متيقن من أنه سيحصل على جواب ولا سيما
أنه أرسل رسالته منذ أمس الاول .

طلق ينتظر مصابراً ، ولكن ساعات قد تصرمت على حين كان رتل طويل من الناس ، من مختلف الاشكال - رجالا ونساءً وصبايا وشيوخاً كباراً - يمرّون أمام الكوة ، ولكن أحدا لم يأت ليطلب المغلف الذي يحمل عنوان «أقحوان» . في الساعة الثانية عشرة تماما وثب فكتور الى المقهى المجاور ، حيث تزوّد بشطيرتين من الجامبون وبرتقالة . و (حش) الكل في حيبه وعاد الى « محرسه » عجلان . وبدأت فترة بعد الظهر ، واستمرت في سأم لا لا يقل عمقاً عن سأم الصباح . وأكل فكتور الشطيرتين والبرتقالة ، ثم حان موعد اغلاق الكوى . لم يأت أحد ليبحث عن الرسالة ، ولكن حماسة فكتور لم تفت على الرغم من أنه كان متعباً . فكر قائلاً في نفسه : اذا لم يأت اليوم فهو آت غدا يقينا .

كان في حاجة الى أن يخفف من الارهاق الذي عاناه طوال نهاره فصعد الى عربة طافت به في نزهة في شارع ستيفانيا . فلما عاد من مشواره الذي أراحه ورطبه ، تعشى في مطعم ، وأسرع الى بيته حالاً حتى يستطيع النهوض في ساعة مبكرة من اليوم التالي . وأفاق كذلك في الساعة الثامنة ، وكان في مرقبه ، في المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف ، في تمام التاسعة .

نصب كمين على هذا النحو الملح ضجر" قاتل . وبدأ فكتور يفقد الامل . ولكن ، بينما كان يقنع نفسه باستحالة نجاح مشروعه ويحاول أن يعلم ما اذا كان قد سلك اليه الطريق الصحيحة ، رأى رجلاً سميناً ، صافي البشرة يحمل في يده عصا ويضع في عروة سترته زهرة ، يدخل من باب المركز . أخذ قلب فكتور يخفق بقوة ، ودبت حرارة منعشة في أطرافه المنهوكة .

كان الرجل الناصح (ينطنط) في حيوية وهو يجتاز المكان واثق الخطوة وثوقاً لا تجده في غير المتعود . وهدل مهذباً أمام الكوة :

— صباح الخير يا سيدتي . ألدك شيء من أجل « أقحوان » ؟

لم تبطئ الموظفة أكثر من ثانية في العثور عما تبحث عنه : كانت كومة من الرسائل تنتظر السيد المشرق ، الذي حملها ، وتوجه قاصداً الباب . ولحقه فكتور وهو يرتجف انفعالا .

آه ، المكروت ! يظهر أن الاقحوان هو زهرته المفضلة . انه رومانسي ، صاف وسعيد : الاعمال ما شية على ما يرام . ألم يتسلم هذه اللحظة بالذات كومة من الرسائل ؟ قال فكتور مكلما نفسه : ولكنه هذه المرة بين يدي لقد أحكمت عليه الطوق .

ومخر الرجل المشرق عباب الفرحة حتى بلغ الشارع الذي تغسله الشمس . ههنا فتح رسائله واحدة بعد واحدة ، وطفق يخرج منها صوراً فوتوغرافية كان يتأملها في ابتسامة رغيدة . أثناء ذلك كله كان فكتور ما ينفك يراقب الرجل . كان يلبس معطفاً أصفر ، وله رأس مكور . وكان لون بشرته فاتحاً وعيناه لامعتين ، وشارباه ، أصهيين تحت أنف يذكر شكله برأس البطاطا . ثم انه كان أكرش في نحو الاربعين من العمر . كل شخصه كان يفيض من صفاء وثقة بالنفس على نحو لا يطاق . وكل ما فيه يتنفس الفرحة البليدة بالحياة وبالحيله والمكر . اذن ، المهم أن نبذر الاضطراب والتخلخل وتزعزع الفرحة بالحياة هذه البليدة . ورافق فكتور السيد المشرق في نزهته . جازا عددا كبيرا من الجادات . ضربا حتى في أرصفة الدانوب حيث كان فكتور شاهد عددا لا يحصى من التحيات الحارة والمصافحات الودية والابتسامات العريضة يوجهها السيد الى السيدات . لما دنت الساعة من الواحدة والنصف جر السيد ، فكتور نحو شارع أندراسي ، وبعد ربع ساعة من المشي وصلا الى بناية اجتاز السيد الاكرش بابها في منتهى الصفاء والاشراق . كان أشبه الاشياء بانسان يعود الى بيته بعد صباح طافح بجلائل الاعمال ليتناول غداء استحقه كل الاستحقاق . وأما فكتور فكان يشفق أن يرافقه حتى شقته ، ولكن البواب كان في تلك اللحظة بالوصيد وبادره بالتحية . وتريث فكتور ثانية قبل أن يزلق في يد البواب المدهوش كورونين ، وسأله عن اسم السيد السمين المشرق الذي يرتدي معطفاً فاتحاً . قال البواب :

— لك ! هذا هو السيد لوهنير .

لم يكن يعلم عنه أكثر من هذا . ودخل فكتور البناية ، فوجد على اللوحة المعلقة في المدخل تحمل أسماء المستأجرين بطاقة اجتذبت انتباهه :

آلادار لوهنيير عضو المجلس البلدي

هذه المعلومات آفآءت على فكتور الرضى ، فمضى يتغدى غءام التهمه مسرعا ليقضى ما بعد الظهر في بحث مضجر لجمع المعلومات الممكنة كافة عن آلادار لوهنيير مساءً آكبً على دراسة المعطيات التي جمعها طوال ما بعد الظهر . لقد تبين فعلا أن لوهنيير في الاربعين من العمر ، متزوج ، وأب لولدين ، وسبق له أن كان (متعهدا) . بعد أن أفلس مرات عدة أضحي يعيش على ما تدّر عليه أملاكه . ثم انه كان عضوا في كازينو الحي ، ومن عآدته أن يقضي في الكازينو فترات بعد الظهر . ومنذ أن غدا مستشاراً قبل عامين هجر كل نشاط تجاري وكرس نفسه نهائيا للامور العامة . وهو يتشكى أحيانا من أن نشاطاته الخالصة لوجه الله والمصلحة العامة لا تظفر بمن يقدرها حق قدرها .

فكتور كان يتفحص هذه المعلومات على حين كان دماغه يعمل ، بكل استطاعته ، لكي يعد ما استطاع من قوة ورباط الخيل ، حربا ضروسا عوانا لا تبقي ولا تذر . المسآلة كلها ، طال عمره ، في ضبط آلادار لوهنيير متلبساً وهو أمر لا يتطرق اليه الشك . ولكن كيف السبيل الى ضبطه متلبسا ؟ وانتهى التفكير بفكتور الى اعداد خطة كاملة . وما إن أطل صباح اليوم التالي حتى زج نفسه في غمرة العمل . لقد وضعت غدوات آلادار لوهنيير وروحاته تحت رقابة صارمة . لم يكن قادرا على أن يخطو خطوة واحدة الا وفكتور ملازم اياه كظله . كان يرافقه صباحا الى المقهى ومساء الى المسرح حيث يحجز مقعدا ملاصقا لمقعده . ولكي لا يفارقه جعل يقوم بنزهات تمتد ساعات على أرصفة الدانوب ، وهو أمر ينفر منه فكتور نفورا شديدا . في اليوم الرابع من هذه المطاردة المضنية سجل فكتور نتيجة ثمينة اذ اكتشف أن لوهنيير ذاته يقوم بنشاط مماثل لهذا الذي يقوم به فكتور . ذلك أنه كان يتردد الى بناية تقع في أحد الاحياء الواقعة على تخوم المدينة ، وهدفه جمع المعلومات عن امرأة صبية تعيش في مسكن من غرفتين مع

أمها وإخوتها وأخواتها • وقد وفق فكتور الى معرفة أن هذه الفتاة معلمة بغير عمل وأنها تدعى روز ويلر •

هنا معطاة ثمينه ، لأنها تظهر بوضوح أن السيد لوهنير قد اختار روزا ويلر من بين عدد كبير من المرشحات ، لكي تكون خليلته المعترفة بجميله ! أجل كانت هذه معطاة ثمينه ، ولكن فكتور عانى لحظة همود واحباط في همته ، اذ كيف يستطيع ضبط لوهنير في الجرم المشهود ، كيف السبيل الى مراقبة كل لحظة من لحظات حياته ، من الصباح حتى المساء ، في بيته وفي الفنادق التي اعتاد ارتيادها ؟ كيف أستطيع أن أصادر مراسلاته ؟ كيف أضع يدي على البطاقة التي ستحدد مكان اللقاء وزمانه ؟

كان فكتور على وشك أن يستسلم لاحدى الراحتين حينما أعاد اليه ثقته ككشف جديد : لقد علم أن لدى السيد لوهنير ، ما عدا الشقة التي يسكن هو وامراته وأولاده ، مسكنا آخر • انه غارسونيرا (١) من غرفتين تقع في شارع صغير كان واضحا أنها مهياة لستر مغامرات السيد لوهنير الغرامية • هذا الاكتشاف لا بد أن يسهل مهمة فكتور كثيرا • لم يبق عليه الآن الا أن يؤمن مراقبة الغار سونيرا •

لم تلبث النتائج أن آتت أكلها • كان اليوم التالي تاريخيا • فقد وصل السيد لوهنير قبيل الظهر مثقل الذراعين بكل أنواع الاطايب ، وأمر البواب أن يديء الشقة للساعة السادسة مساءً • كان فكتور يرتجف فرحا لما بلغته هذه التدابير • اذن آن أوان الشد • كل شيء سيتم بعد الساعة السادسة مساءً • كل المشقات التي تحملها منذ عدة أيام ، عمله تحريا ، العدو تحت المطر والتخويض في الوحل ، اتصاله بأناس يثرون الاشمئزاز ، بكلمة كل هذه المطاردة اللاهثة ستجد مكافاتها هذا المساء •

كان فكتور يتحرق من نفاذ صبر • عاد لا يطيق أن يتحمل أكثر مما تحمل ،

(١) البيت الذي يتخذه الرجل لمواعيده الغرامية حتى ولو كان متزوجا • أصل الكلمة سن « غارسون » (الفتى) •

فاحتل مركزاً للمراقبة مواجهاً للبناء منذ الساعة الخامسة • وأمسى المساء ، مساء بداية الربيع تلك ، مبكراً ووجب على فكتور أن ينتظر كذلك ثلاث أرباع ساعة طويلة مجيء السيد لوهنير • وشرف هذا آخر الامر • كان يرتدي معطفا فاتحا ، وعصاه في يده وزهرة في عروة سترته • كان يمشي في خفة ، ودخل البناية وابتسامة مطمئنة تملأ وجهه •

قال فكتور في نفسه : خذ حريتك يا صديقي القديم الآن ، ولكن اعلم أنني هنا أيضا •

وذهب يربط في مدخل البناية ذاتها وانتظر وهو أهدأ منه في أي وقت مضى • ونظر في ساعته •
وكلم نفسه قائلا : ستكون روزا ويلر على الموعد •

وراح فكتور يذرع الدرج جيئة وذهابا ، وهو يلقي نظرة الى ساعته بين حين وآخر • في الساعة السادسة تماما دخلت البناية فتاة ربة ، أميل الى السمن • كانت السرعة التي صعدت بها الدرج تنم عن هياجها •
وفكر فكتور : ها هي ذي •

وصعدت الفتاة الدرج لاهثة ، ولكن فكتور لم يلحق بها • انها الآن تصل الى الطابق الاول • ترن جرس الباب • السيد يدخلها • تنزع معطفها وتجلس خجلى قرب المنضدة • يتكلمان • يتكلمان أيضا • يتكلمان دائما • وقرر فكتور أخيراً : حسبهما كلاماً •

وصعد الدرج ورن جرس الغار سونييرا • لا جواب • حينئذ ألصق سبابته بزرّ الجرس ونام عليه حتى أحس أن الرنين الذي لا يطاق قد أحدث أثراً سيئاً في الجانب الآخر من الباب ، وارتفع صوت غاضب :

— ما الامر ؟ ماذا تريدون ؟

وترك فكتور الزر ولكنه عاد الى كبسه عندما تبين أن الباب لا يفتح • واستمر الرنين • وفتح الباب بضعة سنتمترات • قال لوهنير من خلال الشق :
— ماذا تريد يا ... ؟

دفع فكتور الباب وانغرس لحظة أمام لوهنير الذي كان يختنق من غضب ، ثم انه عبر المدخل الغارق في الظلام وتوجه الى غرفة مضاعة في الداخل . وتبعه لوهنير مصعوقا من دهشته ، وسأل قلقا :

ماذا تريد ؟ من أنت ؟

ودفع فكتور باب الغرفة الموارب ودخل . لقد سمعت روزا ويلر كل ما دار في الدهليز . كانت شاحبة وأطلقت صرخة فزع ونهضت وثباً وأما لوهنير فقد جمع شتات نفسه وصرخ بغضب شديد :

— أخرج من هنا .

واكتفى فكتور بأن رفع نظره اليه ، فصرخ لوهنير مرة أخرى صرخة أقوى وان خرج صوته مرتعشا :

— ماذا تريد ؟ عمّ تبحث هنا ؟

وانغرس فكتور أمامه ، وأشار اليه النظر مرة أخرى ، وراح يسمعه الخطبة التالية :

— اذا كانت لديك مغامرات غرامية صغيرة فهذا شأنك . ما تفعله بسلطتك منتخباً بلدياً شأنك أيضاً . وأما أن تدحش هكذا اعلانات صغيرة وأن تكون على هذا القدر من الخسة في الحب ، وأن تنشر خستك على رؤوس الاشهاد . . . فهذا شأنني لأنني لا أحتمل أن أحييا في عالم تحدث فيه مثل هذه الامور بغير حياء أو خجل . لذلك جمعت معلومات عنك وراقبت كل تنقلاتك ، ولذلك سأعطيك الآن درساً لن تنساه .

شحب لوهنير . ولما أنهى فكتور خطبته مد السيد يده وشهر مسدسا ، ولكن فكتور أسرع فأمسك يده ولواها وخلصه المسدس . ثم ان يديه كلتيهما دخلتا المعركة . اليسرى أهوت كالقدر على معدته ، في حين أن اليمنى صفعته صفقة هائلة على خده المكور اللحم .

وندت عن الرجل صرخة ألم وفقد توازنه وترنح بضع ثوان ثم طأطأ رأسه وخبأ عينيه بيديه وهروا خارج الغرفة . وأتبعه فكتور نظره وسمعه يجتاز المدخل ويصفق باب الشقة ورائه ، فأحس براحة كبرى وطفح قلبه بفرح عذب .

وسمع حركة خلف ظهره . التفت فرأى أمامه السمراء الناصحة التي دخلت
البناية قبل ربع ساعة مغمورة العينين ، محمرة الخدين ، منتصبية الجذع . وحني
فكتور رأسه قليلا وفي وكده أن يتكلم ، ولكن الفتاة سبقته وعيناها تقدحان
شررا سألته بلهجة باترة :

– لعلك أنت الذي ستؤمن لي وظيفة الآن ؟

والله يا آنسة أنا ، مع الاسف ، لست ممنخبا بلديا يسيء استعمال سلطته .
– اذن عمّ تبحث هنا ؟

– المسألة يا آنسة أنه . . . لان . . . هذا السيد يريد أن يحصل بثمن
بخس على . . . أعني أنك ستدفعين ، ما عساي أن أقول ، ستدفعين غاليا ما . . .
وأبدت الفتاة ايماءة ، وقالت بصوت أجش :

– اذن من أجل هذا ؟

– اي نعم ، من أجل هذا .

واختلط وجه الفتاة ، وأخذت تصرخ صراخا اجتمع فيه اليأس بالغضب :

– ولكن ما عسى هذا أن يصنع لك ؟ لم يبق لي الآن الا أن أنصرف ، أن
أعود الى البيت ، الى أكل الخبز اليابس مع أمي في حين أنني كدت أحصل على
وظيفة ! وأشرعت يديها الاثنتين كأنها تود أن تشب مخالباها ، وصرخت في وجه
فكتور بصوت يخنقه التشييع :

– ها هو ذا منافخ مقيت يأتي فيرمي كل شيء في الهواء . قدر . ليأخذك
الشيطان . . .

واصفر وجه فكتور ، ورفع يده كما لو كان يريد وقف سيل الشتائم
والاعتذار . ولكن الفتاة استمرت في شتمه بكل ما يهبه اليأس من قوة . كانت
مخالباها تقترب من وجه فكتور الذي ، بعد أن قام بعدة محاولات
لاسكاتها ما لبثت أن أجهضت ، فضل الانسحاب والفوز بالهرب . ولما ظهر أن
الفتاة لا تنوي أن تظل في حيز السباب وحدها أخذ يركض . اجتاز الشقة . وصفق
بابها خلفه وركض مروعا حتى الشارع حيث اختفى في عتمة المساء .

* * *

قصة من سنغافورة

أصوة

س . لاجات تنام
نصيحة : هاشم صماري

كانت مياه النهر الصفراء البطيئة ، كالذهب المصقول في ضوء الغروب ، الذي يولي . وكانت فاطمة تتقدم ، وهي تتشبث بيديها بالضفة المنحدرة ، الى أن وصلت الجرف ، حيث أصبح نصف جسمها السفلي في الماء . كانت ثيابها المبللة تلتصق بقامتها الدحداحة السمراء ، فتبرز صدرها النافر ، الذي أشرف نفوره على الغاية . وفي عينيها الحولاوين - السوداوين ، في وجهها المستدير يكمن الحزن والاسى - كان يبدو أن المرأة تحلق بتركيز في ذاتها ، محاولة العثور على شيء ما ، تراه هي وحدها فقط .

وبحركة حادة من رأسها ، تداعى شعرها الاسود الرائع على كتفيها ، وراحت الرياح تداعبه بحنان . ومن القرية ، التي تختفي وراء النباتات المتسلقة ، والاشجار ، التي تطوق منعطف النهر ، لم يكن يصل أي صوت . وأمام عينيها كانت الخضرة ترتفع كجدار لا ثغرة فيه ، حيث الاعشاب المتسلقة ، والاشجار العالية ، وعريضة الأغصان الساحرة . ولم يكن يعكر صفو الهدوء المسائي الكسول، سوى صوت طير مائي وحيد ، أو تصفيق جناحين يثير الرعب . ومن وقت لآخر، وبحركة رقيقة ، كانت الفئران المائية تسبح في الماء ، وتتحرك الحيوانات الصغيرة عبر الاعشاب الطويلة ، فتسمع خشخشة ، لا يلبث الصمت أن يبتلعها .

كان الهواء مشبعاً برائحة الازهار البرية القوية، وبرائحة الطمي والاعشاب .
وقد سيطرت مشاعر الوحدة ، والضياع على فاطمة ، وكأنها قد انتقلت ، وعلى
حين غرة الى الازمنة الغابرة ، الى بداية ظهور العالم ، عندما كانت الارض بمثابة
مستنقع .

وفجأة وصل الى سمعها زئير وحش مخيف ، مما زاد من هذا الشعور ، ومن
جديد عاد الزئير يصفح أذنيها ، ولكن بصوت قوي ورهيب ، وأدركت فاطمة
أن ما تسمعه ليس وليد أوهاما بل هو صوت وحش مخيف وحقيقي .

وعلى بعد حوالي عشرين ياردة منها ، وبين عيدان النباتات المتسلقة ، كان
يبرز رأس الحيوان . وكانت عيناه الصفراوان الثابتتان ، تلمعان بحقد ، تحت
ضوء الشمس الغاربة ، وكانت أذناه منتصبتي . حرك النمر رأسه ، ثم زأر من
جديد ، كاشفا عن لسان أحمر ، وعن أنياب صفراء .

وتخشبت فاطمة من هول الرعب ، فهذه النظرة المخيفة أصابتها بالشلل ،
والسكون ، الذي حل بغتة ، أفقدها ارادتها وتفكيرها . فلم تكن قادرة على الاتيان
بأي حركة ، ولم تكن تستطيع أن تنزع عينيها عن الوحش الحذر ، وهو نفسه
لم يتحرك ، لكأن هذا اللقاء المفاجيء مع الانسان ، قد سمره في مكانه .
ودون انقطاع كانت فاطمة والنمر يتبادلان التحديق . هي - بخوف ، وهو -
بحذر . ومن فترة الى أخرى كان النمر يصدر زئيرا تتناقص درجة الحقد فيه
بالتدريج ، ولكنه لم يظهر أية نية في مهاجمة المرأة . على العكس ، فبعد فترة
قصيرة ، فقد أي اهتمام بها . كانت قائمتاه الاماميتان تجثمان على العشب .
وظلت المرأة لا تأتي بأدنى حركة ، وكان يبدو أن الوحش لا يهتم بأي شيء .
فقد أصبحت عيناه تلمعان بكآبة ، وراح ينظر اليها بملل كسول ، وللحال شعرت
فاطمة بهذا التحول المفاجيء ، الذي طرأ على الوحش .

وفي هذا الوقت كان الظلام يزحف من على الهضاب ، فيضع حدا لالوان
الغروب الزاهية ومن شتى الانحاء بدأت الظلال الرمادية تسمى حثيثة ، وتتكاثر ،
بشكل غير ملحوظ ، لتتحول الى السواد وفوق النهر يرتفع الضباب ويمتد نحو

الضفة • وجاءت سقسقة (زيزان) الحصاد ، ونعيق البوم ، دليلاً على أن الليل قد أرخى سدوله •

والآن ، وبعد أن فقد الخوف حدته ، شعرت فاطمة بالاعياء ، فقد بدأت ترتجف من البرد ، والنمر ، على ما يبدو ، لم يكن يزعم الذهاب ، وكادت أن تفقد كل أمل • وفجأة وضعت يديها على بطنها ، واذ تذكرت أنها تحمل في داخلها حياة أخرى ، امتلأت بالتصميم ، الذي يستهين بكل شيء : الهرب مهما كلف الامر • وفي ظلام الغسق ، الذي لم يكتمل بعد ، كان بالامكان تمييز جسم الوحش بوضوح قليل • كانت المرأة تحدد اليه ، دون انقطاع : كانت تنتظر اللحظة ، التي يحول فيها عينيه عنها ، وهي على يقين من أنها ستشعر بذلك حالاً •

كانت لا تزال تقف في الماء ، كان جسمها متوتراً ••• وفجأة ، وبجراحة القنوط ، غطست في الماء ، وسبحت تحت سطحه ، ويداها تلامسان قعر النهر • كانت فاطمة تتقدم ببطء نحو الشاطئ الآخر ، الى هناك ، حيث تقوم القرية ، ولم تكن ترفع رأسها فوق الماء ، الا عندما كانت تشعر أن رئتيها ستنفجران ، ان لم تأخذ كمية جديدة من الهواء • وفي منتصف النهر شعرت فاطمة بوحدتها ، بشكل حاد ، وفجأة دوى صوت الوحش ، فشعرت بالذعر يلف كل خلية في جسمها •

وبسرعة محمومة سبحت حتى الضفة الاخرى ، وأخيراً رأت الانوار الخافتة • انها أنوار المصابيح الزيتية في القرية •

وللحال أشاعت والدة فاطمة ، ما حدث لابنتها ، في كل أنحاء القرية ، مبالغة في الوصف • وعمت القرية موجة من الذعر • واسترسلت النسوة في القوق (١) ، كالدجاجات ، اذ ترى نسراً يحلق في الجو • وبدأن ينادين أطفالهن ، ويلتصقن بهم • وبعد أن أغلقن الابواب غير القوية للاكواخ ، بدأن يتوسلن الى الرجال أن ينجذوا القرية من شر الوحش - آكل لحوم البشر • وكان الرجال يتراخضون عبر أزقة القرية ، يجمعون القطيع • أما الشيوخ فكانوا يطالبون بأن توضح لهم جلية الامر •

(١) صوت الدجاجة

وأخيرا وعندما كانت فاطمة المنهكة ترقد على حصيرة القش • سمعت في خارج الكوخ جلبة وضوضاء ، ودخل الكوخ بعض رجال القرية ، كانوا يريدون أن يعرفوا أين رأت النمر بالتحديد • وراحت أم فاطمة ، وبصوت عال ، ترسم لهم لقاء ابنتها بـ « الأوبر » ، ولكن عمدة القرية قاطعها بإشارة من فقد صبره ، وبدأ يسأل فاطمة • كانت فاطمة تجيب عن أسئلته باقتضاب ، وبدون رغبة • وقد كانت ، على عكس الجيران الخائفين ، لا تريد ، لسبب ما ، أن يقتفوا آثار النمر ويقتلوه ، وقد دهش عمدة القرية ، لأنها كانت ترد على أسئلته دون رغبة ، واكفهر وجهه •

ويظهر أن أم فاطمة كانت تريد أن تستقطب الاهتمام من جديد فقالت :

— الحمد لله ، ان الله برحمته هو الذي أنقذ ابنتي من براثن الأوبر •

ثم رفعت يديها ، الضعيفتين ، السمراوين ، نحو الأعلى ، علامة الشكر ، والعرفان ••

واكتفى العمدة بأن هز كتفيه ، ثم تمتم يقول :

— لنفرض ذلك ، ولكن الله قد لا يرحم في مرة أخرى • وإذا بدأ النمر ، الذي أسكرته رائحة الانسان ، يتسكع قرب القرية ، فان الامر لا ينتهي على خير • ولكي تستطيع القرية أن تعيش بهدوء ، ولكي لا يكون نساؤنا وأطفالنا مهددين بالخطر ، يجب مطاردة الوحش الآن ، والقضاء عليه •

وطاف بناظرية على وجوه الرجال المضطربين والصامتين • كلهم كانوا يعرفون أن مطاردة النمر في الليل أمر خطير جدا • فالنباتات الكثيفة يمكن أن تحجبه عن مطارديه ، وتجعله يستطيع الانقضاض من هناك بشكل مفاجيء ، وبدون أية ضجة •

ويدوي صوت العمدة قائلا :

— اذن ما العمل ؟

وظل جبل الصمت سليما • وبدأ وجه العمدة يتغير • وكان يبدو أنه لن

يلبث أن يصب عليهم جام غضبه ، متهماً إياهم بالجبن ، ولكن ، وفي هذه اللحظة ، دخل الكوخ الشاب محمود : كان وجهه الفتى يضج بالحيوية والسرور ، وعلى كتفه كانت ترقد بندقيته ، ذات (السبطانة) المزدوجة .

وسأل محمود بصوت منتعش :

– هل صحيح أن النمر أغار على فاطمتنا ؟

وبينما كان العمدة يشرح له ، بكلمات مختصرة ودقيقة ، كيف حدث ذلك ، راح محمود يربت بصبر ذاهب ، على (سبطانة) البندقية . كان واضحاً أن الشاب متعلق بالصيد ، وأنه على استعداد لان ينطلق لمطاردة الوحش . وكان مما يزيد في غبطته وحماسه أن الوحش على هذه الدرجة من الخطورة . وعندما انتهى العمدة من كلامه ، قال محمود :

– بالحق نطقت . ان علينا أن نسهر على النسوة والاطفال . ان هؤلاء المساكين لن يجرؤوا على أن يظهروا في الشارع بعد الآن ، الى أن يُقضى على الوحش . اننا نحن الرجال ، ملزمون بحمايتهم . والآن من يذهب معي ، لنضع حداً لهذه المشكلة ؟ لن أكون ابن أمي ، ان لم أحضر جثته الى هنا قبل الفجر . شرط أن تمدوا لي يد المساعدة .

وبعد فترة تفكير قصيرة تطوع عشرة رجال لمرافقة محمود ، الذي بثت كلماته الجراءة لديهم ؛ فالكل كانوا يعرفون مهارته في التسديد . وخرج الرجال من الكوخ .

واقتربت أم فاطمة من ابنتها وهي تقول :

– اطمئني يا ابنتي ، ان هذا الشاب ، محمود ، قادر على القضاء على أي نمر .

وهنا نهضت فاطمة من على الحصيرة ، وأرسلت عينيها عبر النافذة الصغيرة . كان كل شيء ، تنفذ اليه أشعة القمر مغطى بالضوء الكثيف ، وكان القمر ، كقطع الفضة المصهورة ، يطل من خلال أوراق جوز الهند . وكان الرجال يتحدثون بصوت منخفض ، وهم يستعدون لبدء المطاردة . وراحت فاطمة تنظر اليهم باكتئاب .

وها هم قد اختفوا ، ولم تعد ترى الآن سوى جذوع الأشجار ، التي تبدو رمادية تحت ضوء القمر ، ولا تسمع سوى الهمس العنيد للرياح . وحين أصاغت السمع في هذا الصمت ، وصل إلى أذنيها صوت مجرى النهر ، البعيد .

وفكرت - هناك ، في مكان ما ، يتسكع النمر . انه لم يفادر رأسها طوال فترة المساء . كم يكون جيدا لو أنه تمكن من النجاة بجلده ؛ بعيدا ، بعيدا ، إلى حيث لا يستطيع الناس العثور عليه .

- يا الله يا صاحب القوة - قالت العجوز ، وهي تلقي في الاناء الخشبي بعض بذار النخيل ان هذا الليل يحمل في طياته الموت لاحد ما . تصوري أن رجالنا يشقون طريقهم الآن عبر النباتات البرية ، يطاردون مثل هذا الوحش المخيف . انه ماكر مثل مئة ثعلب ، ويرى في الظلام بشكل جيد ، البعيد والقريب . انتظري، سيكون بكاء في هذا الليل ، حتى قبل أن يحل الفجر .

- لو تركوه وشأنه . أجابت فاطمة ، وهي لا تزال تحدد عبر النافذة الصغيرة .

- ان المجنون وحده يمكن أن يقول مثل ذلك ، قالت العجوز بغضب ، يجب أن يقتل أحدهم الوحش ، قبل أن يلتهمنا كلنا .
- ولكنه قد يذهب من هنا ، من تلقاء نفسه .

- أبداً ، اذا كان النمر يطوف حول القرية ، فانه لن يذهب ، قبل أن ينال ما يريد . ان تلك الوحوش ، التي لا تخشى الاقتراب من القرى ، هي من أكلة لحوم البشر .

- ولكن هذا ليس منها ، انه لا يشبه ذلك . فقد كان على بعد حوالي عشرين ياردة مني ومع ذلك ، فلم يهاجمني ، لماذا ؟ هل تستطيعين أن تجيبي عن ذلك يا أماء ؟ صحيح إنه لم يرفع عينيه عني ، ولكنني أنا أيضاً بقيت أحقد إليه . في البداية كانت عيناه تشتعلان ، ولم يلبث أن خفف من حدة نظراته اليّ ، والتي بدت لي ، وكأنها مشوبة بالضرر والملل ، لقد كانت خالية من أي حقد ، ومن أي تعطش للدماء .

– يا للآراء الغبية ، أنت مثل أبيك المرحوم • فقد كان يؤكد ، باستمرار ،
أن الريح تغني له الاغاني • ليسامحني الله لانني أتحدث بالسوء عن الموتى ،
ولكنه كان يبدو ، في بعض الاحيان ، انساناً غيبياً •

كانت فاطمة قد أخرجت رأسها من النافذة الصغيرة ، وهي تحددق ، وتصفي
الى الليل بكآبة • كان السكون يخيم على القرية ، وكأنه قد لفها برداء الدفن •
كانت فاطمة تصفي ، وهي تفرك يديها المكتنزتين ، تأمل في أن تسمع ولو صوتاً
واحداً ، لكي تخمن ماذا يحدث الآن ، هناك ، في الغابة ••• ولكن كل شيء كان
ساكناً ، عدا قلبها فقد كان يدق – توك ، توك ••• وفجأة شعرت فاطمة بالم
رهيب • فمدت يديها الى بطنها البارز •

– ماذا حدث لك يا ابنتي ؟ سألت الام ، وهي تنظر الى ابنتها بخوف •
– لا شيء ، تمتت فاطمة من بين أسنانها •

ولم تتعد عن النافذة • كان الالم يقوى ويضعف ، وحين أغمضت عينيها ،
شاهدته ، انه النمر : هاهو يربض على الارض ، وينظر نحوها من خلال جذور
النباتات ، وعيناه حمراوان حارتان تارة ، كسولتان تشعران بالملل تارة أخرى •

وفي البعيد دوى طلق نارى وأعقبه آخر • واهتزت فاطمة ، كما لو أن
النار أطلقت عليها هي ، وسمع زئير النمر ، ولم يكن ذلك زئيراً كسولاً ، كما
كان هناك ، عند النهر ، بل زئير الالم والهياج • وطوال عدة لحظات ظل هذا
النحيب الثقيل ، نحيب عذاب ما قبل الموت ، ظل يملأ أذنيها ، ويمزق قلبها •
وفجأة شعرت برغبة ملحة في أن تجيب عنه بنحيب طويل • وتغير شكل وجهها
من الالم ، ومن بين أسنانها انفجر الانين •

– يا الله ، يا قادراً على كل شيء ، يا الله ، يا قادراً على كل شيء ،
– انني أتألم يا اماء •

وبكل حذر قادتها والدتها الى الحصيرة ، وأرقدتها •
– أخ ، أخ ، أخ ، لقد أحسنت اختيار الوقت • ارقدي ، سأعطيك قليلاً

من الماء الساخن لتشربيه ، يجب أن أنتظر عودة الرجال ، وعندئذ سأهرع الى القابلة يا لهذا الليل المشؤوم .

وبينما كانت العجوز تُعدُّ الماء الساخن وهي تتأوه ، كانت فاطمة ترقد وقد أغمضت عينيها .

— ان الرجال عائدون ، انني أسمعهم ، قالت العجوز بفرح .

وامتلاً فراع الليل ، وبشكل مفاجيء ، بأصوات الرجال والنساء .

فتحت العجوز الباب ، ونادت أحدا ما .

وتناهت الى سمع فاطمة كلماته :

— عاش محمود ، لقد قتل النمر ، كم هو هائل هذا الوحش ، لقد أصابه مرتين ، ومع ذلك فقد اضطر لاستخدام الرمح ، ولكن هل تعرفين يا جدتي ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

كانت فاطمة تصغي ، وقد أمسكت عن التنفس .

— بعد أن قتلوا النمر ، سمعوا حركة ما ، وما ان أضاءوا المكان ، مصدر الحركة ، حتى رأوا ثلاثة نمور صفار ، صفار جدا ، بحيث كانت أعينهم لا تزال مغمضة . لقد قال محمود إن عمرهم لا يزيد على الساعتين . والآن أصبح من الواضح لِمَ كانت النمرة تدافع عن نفسها كالمجنونة : يقول محمود انه سيبيع النمر الثلاثة بمبلغ جيد .

وآنَّت فاطمة من الألم ، وعلى جبينها ولدت حبات العرق الصفراء . وراحت تصرخ :

— ماما !

قصتان

زيارة بدافع الصدقة موت بائع متجول

بقام : يودورا ولتي
ترجمة : د. منير صلاحي اللصحي

ولدت الكاتبة الاميركية يودورا ولتي عام 1909 ونشرت مجموعتها القصصية الاولى - التي احتوت القصتين المنشورتين هنا - عام 1941 .

ونشرت بعد ذلك مجموعات أخرى أعطتها مكانة عالية بين كتاب وكاتبات القصة الاخيرة ، ثم في عام 1956 ظهرت رواية لها اكسبتها سمعة حسنة كروائية ذات اذن مرهفة لللهجات المحلية وعين حساسة للمآسي البسيطة التي يحيها الناس العاديون .

وانه لمن المؤسف أن ترجمة اللهجات المحلية أمر عسير التحقيق فاللهجة التي يتحدث بها الزوجان في قصة « موت بائع متجول » تضيء جمالا خاصا عليها يتبخر في هذه الترجمة .

زيارة بدافع الصدقة (*)

كان الوقت منتصف الصباح في يوم مشرق شديد البرودة . قفزت فتاة في الرابعة عشرة تحمل نبتة في أصيص من الباص أمام « بيت المعاجز » ، على تخوم البلدة . كانت ترتدي معطفاً أحمر ، وشعرها الأصفر المسبل يتدلى سائلاً من القبعة

A Visit of Charity (*)

A Curtain of Green by Eudora Welty

البيضاء المدببة التي كانت جميع الفتيات الصغيرات يرتدين مثلها في ذلك العام .
توقفت لحظة الى جانب شجيرة من الشجيرات القاتمة الشوكية التي جمّلت ادارة
المدينة الملجأ بها ، ثم مضت ببطء نحو المبنى ، الذي بني من الآجر المكلس الأبيض
وكان يعكس نور الشمس الشتائية ككتلة من الجليد . أثناء صعودها المشوش
على الدرجات نقلت الاصيص من يد الى أخرى ، ثم اضطرت أن تضعها من يدها
وأن تنزع قفازيها كي تستطيع فتح الباب الثقيل .

« إنني من فتيات الكشف وعليّ أن أقوم بزيارة لاحدى السيدات
العجائز ، » قالت للممرضة الجالسة وراء المكتب . وكانت هذه امرأة في زي أبيض
بدت وكأنها تشعر بالبرد ، ذات شعر شديد القصر انتصب فوق أعلى قمة رأسها
تماما مثل موجة بحرية . لم تقل ماريان - الفتاة الصغيرة - لها أن هذه الزيارة
ستكسبها ثلاث نقاط فقط على الاقل في مجموع علاماتها .

« هل تعرفين أية من المقيمات لدينا ؟ » سألت الممرضة ، وهي ترفع أحد
حاجبيها وتتكلم كرجل .

« أية من السيدات العجائز ؟ كلا - ولكن - أعني ستكون أية واحدة منهن
مناسبة ، » قالت ماريان وهي تتلعثم . ويدها الطليقة دفعت شعرها خلف أذنيها،
كما كانت عاداتها حين يعين وقت دراسة العلوم .

هزت الممرضة كتفيها بقدر من اللامبالاة ونهضت . وعلقت وهي تسبق الفتاة
عبر ممر من الابواب المغلقة لانتقام احدى العجائز قائلة : « أرى أنك تحمّلين
نبتة رماد متعددة الالوان جميلة . »

كانت الأرض مغطاة بمشمع رخو . شعرت ماريان كما لو أنها تسير فوق
الامواج ، ولكن الممرضة لم تعره اهتماما . وكانت هناك رائحة في الممر تشبه رائحة
ساحة من الداخل . ران الصمت على كل شيء الى أن تنحنحت واحدة من العجائز ،
خلف أحد الابواب ، كشاة تشغو . وهذا ما جعل الممرضة تتخذ قرارها . فبعد أن
توقفت عن سيرها ، مدت أولا ذراعيها ولوت مرفقها وانحنت الى الامام من الردفين

— كل ذلك لتتفحص الساعة المشدودة الى رسغها ، ثم طرقت الباب طرقة عالية مزدوجة .

علقت المريضة وهي تتكلم من فوق كتفها : « هناك اثنتان في كل غرفة . »
« اثنتان ماذا ؟ » سألت ماريان دون تفكير . كاد الصوت الشبيه بالشغاف أن يجعلها تستدير وتجري عائدة على أعقابها .

كانت سيدة عجوز تشد الباب لتفتحه في هزات قصيرة تدريجية ، وحين رأت المريضة طغت على وجهها ابتسامة غريبة جعلته مائلا على نحو يندر بالخطر . ثم رأت ماريان ، وقد دفعها فجأة ذراع المريضة القوي النافذ الصبر ، جانب وجهه عجوز أخرى ، أكبر سنا ، مستلقية على ظهرها في السرير وهي ترتدي قلنسوة وتتدثر بلحاف حتى ذقنها .

قالت المريضة : « زائرة » وبعد دفعة عنيفة أخرى مضت في طريقها عبر الممر .

وقفت ماريان وقد انعقد لسانها ، وكلتا يديها تمسك بأصيص النبات . وكانت العجوز تنتظر ، والابتسامة العريضة الرهيبة (التي هي ابتسامة ترحيب) لا زالت مطبوعة على وجهها البارز العظام ربما قالت شيئاً ما . أما العجوز المستلقية على السرير فلم تقل شيئاً على الاطلاق ولم تلتفت .

فجأة رأت ماريان يداً ، سريعة كمخالب الطيور ، تمتد عبر الهواء وتنتزع القبعة البيضاء عن رأسها . وفي نفس الوقت ، سحبها مخلب آخر مماثل الى داخل الغرفة ، وفي اللحظة التالية أغلق الباب وراءها .

« الله ، الله ، الله ، » قالت العجوز الواقفة الى جانبها .

وقفت ماريان وقد أحاط بها سرير ومغسلة وكروسي ، فالغرفة البالغة الصغر كانت تحتوي على قدر زائد من الاثاث . وفاحت رائحة البلبل من كل شيء — حتى من الارض العارية . تمسكت الفتاة بمسند الكرسي ، الذي كان من قش السلال وشعرت بنعومة ورطوبة . أخذ قلبها يتباطأ في خفقانه ، وأخذت يداها تزددان

برودة ، ولم تستطع أن تسمع ما اذا كانت العجوز تتكلم أم لا • لم تستطع أن تراهما بوضوح كبير • ما كان أعمى الغرفة ! كان ستار النافذة مسدلا والباب الوحيد مغلقاً • نظرت ماريان الى السقف ••• كان الوضع أشبه بشخص حبيس في كهف قاطع طريق قبيل أن يتم قتله •

قالت قاطعة الطريق الاولى : « هل آتيت لتكوني فتاتنا الصغيرة لساعة من الزمن ؟ »

ثم انتزع شيء من يد ماريان - أصيص النبات الصغير •
صاحت العجوز : « أزهار ! » وقفت ممسكة بالأصيص بطريقة تنبئ بالحيرة •
أضافت : « أزهار جميلة • »

عندها تنحنحت العجوز المستلقية في السرير وتكلمت • « ليست جميلة ، »
قالت دون أن تلتفت ولكن بوضوح شديد •

فجأة ارتمت ماريان على الكرسي وجلست •
صاحت العجوز الاولى باصرار : « أزهار جميلة • جميلة - جميلة •••• »

تمنت ماريان لو تسترجع الاصيص للحظة فقط ، فقد نسيت أن تلقي نظرة على النبتة قبل تقديمها • كيف كانت تبدو ؟

قالت العجوز الاخرى بحدة : « حشائش عفنة » كانت ذات جبهة منفخة وعينين حمراوين كأعين الخراف • وقد التفتت بهما الآن نحو ماريان • ويبدو أن حنجرتها بدأت تتزكم من جديد ، إذ أنها قالت تشغو : « من - أنت ؟ »

أدهش ماريان أنها لم تستطع تذكر اسمها • أخيرا قالت : « انني من فتيات الكشاف • » قالت العجوز وكأنها شاة دون أن توجه كلامها لشخص معين : « حذار من الجراثيم • »

وقالت العجوز الاولى : « لقد آتت واحدة لرؤيتنا في الشهر الماضي • »

شاة أم جرثومة ؟ تساءلت ماريان في نفسها وكأنها في حلم ، ويدها تشد على الكرسي •

صاحت العجوز الاخرى : « لم تأت ! »

صرخت الاولى : « بل أنت ! قرأت لنا من الكتاب المقدس ، واستمتعتنا بذلك ! »
« من استمتع بذلك ! » قالت العجوز المستلقية في السرير ، وقد غدا فمها
بصورة غير متوقعة • صغيرا يبدو عليه الاسى كقم حيوان مدلل •
قالت الأخرى باصرار : « نحن استمتعتنا بذلك • أنت استمتعت بذلك - أنا
استمتعت بذلك » •

قالت ماريان : « جميعنا استمتعتنا بذلك ، » دون أن تلاحظ أنها تفوهت
بأية كلمة •

كانت العجوز الاولى قد فرغت لتوها مسن وضع أصيص النبات على سقف
الخزانة الشديد العلو ، حيث كاد أن يختفي عن النظر اذا ماتطلع المرء من الاسفل •
وتساءلت ماريان كيف أمكنها وضعه هناك ، كيف أمكنها الوصول الى مثل هذا
العلو •

« يجب ألا تعيري أدي الهرمة أي اهتمام ، » قالت الآن مخاطبة الفتاة الصغيرة •
« انها تشكو المرض اليوم • »
قالت المرأة المستلقية في السرير : « هلا خرست » لست أشكو شيئا •
« أنت في حالة يرثى لها • »

قالت ماريان فجأة : « لا أستطيع البقاء أكثر من دقيقة - والله لا أستطيع • »
ونظرت الى الأرض المبللة وخطر لها أنها اذا شعرت بالدوار هنا أو تقيأت
فستضطران الى اطلاق سراحها •

بكثير من التكلف جلست العجوز الاولى على كرسي هزاز - قطعة أخرى من
الاثاث ! - وبدأت تحرك الكرسي وبأصابع احدى يديها لمست دبوسا شديد القذارة
من حجر كريم منقوش على صدرها ، وسألت : « ما الذي تقومين به في المدرسة ؟ »
قالت ماريان : « لست أدري ••• » حاولت أن تفكر ولكنها لم تستطع ذلك •

همست العجوز : آه ، ولكن الزهور جميلة • « بدا أن اهتزازها يتسارع أكثر
فأكثر ؛ ولم تستطع ماريان أن تفهم كيف يمكن لاي شخص أن يتحرك بهذه السرعة •

« بشعة ، » قالت المرأة المستلقية على السرير .

بدأت ماريان تقول : « اذا جئنا بزهور . . . » ثم صمتت . كادت أن تقول أنه اذا ما أحضرت فتيات الكشاف زهورا الى « بيت العجائز » ، فان نقطة أخرى تضاف الى نقاط الزيارة ، واذا أخذن كتاباً مقدساً معهن في الباص وقرأن منه للعجائز ، فان نقاط الزيارة تتضاعف . لكن العجوز لم تكن قد أصغت على أية حال ، فقد كانت تميل بالكرسي أمام وراء وتتأمل العجوز الأخرى ، التي بادلتها التحديق من سريرها .

« آدي المسكينة مريضة . وقد اضطرت الى تناول دواء . . . أتفهمين ؟ » قالت وهي تشير بأصبع قرنية الى صف من الزجاجات على الطاولة ، وتهز مرتفعة الى علو جعل حذاءها البيتي الاسود يرتفع عن الارض كحذاء طفل صغير .

قالت المرأة المستلقية على السرير ، « لست أكثر مرضا منك . »

« بل أنت مريضة حقا ! »

قالت العجوز الأخرى ، وهي تهز رأسها : « كل ما في الأمر أن لدي قدر أكبر من الفهم مما لديك . »

قالت العجوز الأولى بود مفاجيء : « هذه ليست الا الطريقة المشاكسة التي تتحدث بها حين تأتين جميعكن . » أوقفت الكرسي الهزاز بضربة متقنة من قدميها وانحنت نحو ماريان . امتدت يدها نحو الفتاة - كان ملمسها كملمس ورقة « البتونيا » ، يعلق وفيه شيء من الدبق .

صاحت الأخرى : « هلاّ سكنت ! هلاّ سكنت ! »

انحنت ماريان الى الورا متصلة على كرسيها .

قالت العجوز بنفس الصوت المتوعد المتوعد : « حين كنت بنتا صغيرة مثلك ، ذهبت الى المدرسة وكل شيء . ليس هنا - في بلدة أخرى . . . »

« اسكنني ! » قالت المرأة المريضة . « لم تذهبي الى المدرسة قط . لم تأتي قط ولم تذهبي قط . لم تكوني في أي مكان قط - فقط هنا . انك لم تولدي قط ! أنت لا تعرفين شيئاً . رأسك فارغ ، قلبك ويداك وحقيبة يدك السوداء القديمة كلها فارغة ، وحتى الصندوق القديم الصغير الذي أحضرته معك ، جئت به فارغاً - فقد أطلعتني عليه . ومع ذلك فانك تتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين طيلة الوقت حتى أخال انني أفقد عقلي . من أنت ؟ أنت غريبة - غريبة كلياً ! ألا تعرفين أنك غريبة ؟ هل من الممكن أن يفعلوا شيئاً كهذا لأي انسان - أن يرسلوا لهم امرأة غريبة لتتكلم وتنفض هراءها الطويل بأكمله؟ هل يعتقدون جدياً أنني أستطيع الاستمرار في تحمل ذلك يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ، أسكن في نفس الغرفة مع عجوز رهيبه - الى الابد ؟ »

رأت ماريان عيني العجوز تكتسبان بريقاً وتلتفتان اليها . كانت هذه العجوز تنظر اليها والياس والتفكير يبدوان في وجهها . وفجأة تباعدت شفاتها الصغيرتان وكشفت عن نصف دائرة من الأسنان الاصطناعية ذات اللثة السمراء .

همست : « تعالي هنا ، أريد أن أخبرك شيئاً . تعالي هنا ! »

كانت ماريان ترتجف ، وكاد قلبها أن يتوقف عن الخفقان كلياً للحظة من الزمن .

قالت العجوز الاولى : « حسبك ، حسبك ، حسبك يا أدي . هذا ليس من اللباقة بشيء . أتدرين ما هي مشكلة أدي العجوز الحقيقية اليوم ؟ » نظرت هي أيضاً الى ماريان ، وانخفض أحد جفونها متدلياً .

« مشكلتها ؟ » كررت الطفلة بغباء . « ما هي مشكلتها ؟ »

« آه ، انها غاضبة لان اليوم عيد ميلادها ! » قالت العجوز الاولى وقد بدأت تهز كرسيتها من جديد ، وصدرت عنها صيحة ظفر خافتة كما لو أنها نجحت في الاجابة على الأحجية التي طرحتها هي نفسها .

صرخت العجوز المستلقية على السرير : « كلا إنه ليس عيد ميلادي ، ليس

عيد ميلادي ، فلا أحد يعرف تاريخه سواي • وأرجوك ، هلاّ هدأت ولم تقولي أي شيء آخر ، أو أنني سأفقد عقلي فوراً ! « حين تسوء الامور الى حد بالغ ، فأنني أقرع هذا الجرس فتأتي الممرضة • »

كانت احدى يديها ممدودة من تحت اللحاف المرقع - يد صغيرة نحيفة ذات نمش أسود ضخّم • وباصبع راعشة أشارت الى جرس صغير على الطاولة بين الزجاجات •

همست ماريان : « ما عمرك ؟ » كان الان باستطاعتها أن ترى العجوز المستلقية في السرير عن قرب شديد وبوضوح كبير ، وبشكل مفاجيء جداً ، من جميع الجوانب ، كما يحدث في الاحلام • وكانت تتساءل - عن هذه العجوز - تساءلت للحظة كما لو أنه لم يكن هناك في العالم شيء آخر تتساءل عنه •

وكانت هذه أول مرة يحدث فيها شيء من هذا القبيل لماريان •

« لن أخبرك ! »

وببطء استجمع الوجه الهرم نفسه على الوسادة ، حيث كانت ماريان تنحني فوقه ، ثم تداعى • صدرت أنات خافتة عن الفم الصغير المفتوح • وكان صوتها كصوت شاة - صوت حمل صغير • اقترب وجه ماريان اقتسراباً شديداً ، وتبدل الشعر الاصفر الى الامام •

« انها تبكي ! » والتفتت بوجه مشرق متأجج نحو العجوز الاولى •

« هذه طبيعة آدي كما تشاهدينها ، » قالت العجوز بكيد •

قفزت ماريان وتحركت نحو الباب • للمرة الثانية كساد المخلب أن يلمس شعرها ، ولكن سرعته لم تكن كافية • وارتدت الفتاة الصغيرة قبعتها •

قالت العجوز وهي تتبع ماريان عبر الباب وحتى الممر : « آه ، لقد كانت زيارة حقيقية • » ثم فجأة أنشبت أصابعها الصغيرة الحادة بالطفلة من الخلف •

وبنحيب مصطنع عالي الطبقة الصوتية صاحت آه ، أيتها الفتاة الصغيرة ، هل لديك « بنس » تستطيعين الاستغناء عنه من أجل عجوز مسكينة لا تملك شيئاً خاصاً بها ؟ ليس لدينا في هذه الدنيا أي شيء - ولا حتى بنس واحد نشترى به سكاكر - لا شيء ! أيها الفتاة الصغيرة ، فقط خمسة بنسات - بنس واحد - «

شدت ماريان نفسها بعنف للحظة قبل أن تفلت من اليدين الهرمتين • ثم ركضت عبر المر ، دون الالتفات الى الورااء ودون أن تنظر الى المرضة ، التي كانت تقرأ مجلة « الحقل والجدول » وراء طاولتها • سألت المرضة ، بعد حركة ثلاثية أخرى قامت بها لتتفحص الساعة في رسغها ، السؤال الذي يطرح بصورة آلية على الزوار في جميع الملاجىء والمشافي : « ألا تبقيين لتناول العشاء معنا ؟ »

لم تجب ماريان على الاطلاق • فتحت الباب الثقيل بدفعة وخرجت الى الهواء البارد وركضت تنزل الدرجات •

توقفت تحت الشجرة الشوكية وبسرعة ، دون أن يراها أحد ، استعادت تفاحة حمراء كانت قد أخفتها هناك •

شعرها الأصفر تحت قبعتها ، معطفها القرمزي ، ركبها العاريتان - جميع هذه الأشياء ومضت في نور الشمس أثناء جري الفتاة لاستقبال الباص الكبير المسرع عبر الشارع •

صاحت : « انتظرنني ! » وكما لو انه تلقى أمراً ملكياً ، توقف الباص محدثاً صريراً عالياً •

قفزت تركب الباص وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة •

موت بائع متجول (*)

ساق ر • ج • بومن ، الذي أمضى أربعة عشر عاماً يتجول من مكان لآخر في ولاية مسيسيبي كممثل لشركة أحذية ، سيارة الفورد على ممر ترابي كثير الحفر • كان اليوم طويلاً ! وبدا الوقت وكأنه لا ينوي اجتياز حاجز الظهر ليستقر في عصر برود • مكثت الشمس ، التي تحتفظ بوهجها حتى أثناء الشتاء ، في أعلى السماء ، وكلما أخرج بومن رأسه من السيارة المغبرة ليحرق في الطريق أمامه ، بدت وكأنها تمد ذراعاً طويلة إلى الأسفل وتدفع قبة رأسه ، بمخرقة القبعة - مثل مزاح بائع هرم ، أمضى زمناً طويلاً في السفر جعله هذا يشعر بمقدار أكبر من الغضب والعجز • كانت حرارته مرتفعة ، ولم يكن واثقاً تماماً من معرفته للطريق •

كان هذا يومه الأول الذي يعود فيه إلى السفر بعد فترة طويلة من الانفلونزا ، انتابته خلالها حمى شديدة جداً وأحلام وأصبح ضعيفاً ، شاحباً ، يستطيع ادراك ذلك من النظرة الأولى إلى وجهه في المرأة ، ولم يكن قادراً على التفكير بوضوح ••• طيلة فترة ما بعد الظهر ، في سورة غضبه ، وبدون أي سبب ، أخذ يفكر بجذته الميتة • لقد كانت إنسانة تحب الراحة • مرة أخرى تمنى بومن لو أنه يستلقي في السرير الكبير المحشو بالريش الذي كان في غرفة نومها ••• ثم نسيها مرة أخرى •

يا لمنطقة التلال الخاوية هذه ! وبدا له أنه يمضي في الاتجاه الخاطيء - كما

(*) Death of a Traveling Salesman من نفس المجموعة المذكورة سابقاً ، ويجب أن نذكر هنا أن كلمة « بائع ليست دقيقة كترجمة لكلمة Salesman ، فالكلمة الانكليزية تعني هنا الشخص الذي ينتقل من منطقة إلى أخرى لعرض بضائع شركة معينة والترويج لها بغية تحريض الزبائن على طلب شحنات من هذه البضائع • كذلك تجدر الإشارة هنا إلى الفارق بين عنوان هذه القصة وعنوان مسرحية آرثر ملر الشهيرة: Death of a Salesman المعروفة في العربية بنفس العنوان المستعمل في ترجمة هذه القصة • ومن الواضح أن عنوان هذه القصة يحتوي كلمة Traveling (متجول) زيادة على عنوان مسرحية ملر •

لو أنه يعود الى الخلف ، الى الخلف البعيد . لم يكن هناك أي بيت على مدى البصر ولكن لم تكن هناك أية فائدة في أن يتمنى لو أنه يعود الى سريره . فبدفعه فاتورة طبيب الفندق برهن أنه قد استعاد صحته . بل أنه حتى لم يشعر بالاسف حين ودعته المريضة المدربة الجميلة . فهو لا يحب المرض ، ولا يثق به ، مثل عدم ثقته بالطريق الخالي من اللافتات . مثل هذا الطريق يجعله يشعر بالغضب . لقد أهدى المريضة اسوارة باهظة حقاً ، لمجرد أنها كانت تحزم أمتعتها استعداداً للرحيل .

ولكن الآن - ماذا يعني كونه خلال أربعة عشر عاماً من التجوال لم يمرض قط ولم يتعرض لأي حادث ؟ لقد تشوه سجله ، بل إنه بدأ يطرح علامات الاستفهام حول هذا السجل كان تدريجياً قد أخذ ينزل في فنادق أفضل ، في مدن أكبر ، ولكن ألم تكن جميعها - بصورة سرمدية - خانقة في الصيف باردة في الشتاء ؟ النساء ؟ لم يستطع أن يتذكر سوى غرف صغيرة داخل غرف صغيرة ، مثل عش من صناديق الورق الصينية ، واذا ما فكر بامرأة معينة تراءت له الوحدة المهترئة التي كان أثاث الغرفة يبدو مصنوعاً منها . وهو نفسه - كان رجلاً يرتدي دائماً قبعات سوداء عريضة الحافة الى حد ما ، وفي مرايا الفنادق المتماوجة بدا شكله شبيهاً بشكل مصارع ثيران ، وذلك حين يتوقف في تلك اللحظة المحتومة على فسحة الدرج ، أثناء نزوله في طريقه لتناول العشاء مال برأسه خارج نافذة السيارة مرة أخرى ، ومرة أخرى أخذت الشمس تدفع رأسه .

كانت نية بومن أن يصل الى بيولا لدى حلول الظلام ، أن يأوي الى الفراش ويداوي انهاكه بالنوم . كانت بيولا حسبما يتذكر تبعد خمسين ميلاً عن آخر بلدة مر بها على الطريق الممتلئ بالحصى . لم يكن هذا سوى ممر للبقر . ما الذي جاء به الى مثل هذا المكان . مسحت إحدى يديه العرق عن وجهه ، وتابع قيادة السيارة .

لقد قام بالسفر الى بيولا من قبل . لكنه لم ير قط هذه الهضبة أو هذا الممر المتلاشي من قبل - أو تلك السحابة ، كما خطر في ذهنه باستيحاء ، وهو

ينظر الى الاعلى ثم الى الاسفل بسرعة - كما أنه لم ير هذا اليوم من قبل .
 لم لا يعترف بأنه بكل بساطة ضائع وأن ضياعه بدأ منذ عدة أميال ؟ ٠٠٠ لم
 يكن من عادته أن يسأل الغرباء عن الطريق ، وعادة لم يكن هؤلاء يعرفون الى
 أين تؤدي نفس الطرق التي كانت بيوتهم عليها ؛ ولكن من جهة أخرى لم يقترب
 من أي شخص اقترابا كافيا لان يناديه سائلا . فالاشخاص الواقفون في الحقول
 بين الفينة والاخرى ، أو فوق إكوام التبن ، كانوا بعيدين جدا ، بحيث بدوا
 كعصي أو أعشاب محنية ، يلتفتون قليلا لدى سماع صوت سيارته الوحيد وهي
 تعبر ريفهم ويرقبون الغبار الشتائي الباهت الذي أثارته وهو يموج خلفها على
 الطريق . لقد تبعته نظرات هؤلاء الاشخاص البعيدين بثبات كجدار لا يمكن
 اختراقه ، وعادوا الى مكانهم وراه بعد أن مر .

طلفت السحابة الى أحد الجانبين مثل الوسادة على سرير جدته . مضت فوق
 كوخ على حافة الهضبة حيث تطاولت شجرتا أزادرخت نحو السماء . ساق السيارة
 فوق كوم من أوراق السنديان الميتة ، وعجلات سيارته تثير أطرافها العديمة
 الوزن محدثة صفيرا كثيبا فضيا أثناء مرور السيارة فوق حوضها . لم تجتز هذا
 الطريق أية سيارة قبله . ثم رأى أنه فوق حافة هوة منحدره ، وأن هذه كانت
 بالتأكيد نهاية الطريق .

شد المكبح . لكنه لم يستجب ، رغم أنه شد عليه بكل ما فيه من قوة .
 مالت السيارة باتجاه الحافة وتدحرجت قليلا . لم يكن هناك شك في أنها ستهوي .

خرج بسرعة ، كما لو أن شيئاً من الأذى قد وجه اليه وأن عليه أن يفكر
 بكرامته . أخرج حقيبة سفره وحقيبة العينات ، ووضعهما على الارض ، وتقهرق
 الى الوراء ليراقب السيارة وهي تتدحرج فوق الحافة . سمع شيئاً ما - لم يكن
 صوت الاصطدام الذي انتظره ، وانما طقطقة بطيئة غير صاخبة . بشيء من
 القرف مضى ليشاهد ما حدث ، ورأى أن سيارته وقعت في تشابك من الدوالي
 الضخمة التي يعادل سمكها ثخن ذراعه ، وأن هذه الدوالي أمسكت السيارة

وحفظتها ، وهزتها مثل طفل غريب الشكل في مهد مظلم ، ثم ، بينما كان يراقب ، أفلتتها بلطف لتهبط الى الارض .
• تنهد •

أين أنا ؟ تساءل مصدوماً لم لم أقم بفعل شيء ما ؟ بدا أن كل غضبه قد تسرب منه . كان المنزل هناك ، خلفه على الهضبة • أمسك حقيبة بكل من يديه وبتلقائية كادت أن تكون طفولية مضى نحو المنزل • لكن تنفسه كان يتم بصعوبة ، واضطر الى التوقف ليستريح •

كان بيتاً متقشفاً - غرفتان وممر مفتوح بينهما - قابعا فوق الهضبة • وقد مال الكوخ بأكمله قليلا تحت ضغط الدالية المتكومة الثقيلة التي تغطي السقف ، باهتة وخضراء ، كأنها منسية منذ الصيف • كانت امرأة تقف في الممر •

توقف بلا حراك • ثم بصورة مفاجئة تماماً أخذ قلبه يتصرف على نحو غريب • مثل صاروخ أطلق ، أخذ يقفز ويتوسع في أنساق متفاوتة من الخفقان تدفقت الى دماغه ، ففقد قدرته على التفكير • ولكن قلبه في توزعه وسقوطه لم يحدث أية ضجة • وانما اندفع الى الاعلى بقوة كبيرة ، بتيه تقريبا ، وهوى برفق ، كالبهلوانات في سقوطهم فوق الشبكة • بدأ يدق بعمق ، ثم توقف منتظرا بطيش ، يضرب بنوع من الاستهزاء الداخلي على ضلوعه في البداية ، ثم على عينيه ، ثم تحت عظمتي كتفيه ، وعلى سقف حلقة حين حاول أن يقول : « مساء الخير يا سيدتي • » لكنه لم يتمكن من سماع قلبه - كان ساكناً مثل الرماد وهو يسقط • وكان هذا مطمئناً بعض الشيء ؛ ومع ذلك فقد شعر بومن بصدمة لمجرد شعوره بخفقان قلبه •

أسقط حقيبته ، وهو واقف بلا حراك في تشوشه ، وبدت الحقيبتان وكأنهما تطفيان في كتلتين بطيئتين برشاقة عبر الهواء وتتوسدان العشب المتمدد قرب درجة الباب •

أما بالنسبة للمرأة الواقفة هناك ، فقد رأى على الفور أنها عجوز • ولما

لم يكن بإمكانها بأية حال أن تسمع قلبه ، فقد تجاهل الخفقان ونظر إليها الآن بامعان ، ولكن في تشتت ذهنه كانت نظرتة حاملة وفمه فاغرا •

كانت تنظف المصباح ، وتمسك به ، نصفه مسود • ونصفه نظيف ، أمامها •
 رأها والممر المعتم خلفها • كانت امرأة ضخمة ذات وجه أبلاه الطقس ولكنه غير متغضن ؛ وكانت شفتاها مغلقتين باحكام ، وعيناها تنظران ببريق باهت غريب الى عينيه • نظر الى حذائها ، الذي كان مثل حزمتين • لو أن الوقت صيفا لكانت حافية ••• قدر بومن ، الذي كان بصورة آلية يقدر عمر النساء من أول نظرة ، انها في الخمسين • كانت ترتدي رداءً عديم الشكل مصنوعا من مادة خشنة رمادية ، جف دون كي بعد أن غسل ، وقد ظهر ذراعاها منه أحمرين ومستديرين على نحو غير متوقع • حين لم تنطق بأية كلمة ، وحافظت على وضعها الهادئ ممسكة المصباح ، تشكلت لديه قناعة بقوة جسمها •

قال : « مساء الخير يا سيدتي • »

تابعت التحديق ، ولم يكن بإمكانه معرفة ما اذا كانت تحديق به أو بالهواء المحيط به ، ولكن بعد لحظة خفضت بصرها دلالة على أنها ستستمع الى أي شيء لديه يقوله •

قام بمحاولة ثانية : « هل يا ترى يهملك الامر - حادثة - سيارتي ••• »

برز صوتها منخفضاً ونائياً ، مثل صوت يأتي عبر بحيرة • « سني ليس هنا • »

« سني ؟ »

« سني ليس هنا الآن • »

ابنها - شخص قادر على استرجاع سيارتي ، خمن بارتياح مشوش • أشار

الى سفح الهضبة • « سيارتي في قعر الحفرة • سأحتاج الى مساعدة • »

« سني ليس هنا ، ولكنه سيأتي • »

أخذت تتضح له بشكل أفضل وصوتها يغدو أكثر قوة ، وأدرك بومن أنها غبية .

لم يدهشه التأجيل المتزايد والمشقة اللذان انتابا رحلته الا بقدر ضئيل .
تنفس ، وسمع صوته يتكلم متجاوزا ضربات قلبه الصامتة . « لقد كنت مريضاً
ولم أستعد قوتي بعد ... هل لي أن أدخل ؟ »

انحنى ووضع قبعته السوداء الكبيرة فوق قبضة حقيبته . كانت حركة
متدللة ، تكاد تكون ركوعاً ، بدت له في الحال أنها مضحكة وتنم عن كل ضعفه .
رفع بصره الى المرأة ، والرياح تعبث بشعره . كان من المحتمل أن يستمر وقتاً طويلاً
في هذا الموقف غير المعتاد ؛ انه لم يكن قط رجلاً صبوراً ، ولكنه حين مرض تعلم
أن يفوض بخنوع بين الوسائد وأن ينتظر دواءه . وقف ينتظر المرأة .

ثم قامت بالالتفات وهي تنظر اليه بعينين زرقاوين ، وفتحت الباب ، وبعد
لحظة ، انتصب بومن ، كما لو كان مقتنعاً بتصرفه ، وتبعها الى الداخل .

في الداخل ، لمس ظلام الغرفة كما لو كان يداً محترفة ، يد الطبيب .
وضعت المرأة المصباح الذي نظّف جزئياً على طاولة في منتصف الغرفة وأشارت ،
أيضاً مثل شخص محترف ، مثل دليل ، الى كرسي ذي مقعد أصفر من جلد البقر .
وقبعت هي الى جانب الموقد ، وقد رفعت ركبتيها تحت الثوب العديم الشكل .

في البداية شعر بالامان على نحو متفائل . أصبح قلبه أكثر هدوءاً . كانت
الغرفة مطوقة داخل العتمة الناجمة عن ألواح الصنوبر الصفراء . واستطاع أن
يرى الغرفة الاخرى عبر المر ، حيث كانت رجل سرير حديدي ظاهرة . وكان
السرير مغطى بلحاف من رقع قماش حمراء وصفراء بدت وكأنها خريطة أو
صورة ، تشبه بعض الشيء الصورة التي رسمتها جدته في صباها لروما
وهي تحترق .

كان قد شعر بحاجة ملحة الى شيء من الرطوبة ، لكن الجو في هذه الغرفة

كان باردا • حرق بالموقد الذي احتوى فحما باردا وطانجر عند الزوايا • كانت المدفأة والمدخنة المسودة مبنيتين من الحجر الذي رآه في التلال ، معظمه من الاردواز • وتساءل لِمَ لم تكن النار مشتعلة •

وكان هناك هدوء شديد • بدا صمت الحقول أنه دخل المنزل وأخذ يتجول في داخله بحرية • شعر بومن أنه معرض لخطر غامض ساكن بارد • ما الذي كان من الضروري أن يفعله ؟ ••• أن يتكلم •

قال : « لدي مجموعة جديدة من الاحذية النسائية الرخيصة الثمن • »
ولكن المرأة أجابت : « سوف يرجع سني • انه قوي • سيحرك سني سيارتك • »
« أين هو الآن ؟ »

« انه يَفْلَح لدى السيد ردموند • »
السيد ردموند • السيد ردموند • ذلك شخص لن يضطر لمقابلته أبداً ، وقد سره ذلك • فبطريقة مالم يرتح قلبه لهذا الاسم ••• وفي نوبة من الحساسية والقلق ، تمنى بومن أن يتحاشى حتى مجرد ذكر أشخاص مجهولين ومزارعهم المجهولة •
« هل تعيشان هنا وحيدين ؟ » اندهش لسماع صوته الثرثار المدرب على بيع الاحذية يلقي سؤالاً كهذا - عن شيء لم يكن حتى يرغب في معرفته •
« نعم • اننا وحيدان • »

اندهش من طريقة اجابتها • لقد استغرق منها قول ذلك زمنا طويلا • وقد هزت رأسها ايجاباً بصورة شديدة أيضا • هل أرادت أن توجه اليه نوعاً من التحذير ؟ تساءل بتعاسة • أو هل أن المسألة فقط هي أنها لن تساعد بالتحدث معه ؟ فهو لم يكن على قدر كاف من القوة ليتلقى تأثير الاشياء غير المألوفة دون حديث قصير يلفظ وقعها • لقد عاش شهراً لم يحدث فيه أي شيء الا في عقله وجسمه - حياة لم تكد تكون مسموعة من دقات القلب والاحلام التي عادت ، حياة من الحمى والسرية ، حياة هشة جعلته ضعيفا الى درجة - ماذا ؟ الى درجة التوسل • قفز النبض في راحة يده مثل سمكة في جدول •

تساءل مرة بعد مرة لم لم تتابع المرأة تنظيف المصباح ، ما الذي دفعها لان تبقى هناك في الطرف الاخر من الغرفة ، مضية بصمت حضورها عليه؟ أدرك أن هذا الوقت لم يكن بالنسبة لها وقتاً يصلح للقيام بالواجبات الصغيرة . كان وجهها وقورا ، كانت تشعر بمدى صواب فعلها . ربما كان الامر مجرد لباقة . وبطواعية أبقى عينيه مفتوحتين على نحو متصلب ، مركزتين على يدي المرأة المتشابكتين كما لو أنها تمسك الخيط الذي يضمهما .

ثم ، « سني قادم ، » قالت .

لم يسمع هو أي شيء ، ولكن رجلا أتى مارا بالنافذة ثم مندفعاً عبر الباب ، وكلبان الى جانبه . كان سني رجلاً ضخماً الى حد كاف ، وحزامه يتدلى منخفضاً محيطاً برديه . بدا أنه لا يصغر عن الثلاثين . كان ذا وجه حار أحمر لا يزال الصمت يملؤه . وكان يرتدي سروالاً أزرق ملطخاً بالوحل ومعطفاً عسكرياً قديماً . مليئاً بالبقع والرقع . تساءل بومن : الحرب العالمية ؟ رباه ، لقد كان معطفنا كونفدراليا (*) . هد مؤخرة شعره الخفيف كان مرتدياً قبعة سوداء عريضة قدرة بدت وكأنها اهانة لقبعة بومن . دفع الكلبين عن صدره . كان قوياً ، وفي طريقته في التحرك هيبه وثقل . . . كان هذا هو الشبه بينه وبين أمه . وقفا جنباً الى جنب . . . لا بد له من أن يشرح مرة أخرى وجوده هنا . قالت المرأة بعد بضع دقائق : « سني ، هذا الرجل سقطت سيارته في الهوة ويريد أن يعرف اذا كنت ستخرجها له . »

لم يستطع بومن حتى أن يشرح قضيته .

وقع بصر سني عليه .

كان يعرف أن عليه أن يقدم تفسيرات وأن يعرض نقوداً - على الاقل أن يبدو

* نسبة الى الجيش الكونفدرالي الذي حشدته الولايات الجنوبية في الحرب الاهلية الامريكية . (المترجم)

أما بمظهر النادم أو ذي السلطة • ولكن كل ما أستطاع أن يفعله هو أن يهزكتفيه على نحو طفيف •

لامسه « سني » وهو يمضي الى النافذة ، يتبعه الكلبان المتوثبان ، وينظر من خلالها • كان هناك جهد حتى في طريقتة في النظر ، كما لو أنه يستطيع أن يرمي بصره منها مثل حبل • دون أن يلتفت ، شعر بومن أن عينيه هو لم تكونا تستطيعا رؤية أي شيء : كانت الهوة شديدة البعد •

« لدي بغل هناك في الخارج ولدي بكرة وحبال ، » قال سني بلهجة ذات معنى • أستطيع أن آخذ بغلي وحبالي ، وقبل مضي زمن طويل أخرج سيارتك مسن الوادي • »

نظر الى جميع أنحاء الغرفة ، كما لو كان يمعن التفكير ، وعيناه تدوران في مآقيهما • ثم ضغط شفثيه على بعضهما بشدة ولكن باستحياء ، ثم والكلبان يسبقانه هذه المرة خفض رأسه وخرج بخطوات واسعة • صدر صوت عن الارض الصلبة وهي تميد بفعل طريقتة الجبارة في السير التي تكاد تكون مترنحة •

بخبث وبايحاء من هذه الاصوات، قفز قلب بومن مرة أخرى • بدا أنه يسير هنا وهناك في داخله •

قالت المرأة : « سيقوم سني بالمهمة • » كررت قولها ، تكاد أن ترسله كأغنية • كانت جالسة في مكانها قرب الموقد •

دون أن ينظر ، سمع بعض الصرخات وسمع الكلبين ينبعان وصوت خبط حوافر في خطوات قصيرة على الهضبة • وبعد بضع دقائق مر سني تحت النافذة يحمل حبلاً ، وكان هناك بغل بني اللون ذو أذنين مرتعشتين لامعتين بدتا وكان لونهما بنفسجي • ونظر البغل فعلا عبر النافذة من تحت جفنيه • وجه عينين تشبهان دريشتين الى عيني بومن الذي أشاح بوجهه ورأى المرأة تبادل البغل النظر بالصفاء ، والرضا وحده يلوح في وجهها •

تابعت الغناء قليلاً بصوت خافت • خطر له ، وبدا ذلك رائعاً تماماً ، أنها

لم تكن حقا تتحدث اليه ، وانما تتابع الشيء الذي يحدث بكلمات لا شعورية
بينما جزء منها يتابع النظر .

لذا لم يقل أي شيء ، وحين لم يجب هذه المرة شعر بانفعال غريب وقوي ،
غير الخوف ، يعتمل في نفسه .

حين قفز قلبه هذه المرة ، شيء آخر - روحه - بدا أنه يقفز أيضا ، مثل
مهر صغير سمح له بالخروج من الحظيرة . حدق في المرأة بينما سرعة أحاسيسه
المحمومة جعلت رأسه يدور . لم يستطع التحرك ؛ لم يكن هناك شيء يستطيع فعله ،
إلا ، ربما ، أن يعانق هذه المرأة الجالسة هناك تمنع في الهرم وتزداد فقداً
لشكلها أمام ناظره .

لكنه أراد أن يقفز واقفاً، أن يقول لها، لقد كنت مريضاً وقد وجدت حينذاك،
حينذاك فقط، كم أعاني الوحدة . هل فات الوقت ؟ ان قلبي يقيم صراعاً في داخلي،
وقد تكونين سمعته ، يحتج على الخواء ينبغي له أن يكون ممثلئاً سيتابع قوله
لها بسرعة - وهو يفكر بقلبه الان كبحيرة عميقة ، يجب أن تحتوي على الحب مثل
القلوب الاخرى . يجب أن يفمرها الحب . سيأتي يوم دافئ من أيام الربيع . . .
تعالني قفي في قلبي ، أيما كنت ، وسيغطي نهر بأكمله قدميك ويرتفع الى الاعلى
ويغمر ركبتيك في دوامات ، ويجرك الى ذاته ، جسمك بأكمله ، قلبك أيضا .

لكنه حرك يدا مرتعشة أمام عينيه ، ونظر الى المرأة القابعة الهادئة في
الطرف الآخر من الغرفة . كانت ساكنة مثل تمثال . شعر بالخجل والانهاك من
فكرة أنه كان من الممكن ، في دقيقة واحدة أخرى ، أن يكون قد حاول بكلمات
وعناقات بسيطة أن يفشي شيئاً غريباً - شيئاً بدا دائماً أنه فاته ثتوه

لمس نور الشمس أبعد قدر على الموقد ، كان الوقت بعد العصر . في مثل هذا
الوقت غداً سيكون على طريق معبد جيد، يسوق سيارته مجتازاً أشياء تحدث للناس
الاخرين ، أسرع من حدوثها . برؤيته المسبقة ليوم الغد ، شعر بالسرور ، وأدرك

أن هذا لم يكن الوقت المناسب لعناق امرأة عجوز ، كان باستطاعته أن يشعر في صدغيه النابضين استعداد دمه للحركة وللإسراع في الابتعاد .

قالت المرأة : « سيكون سني قد ربطت سيارتك الآن . سيخرجها من الوادي خلال فترة قصيرة . »

« عظيم ! » صاح بحماسة المعتاد .

ومع ذلك بدأ الوقت الذي أمضياه في الانتظار طويلاً . بدأ الظلام يخيم . كان بومن متشنجاً في كرسيه . ينبغي لكل إنسان أن يكون لديه ادراك كاف لان ينهض ويتمشى هنا وهناك أثناء الانتظار . كان هناك شيء يشبه الذنب في مثل هذا السكون والصمت .

لكنه بدلاً من أن ينهض أصفى... أصفى باضطراب، وتنفسه مكتوم وعيناه عاجزتان في الظلمة المتزايدة ، يتوقع صوتاً محذراً، وقد نسي في حذره ما سيكون هذا الصوت . قبل مضي زمن طويل سمع شيئاً - خافتاً ، مستمراً ، يثير الشك .

سأل : « ما هذا الصوت ؟ » وقفز صوته الى الظلمة . ثم شعر بخوف شديد من أن يكون قلبه يخفق بوضوح زائد في الغرفة الهادئة ، وأن تخبره بذلك .

قالت متذمرة : « ربما كنت تسمع الجدول . »

كان صوتها أكثر قرباً منه . كانت واقفة الى جانب الطاولة . تساءل عن سبب عدم اضاءتها للمصباح . لقد وقفت هناك في الظلمة ولم تشعله .

لن يحدث بومن الآن أبداً ، فقد فات الوقت . أخذ يفكر . : سأنام في الظلمة ، وفي حيرته أشفق على نفسه .

تابعت حركتها بثقل الى النافذة . ارتفع ذراعها ، أبيض على نحو غير واضح ، باستقامة من جانبها المتليم وأشارت الى العتبة في الخارج .

قالت تحدث نفسها : « تلك النقطة البيضاء هي سني » .

التفت رغم ارادته ونظر من فوق كتفها ؛ تردد في أن ينهض ويقف الى جانبها .
بحث عيناه في الهواء المعتم . سبحت النقطة البيضاء برشاقة نحو اصبعها ، مثل
ورقة شجر في نهر ، وبياضها يزداد في العتمة . كان الأمر كما لو أنها أرتهه شيئاً
سرياً ، جزءاً من حياتها ، لكنها لم تقدم أي تفسير . أشاح ببصره . أثار الأمر
الى حد الدموع تقريباً ، وهو يشعر دون سبب أنها قد أدلت بتصريح صامت يعادل
تصريحه . انتظرت يده فوق صدره .

ثم هزت خطوة الغرفة ، وصار سني داخل الغرفة . شعر بومن كيف تركته
المرأة هناك ومضت الى جانب الرجل الاخر .

قال صوت سني في العتمة : « لقد قمت باخراج سيارتك أيها السيد . انها
واقفة تنتظر على الطريق ، وقد استدارت لتعود من حيث أتت » .

« عظيم ! » قال بومن ، وهو يدفع صوته كي يصبح عالياً . « انني بالتأكيد
كثير الامتنان - لم أكن لأستطيع فعل ذلك بنفسني - لقد كنت مريضاً »

قال سني : « استطعت فعل ذلك بسهولة » .

استطاع بومن أن يشعر بهما كليهما ينتظران في الظلام ، واستطاع أن يسمع
الكليين يلهثان في الباحة الخارجية ، ينتظران كي ينبحا حين يحين وقت ذهابه .
شعر بالعجز والامتعاض بصورة غريبة . الان وقد صار بإمكانه أن يذهب ، تاق
لأن يبقى . مم كان يتعرض الآن للحرمان ؟ اهتز صدره بقسوة بفعل عنف قلبه .
كان هنا شيء عزيز على هذين الشخصين لم يتمكن من رؤيته ، كانت هناك مؤامرة
ما بين الاثنين . فكر بالطريقة التي ابتعدت فيها عنه وذهبت الى سني ، لقد
انسابت نحوه . ارتجف من البرد ، كان تعباً ، ولم يكن الأمر عادلاً . بذلة ولكن
بغضب أدخل يده في جيبه .

« بالطبع سوف أدفع لك عن كل شيء - »

« اننا لا نأخذ نقودا عن شيء كهذا ، » قال صوت سني بعداء .

« أريد أن أدفع . ولكن إفعلا شيئاً آخر دعاني أبقى - الليلة »
خطا خطوة أخرى نحوهما . لو أنهما فقط يستطيعان رؤيته ، لأدركا صدقه ،
حقيقة حاجته ! تابع صوته القول : « لم أستعد قوتي بعد ، وليس بإمكانني أن
أمشي مسافة كبيرة ، حتى أعود الى سيارتي ، ربما ، لست أدري - لست أدري
أين أنا بالضبط - »

توقف . شعر أنه قد ينفجر باكياً . ما الذي سيظنانه به !

أقبل سني ووضع يديه على بومن . واستطاع أن يحس بعيني سني تنظران
اليه في الظلام . . .

« أنت لست محصلا جئت تتسلل هنا ، أيها السيد ، ألا تحمل مسدسا ؟ »
الى نهاية اللامكان هذه ! ومع ذلك فقد جاء هو . أجاب جواباً رصيناً : « كلا . »
« بإمكانك البقاء . »

قالت المرأة : « سني سيكون عليك أن تستعير شعلة من النار . »

« سأتي بها من عند ردموند ، » قال سني .

« ماذا ؟ » أجهد بومن أذنيه ليسمع كلامهما .

قالت :

« لقد نفذت نارنا وعلى سني أن يستعير شعلة ، بسبب الظلمة والبرد . »

« ولكن الكبريت - معي كبريت . »

قالت بكبرياء .: « ليست لدينا حاجة به . سيحضر سني شعلته الخاصة . »

قال سني بلهجة تنبيء عن الأهمية : « انني ذاهب الى ردموند ، » وخرج .

بعد أن انتظرا فترة ، تطلع بومن من النافذة ورأى نورا يتحرك فوق الهضبة .
مدد النور نفسه مثل مروحة صغيرة . تحرك بخط متكسر فوق الحقل ، مندفعاً

وسريعاً ، بشكل لا يشبه طريقة سني على الاطلاق . . . ثم سرعان ما دخل سني مترنحاً ، يحمل بملقط قضيباً مشتعلًا وراءه ، والنار تتدفق في أثره ، تضيء أرجاء الغرفة .

قالت المرأة وهي تأخذ الشعلة : « سنشعل ناراً الآن . »

بعد أن فعلت ذلك أشعلت المصباح . أظهر النور جزءاً المظلم وجزءاً المضيء . انقلبت الغرفة بأسرها الى لون أصفر ذهبي مثل زهرة من نوع ما ، وصدرت رائحتها من الجدران التي بدت وكأنها ترتعش مع اندفاع انوار الهاديء ومع تموج فتيلة المصباح المشتعلة داخل قمع النور الذي يحتويها .

تحركت المرأة بين القدور الحديدية . وضعت بالملقط فحماً مشتعلًا فوق الاغطية الحديدية ، التي أصدرت سلسلة من الاهتزازات الخافتة . مثل صوت جرس قادم من بعيد .

ورفعت بصرها الى بومن ، ولكنه لم يستطع أن يستجيب . كان يرتعش . .

« هل تريد أن تشرب أيها السيد » سأل سني . كان قد أحضر كرسيًا من الغرفة الأخرى وجلس منفرج الساقين عليه ويداه مشتبكتان فوق ظهر الكرسي . فكر بومن : الآن كل واحد منا يستطيع رؤية الآخر وصاح : « نعم يا سيدي ، بالتأكيد ، شكرًا ! »

قال سني : « اتبعني وافعل تمامًا مثلما أفعل »

كانت رحلة أخرى في الظلمة . اجتازا الممر وخرجا الى خلف المنزل مارين بكوخ وبئر مغطى . وصلا الى برية من الشجيرات .

قال سني : « على ركبتيك . »

« ماذا ؟ » وتصيب العرق على جبينه .

فهم المقصود حين بدأ سني يزحف عبر ما يشبه نفقاً صنعته الشجيرات فوق الارض . تبعه ، وأجفل رغما عنه لدى كل لمسة غصن أو شوكة .

توقف سني عن الزحف وبدأ وهو قابع على ركبتيه يحفر التراب بكلتا يديه .
 بنجل أشعل بومن عود كبريت للحصول على النور . بعد بضعة دقائق أخرج سني
 جرة . صب بعض الويسكي في زجاجة أخرجها من جيب معطفه ، وأعاد دفن
 الجرة . « لا يعرف المرء أبداً من يُحتمل أن يطرق بابه ، » قال وضحك . « لنبدأ
 العودة ، » قال بصورة تكاد تكون رسمية . « لا حاجة بنا أن نشرب في الخارج ،
 مثل الخنازير . »

على الطاولة قرب النار ، جلس سني وبومن متواجهين على كرسييهما يتناولان
 الشراب من الزجاجة ، يمررها كل منهما للأخر فوق الطاولة . نام الكلبان ؛ كان
 أحدهما يرى حلماً .

قال بومن : « هذا شراب جيد . هذا ما كنت بحاجة له . » شعر وكأنه
 يشرب النار من الموقد .

قالت المرأة بفخر هادئ : « هو الذي يصنعه . »

كانت تدفع الفحم ، وروائح خبز الذرة والقهوة ، تملأ أرجاء الغرفة .
 وضعت كل شيء على المائدة أمام الرجلين ، مع سكين ذات قبضة عظمية مغروسة في
 إحدى حبات البطاطا ، تشطر لبها الذهبي . ثم وقفت دقيقة تنظر اليهما ، وهي
 تنتصب طويلة إلى جانبيهما حيث يجلسان . انحنت نحوهما قليلاً .

قالت : « تستطيعان الآن أن تأكلا ، » وابتسمت فجأة .

صدف أن بومن كان قبل لحظة قد أخذ ينظر إليها . أعاد فنجانها إلى الطاولة
 في احتجاج غير مصدق . وشعر بألم يكبس عينيه . لقد رأى أنها لم تكن عجوزاً .
 كانت صبية ، لا تزال صبية ، لا تزال صبية . لم يستطع أن يفكر بعدد السنين
 الذي يناسبها . كانت في نفس عمر سني ، وكانت زوجته . وقفت وزاوية الغرفة
 البعيدة المعتمة ورائها ، والضوء الأصفر المتبدل ينتشر فوق رأسها وثوبها العديم
 الشكل ، ويرتجف فوق جسمها الطويل حين انحني فوقهما في تصريره المفاجيء .

كانت صبية • أسنانها لامعة وعيناها براقه • استدارت ومشت ببطء وثقل الى خارج الغرفة ، وسمعتها تجلس على السرير ثم تضطجع •

قال سني وهو يضع لقمة داخل فمه : « انها على وشك أن تضع طفلا • »

لم يستطع بومن أن يتكلم • شعر بصدمة لمعرفته حقيقة ما ينطوي عليه هذا المنزل • زواج ، زواج مثمر • ذاك الشيء البسيط • بإمكان أي أمرئ الحصول على ذلك •

شعر على نحو ما أنه غير قادر على الشعور بالسخط أو الاحتجاج ، رغم أن لعبة من نوع ما قد لُعبت عليه بالتأكيد • لم يكن هناك أي شيء بعيد أو غامض هنا - بل مجرد شيء خاص • السر الوحيد كان التفاهم القديم بين شخصين • لكن تذكر انتظار المرأة الصامت قرب الموقد البارد • وعناد الرجل في ذهابه مسافة ميل للحصول على النار ، وكيف أخرجها أخيراً طعامهما وشرابهما وملاً الغرفة بفخر بكل ما لديهما •

قال سني : لستَ جائعاً بقدر ما يبدو عليك • »

خرجت المرأة من غرفة النوم حالما انتهى الرجلان ، وأكلت عشاءها بينما كان زوجها يحرق بسلام في النار •

ثم أخرجها الكلبين وأعطياهما الطعام المتبقي •

قال بومن : « أعتقد أنه من الافضل أن أنام هنا الى جانب النار • »

شعر أنه قد خُذع ، وأن بإمكانه الآن أن يكون كريماً • على الرغم من مرضه ، لم ينو أن يطلب منهما التخلي عن سريرهما • لقد طلب من المعروف في هذا المنزل ما يكفي ، ولن يطلب شيئاً جديداً الآن بعد أن فهم حقيقة الامر •

« كما تريد ، أيها السيد • »

لكنه لم يكن قد عرف بعد مدى بطئه في الفهم • فهم لم ينوياً اعطائه سريرهما • بعد فترة قصيرة نهضاً وبعد أن نظروا اليه برصانة ذهباً الى الغرفة الاخرى •

استلقى متمددا قرب النار • الى أن بدأت تخمد • راقب كل لسان من السنة اللهب ينهي احتراقه ويختفي • وجد نفسه يكرر بهدوء ، « ستكون هناك أسعار خاصة مخفضة على جميع الاحذية خلال شهر كانون الثاني ، » ثم استلقى وشفته مغلقتان باحكام •

كم ثمة من أصوات في الليل ! سمع الجدول يجري ، والنار تخمد ، وكان متأكدا الآن أنه يسمع قلبه يدق أيضا ، أي يسمع الصوت الذي يصدره تحت أضلاعه • سمع التنفس المتناوب والعميق للرجل وزوجته في الغرفة الواقعة على الطرف الآخر من المر • وكان هذا كل شيء • لكن الانفعال جاش بصبر في داخله ، وتمنى لو أن الطفل يكون طفله •

لا بد له أن يعود الى حيث كان من قبل • وقف بضعف أمام الجمر وارتدى معطفه • شعر به شديد الثقل فوق كتفيه • حين انطلق ليخرج نظر ورأى أن المرأة لم تكمل قط تنظيف المصباح • تحت تأثير حافظ ما وضع جميع النقود الموجودة في محفظته تحت قاعدته الزجاجية المحززة ، بشعور من أتى عملاً يدعو للفخر •

وبخجل حمل حقيبته وخرج بعد أن هز كتفيه قليلاً ثم ارتجف • بدت برودة الجو وكأنها ترقى به جسمياً • كان القمر يشع في السماء •

عند المنحدر بدأ يركض ، دون أن يستطيع التحكم بنفسه • وتاماً حين وصل الى الطريق ، حيث بدت سيارته جالسة في ضوء القمر مثل قارب ، بدأ قلبه يصدر انفجارات هائلة وكأنه بندقية •

غطس خائفاً في الطريق وسقطت حقيبته حوله • شعر كأن كل هذا قد حدث من قبل • غطى قلبه بكلتا يديه ليمنع أي انسان من سماع الضجة التي أحدثها •

لكن لم يسمعها أحد •



مسرحيات

حصان في مجلس الشيوخ حبّة القريب

بقلم: ليونيد اندريف
ترجمة: شريف شاکر

حصان في مجلس الشيوخ

(مسرحية من فصل واحد)

« كاليغولا ! حصانك لم يسطع في مجلس الشيوخ ، رغم
أنه كان يشع بالذهب : وانما تسطع الأعمال الطيبة »
« ديرجافين »

اجتماع في مجلس الشيوخ •• كل شيء يبدو ضخماً ، وهائلاً ، ما عدا
الناس • يتوافد أعضاء المجلس الى اجتماع اليوم المهيب ببطء وعظمة ، جارين
أرجلهم بصعوبة من فرط الأهمية • ويحيط بأهم الأعضاء وأكبرهم سناً حشد
هائل من الحشم والعبيد والمعتقين • أما الاغلبية فهي من المتملقين الذين راحوا
يطلون من كل مكان ، ويتمسحون بأنصاف الاعضاء ذوي الوجوه الصارمة والقنابيز
ذات الدوائر الصغيرة •

الشمس ساطعة ، والطقس رائع •

أحد أعضاء مجلس الشيوخ من ذوي المكانة يحيي شخصاً آخر مثله ذا
مكانة أيضاً •

- السلام عليك ، أيها الموقر يوبلي •
- وعليك السلام ، يا سيبتسون ، يا أعظم مواطن في روما وزينة مجلس الشيوخ •
- ينحني كل للآخر • ويفترقان مائلين الى الوراء من فرط الاهمية أحد المتملقين يهجس في اذن أحد الاعضاء •
- تعساً لزمان يكون فيه لهذا المحتال ، مثل هذه الحاشية !
- متملق ثان يهمس في اذن عضو آخر •
- ويكون لمثل هذا المختلس ، والشهير المتعفف ، مثل هذه الحاشية !
- يهز كل واحد منهما رأسه في يأس ، معبراً عن غمه الوطني •
- بعض الاعضاء الشبان نوعاً ما يتبادلون التحية ، ويجتمعون في حلقة •
- الأول** : مرحباً ، يا كلاودي •
- الثاني** : أهلاً ، يا مارك •
- الثالث** : ما بك يا مارك؟ لم يكن وجهك مبسوطاً البارحة ولا حتى لنصف ما هو عليه اليوم ؟
- مارك** : أيقظوني بصعوبة (يسعل مع حشرجة) ما السخافة التي استدعونا من أجلها ؟ إن رأسي يتحطم من الألم •
- الرابع** : اهدأ ! ••
- الثاني** : هناك أمر عظيم الاهمية • هذا ما قاله لبي الرسول • ان القيصر •••
- الرابع** : اهدأ ! ما شأنك هنا ؟
- نصف العضو** : أنا ؟ أبداً ، بالمرّة • هذا شيء غريب بحق • اني ببساطة •• لا شيء ؟ •
- مارك** : (مهدداً) لا شيء ؟ •
- نصف العضو** : يا لها من أقواس ، ويا لها من أعمدة ! وأية بوابة ! انها ليست مجرد بوابة بل •••
- الرابع** : وهل تفحصت كل شيء ؟

- نصف العضو :** (بسرعة) شكرا ، كل شيء (يبتعد) آه .. يا له من فن معماري رائع ! •
- مارك :** (يتهدج صوته) حرفة حقيرة ! سأقبض عليه ، بطريقة ما ، عند الكابيتول (١) •••
- خامس :** (بانفعال) أما سمعتم ؟ •
- أصوات :** ماذا ؟
- ما الأمر ؟
- تكلم يا أغريبا !
- أغريبا :** اني ، ببساطة ، لا أفهم شيئاً • بلوتون وحده يعلم الى أين ستؤدي بنا الامور ، يريدون أن يقصروا ثوبنا (٢) •
- الرابع :** مستحيل ! أن يقصروا ؟ ••
- أغريبا :** أجل ، لمرفق كامل ، أو لاثنين ، وباختصار : الى أعلى من الركبة • هل تتصورون ؟ •
- يشده الجميع
- مارك :** (متنهداً) شيء جميل !
- أغريبا :** ويريدون أن نصوت بانفسنا على هذا الامر ، أتتصورون ذلك !
- مارك :** (متنهداً) جميل ، ولا يمكنك أن تفعل شيئاً – سيقصون •
- الرابع :** لن يقصوا !
- مارك :** سوف يقصون ، وأنت محترم •
- أغريبا :** لا ، لن نسمح بذلك ، نحن مواطنون أحرار ، ولسنا عبيداً •

(١) الكابيتول : قلعة ومعبد في روما القديمة •

(٢) الثوب (توغا) ثياب النصف الاعلى للناس في روما القديمة ، وهي عبارة عن قطعة من المادة الصوفية على شكل قطع ناقص ، أحد أطرافها يتدلى من الكتف اليسرى الى الامام ، أمام القسم الرئيسي فيغطي الظهر ويمر عادة من تحت اليد اليمنى ويلقى على الكتف اليسرى مغطياً بهذه الصورة لقسم الامامي من الجسم • والتوغا العادية هي بيضاء اللون • أما توغا أعضاء المجلس البلدي فتكون ذات حواشي حمراء •

- الثاني** : لن يجرؤ أحد على مس عضو مجلس الشيوخ الروماني !
- أغريبيا** : وان أصروا على القص ، فليقصوا مع الثوب ساقي ٠٠ ان كان جدي موتسي ستيسفولا (٣) قد استطاع أن يضحى بيده ، فأنا ٠٠٠
- مارك** : لن يضيرك هذا في شيء يا أغريبيا . ان قدمك كلها بالمسامير ، بل سيكون الامر أفضل بالنسبة لك ، أما أنا ٠٠٠
- الثالث** : انك تشرب الخمر ، وتستلقي أكثر مما تمشي يا مارك ، أما بالنسبة لي . فما جدوى ذلك ؟
- « يتجهم الجميع ، ويفرقون في التفكير . يلتقي اثنان من الاعضاء الكبار ، يرافقهما حشد كبير من الحشم ، ويتبادلان التحية . »
- مارك** : لا ، كيف يصح دون أرجل ! لا أريد أن أكون بلا أرجل ! (يتجه الى العضو الكبير) السلام عليك يا تيت العظيم ! هل سمعت شيئاً ما عن ارادة القيصر ، و ٠٠٠
- تيت** : أجل ، لقد سمعت . السلام عليكم . لقد كنت البارحة في حضرة القيصر ٠٠٠ يا لضياء عقله ، وكبر رأسه !
- الجميع** : أوه ، طبعاً ، رأس !
- العضو الكبير الثاني** : (حاسداً الاول) وأنا أيضاً كنت عند القيصر . لقد استدعاني اليه . يا له من خمر ! لقد قدمه الي خمسة من العبيد ، انكم لا تتصورون كم كنت ثملاً آنذاك !
- تيت** : أما أنا ، فقد قدم لي الخمر ستة من العبيد ، والحق ، لا أستطيع أن أفهم (الى مارك) كم من العبيد يحملونك عادة الى البيت عندما تكون ثملاً ؟ .

(٣) موتسي ستيسفولاهاي : شاب روماني تسلل الى معسكر العدو الاثيوسي الذي حاصر روما عام ٥٠٨ ق م . ليقتل قيصرهم بيرسين . الا أنه اخطأ وقتل أحد المقربين من القيصر ، وبعد أن اعتقل ، عبّر موتسي عن احتقاره للعدو بوضع يده اليمنى على نار المذبح . وتقول الاسطورة أن بيرسين وقد أعجب بثبات الشاب ورجولته أطلق سراحه ، ورفع الحصار عن روما .

- مارك :** (على غير ارادة منه) اثنا عشر • ولكن قل لي من فضلك يا تيت ،
ألم تسمع أن قيصرنا العظيم ، كاليغولا المبجل ، قد عبر عن
رغبته في تقصير ثوبنا ؟
- تيت :** ثوبنا ؟
- العضو الكبير الثاني :** ان يقصر ؟
- يضحك كلاهما ببطء
- تيت :** وما شأن كاليغولا بثوبنا ؟
- العضو الكبير الثاني :** يا للسخافة !
- أغريبيا :** ولكن لماذا يعقد هذا الاجتماع الكبير اذن ؟ لقد قيل لي : حتى ان
الرسول قد بعث في طلب من يعيش في فيلات ألبا خارج المدينة •
انظر كم من الحشد قد وصل الى الاجتماع لقد انتابنا القلق
الى حد ...
- تيت :** سخافة ! ان القيصر يريد أن يقيم عدداً من الاحتفالات الكبيرة ••
« حركة مرحة وهتافات »
- أجل ألا تصدقون ؟ انه بحاجة الى المال •
(يضحك ، ويمسح دموعه بأصابعه الجافة)
- أغريبيا :** (بسعادة) اذا كان الامر يتعلق بالديون ، فهذا أمر آخر •
- الجميع :** طبعاً ، هذا أمر آخر •
- مارك :** ليقم من الاحتفالات ما يشاء ، المهم أن تبقى الارجل •
- الرابع :** التاريخ نفسه قد اعترف بالخبز والفرح •• وعلى وجه العموم
هذا مبدأ •• أو باختصار « تائهاً في كلامه » حتى إنني لا أفهم
ماذا في الامر ••• اهدأ !
- نصف العضو الثاني :** لا ، لا شيء ، لقد خيل الي أن ثمة نكتة تحكى هنا ، وأنا هل
تتصور ، أحب الدهن ، ها ، ها ، شيء غير لائق •
- تيت :** أهذا أنت يا شاطر ! أهلاً ، أهلاً ، ما الذي يمنعك من زيارتي؟
حبذا لو جلسنا معاً ، وثرثرنا •••

نصف العضو : لم تسنح لي الفرصة أبداً أيها الطيب الموقر ، فلاشغال كثيرة تدير الرأس ..

تيت : (الحاشية تنحني قليلا باحترام)

نصف العضو : سأعتبر هذا واجباً عليّ أيها الطبيب . لديّ بعض الأخبار ان .. (منعنيا) ألم تسمع شيئاً عن سبب اجتماع اليوم ؟ ان أغريبا يقتفي أثري منذ فترة طويلة .

تيت : يا لك من غبي ، ما دمت هنا ، فعن أي شيء يمكن أن يكون الاجتماع ؟! لنذهب ! البارحة سألني القيصر ...

(يخرجان ، وتعود البقية الى مكانها)

مارك : أخافونا سدى ! انك شخص غير هادىء يا أغريبا .
الثاني : شيء رائع أن تقام الاحتفالات ! ان عامة الشعب قلقة بعض

الشيء حتى أن عبيدي البارحة أدخلوا لي الطريق بالعصي .
أغريبا : أنا نفسي ، يا أخي ، سعيد .. الهدوء . مارتسيل قادم .
أصوات : مارتسيل !

— استدعوه أيضاً !

— لا .. انه امر خطير بالتأكيد .

مارك : اني أخافه ، فقد يقول لي فجأة : انك لثيم يا مارك .. فماذا أجيبه ، هذه هي الحقيقة .

أغريبا : لم يبق لهؤلاء الا القليل ..

الجميع يحيون مارتسيل باحترام . يتوقف .

مارتسيل : مرحباً يا أصدقائي ، هل تعرفون لماذا استدعوننا اليوم ؟ ان روما بأسرها تلهج باجتماع اليوم . أهي حرب جديدة مع

غاليا (٤) ؟

أغريبا : حيث نلت ذات مرة أكاليل النصر أيها العظيم مارتسيل - أوه ،
لا ! يقولون انه ستقام احتفالات كبيرة ، ويحتاج الامر للمال .
مارتسيل : آ !

عضو أصم ونصف أعمى : اني دائما أصوت بنعم . آ ؟ ماذا ؟ بالطبع ، مادمت
أصم فكيف يمكنني أن أصوت بلا ؟ ماذا تقول ؟ قل ما تشاء
فاني لا أسمع على كل حال . أهذا أنت يا مارتسيل ؟ اني لا أرى
جيذا . لقدكنا معا في غاليا ، هل تذكر ؟ أنا أنطوني ! .
مارتسيل : أنا مارتسيل ، أما أنت فلم تعد أنطوني . (يخرج)

الأصم : ما به ؟ (بالناقص) ! قل ما تشاء ، فأنا لا أسمع على كل حال .
سأذهب أتكلم مع الآخرين (يبتعد مع الضحك العام . ويدخل في
حديث آخر) .

(يتفرق جميع أعضاء مجلس الشيوخ تقريبا الى مجموعات .
يقترب الى مجموعتنا أحد الاعضاء ، انه مستدير كالكرة ،
ويلوح بيديه ، غير قادر على الكلام ، ويكاد يختنق .

أغريبا : ما بك ، يا منيني ؟

مارك : ما بك ؟ آه ، عد الى وعيك .

منيني : (يسترد أنفاسه) آه ، آها ، آها . . .

الرابع : هيا ، تكلم .

منيني : أيها الشيوخ . . . أوه . . .

يقترب آخرون

أصوات : ماذا يحدث هنا ؟

— استمعوا ، استمعوا !

— هيا ، تكلم يا منيني . هل مات أحد ؟

— لا أحد .

منيني : القيصر .. القيصر .. جلالة القيصر ، أوه ! سوف يعين
الاحمر عضوا ؟ *

أوه ! الاحمر (يبكي) *

مارك : أي احمر ؟ أقسم انه سكران *

منيني : لا *

مارك : ولماذا تبكي اذن ؟ هيا انطق *

أغريبا : أي احمر ؟ مم أنت خائف ؟ وهل يعوزنا أعضاء ...

الثالث : ولكن ، من عندنا من الاحمر ؟ ستسبيون : واحد *

الثاني : كاميل : اثنان * غليفيري : ثلاثة *

منيني : (يلوح) بيده) لا ، أبدأ ، الحصان !

الجميع : أي حصان ؟ ما الذي تقوله ؟

منيني : لقد عين القيصر حصانه ، أتعرفون فحله الاحمر ؟

أصوات : نعرف !

– نعرف !

– نعرف ، وماذا ؟ تكلم !

منيني : (بمأسوية) عينه القيصر عضوا ! أوه *

(يسود الصمت ، ثم ينفجر بعد ذلك ضحك شامل *

يقترّب آخرون جدد ، وبعد أن يعلموا ما الامر ينفجرون أيضا

بالضحك * يلوح منيني بيديه ، دون أن يلقي اليه أحد

بالأ) *

أصوات . نطق أخيرا * الفعل عضوا !

– ها ، ها ، ها

– من قال هذا ؟

– منيني ، ها ، ها ، ها !

(يهدأ الضحك أخيرا)

- مينيسي :** (يصرخ) حمير ! أغبياء ، مغفلون ! ما الذي يضحككم ؟ اني أقول الحقيقة : لقد عيّن ، عيّن ، وسيحضرونه اليوم .
(يرتفع الضحك ثانية)
- أجل ، سيحضرونه الى هنا ، وعلينا أن نحبيه ، وهذا هو الخطاب الذي كلفت بقراءته . (يُرِي صرة الخطاب ، ويبكي) وما هما القنصلان ، انهما يعرفان كل شيء ، اسألوهما ، يا مغفلون ! يصمت بعضهم نتيجة سوء الفهم ، وينفجر آخرون بالضحك ، إلا أن كثيراً منهم كان قد تحول الى الجد . يقترب القنصلان . ثيابهما أنيقة ، تبدو عليهما سمات الاهمية واللطافة) .
- القنصل الأول :** الحالة رائعة ! ومطمئنة جدا . انه ليوم ساحر ، اليس كذلك ؟
- القنصل الثاني :** الطقس الرائع ! والطيور . العزة لجوبيتر ، ان القيصر اليوم في حالة رائعة ، ولقد أمر أن أتقدم بالشكر لكم . أعتقد أننا سوف نبدأ بعد قليل !
- أغريبيا :** (متلعثماً) وهل هذا صحيح ؟
- القنصلان معا :** (بلطف) ماذا تقصد ، أيها الرفيق العزيز ؟
- مارك :** (متنهداً) فيما يتعلق بالأحمر . لا بد أن منيني قد كذب علينا ؟ (يتصنع القنصلان سحنة راضية يشوبها بعض الحزن : فهي من جهة حزينة ، وتشع بالسعادة القصيرة من جهة ثانية) .
- القنصل الأول :** آه ، لقد سمعتم اذن ؟ أجل ، أجل ، طبعاً ، أستطيع أن أهنئكم جميعاً بهذه السعادة أيها السادة . لقد منّ علينا القيصر بحصانه ، واليوم يمكننا أن نستقبل بين ظهرانينا - كما يقال - عضواً جديداً . . .
- نصف العضو :** (يحك رأسه) عضواً !
- القنصل :** آه ، أجل ، أشكرك ، عضواً بالطبع ، انساناً يستحق ، أوبالأصح . . .
- القنصل الثاني :** (همساً) حيواناً .

- القنصل :** أجل ، أجل ، حيواناً أيها السادة ، ولكن ، أسنا جميعاً حيوانات ؟ كلنا حيوانات • وإذا كان لكل واحد منا اثنتان من الارجل ، أقصد أنه للبعض رجل واحدة ، فلماذا لا تكون أربع أرجل أيضاً ؟
- القنصل الثاني :** وفي التوصية لم يذكر شيئاً بصدد كمية الارجل • وإذا كان قد عيّن الفح ••• الفح •••
- سارك :** (متجهماً) الفحل ، أنطقها حتى النهاية ! أوه جوبيتر ، جوبيتر !
- القنصل الأول :** ان ماضيه العريق معروف لدينا جميعاً ، فهو في العام الماضي قد حاز جائزة في الميدان ••• وعلى وجه العموم علينا أن نفتخر ، وأن نرحب •••
- القنصل الثاني :** وإذا كانت توجد ثمة اعتراضات في التوصية ، فهي ما يتعلق بالعمر ، إذ ان لرفيقنا الجديد ، الموقر ، ست سنوات فقط •
- القنصل الأول :** هنا أسمح لنفسي ألا أتفق مع زميلي المحترم ذلك انه بالنسبة للمخلوقات ذات الارجل الاربع ، يقاس العمر على نحو مختلف ، بعض الشيء • بالنسبة للمخلوقات ذات الارجل الاربع ، يبدأ النضج الفكري الكامل •••
- أغريبيا :** اني أعترض !
- (هتافات السخط والاحتجاج العام)
- اصوات :** ونحن !
– ونحن أيضاً !
- أغريبيا :** لم يسبق أن حدث مثل هذا في تاريخ روما !
- اصوات :** لم يسبق !
– ليسقط الفحل !
– ليسقط الاحمر !
- أغريبيا :** (ملهما) لقد عيّنوا لنا مختلف الاشقياء ، ولم نتكلم ، بل

وافقنا ، ولكن كان لديهم ، على أقل تقدير ، اثنتان من الأرجل ،
وليس أربع أرجل •

أصوات : هذا صحيح !

– لا يسمح بأربع أرجل !

أغريبيا : لقد ضموا الينا اللصوص ، وعشاق القيصر •••

مارك : (يمسكه من يده) هل فقدت صوابك !

(تخفت كل الهتافات • صمت)

نصف العضو : (يهمس) لقد قال : وعشاق القيصر •

القنصل الأول : على أي حال ، هذه ارادة كاليغولا • فاذا كانت

لا تعجبك ، فبوسعك أن تقول هذا له : سيكون هنا القيصر

بنفسه بعد دقائق ، ولسوف يسوق •••

نصف العضو : يدعون •

القنصل الأول : يدعون رفيقنا ، العضو الجديد الموقر • بقي علي أن أنوه بأن

القيصر يعول ، بشكل خاص ، على استقبالكم الحار والفرح

لرفيقتكم الجديد • ان القيصر يؤمن بعمق بأن شيمتكم المعهودة ،

يا آباء الوطن ، لن تخونكم في التعبير عن غبطتكم كاملة ،

وعرفانكم العظيم للرب أغسطوس بنعمته • وذلك ، طبعاً ، بعد

كلمة الترحيب التي عبر منيني عن رغبتة في قراءتها •

مينيسي : أوه !

القنصل الأول : آ ، أهذا أنت يا مارتسيل ! اني سعيد جدا برؤيتك •

وأنا كذلك ، هل تسوق الحصان بنفسك ؟

القنصل الأول : لا (بلهجة مسمومة) ولكنك سوف تلقي الكلمة الترحيبية

الثانية •• هذا ما أمر به القيصر • انه في غبطة من حديثك

المهذب سلفاً •

مارتسيل : (شاحباً) ولكني خطيب سيء ، إنني محارب •

القنصل الأول : لا يسعني الا أن أبلغ ما أمر به كاليغولا •

مارتسيل : قل للقيصر ...
القنصل الأول : (رافعا كلتا يديه) لا ، لا أيها المحارب الموقر ، اني لا أستطيع أن أقول شيئاً للقيصر (يبتسم بلطف) يمكنني فقط أن أكرر انه في غبطة من حديثك سلفاً * وهكذا أيها السادة ، أهنتكم *

(يخرج كلا القنصلين بمرافقة أفراد الشرطة ، والحاشية .
 يعتزل الجميع مارتسيل ، الذي شحب لونه جداً ، وأخذ يبتعد ببطء . صمت * بعد ذلك ترتفع صيحات السخط) *

— لم نسمع بشيء كهذا من قبل !

— ولا رأيت مثل هذا عين !

— سيهزأ بنا سواد الشعب ، لنطرد هذا الحصان !

صوت وحيد : يسقط كاليفولا !
 (يسود صمت مفاجيء ، وينظر الجميع حولهم ، واذا بمارك يجرّ واحداً من أنصاف الأعضاء الى الوسط ، قابضاً عليه من ياقته * ضحك) *

مارك : هذا هو * بماذا كنت تهتف آ ؟ من تريد أن تسقط ؟

نصف العضو : وهل أقوى على فعل شيء كهذا ؟ آه جوبيتر ! هل يعقل ...
الجميع : هيا ، انصرف !

(يركلون نصف العضو بالاقدام ، ويبتعد خلفه بقية أنصاف الاعضاء الذين ذعروا ، وأخذوا يسترقون السمع عن بعد ، جاهدين أن يتلقفوا أي شيء مما يحدث ، واليأس بادٍ في أعينهم * تصبح الحالة هنا أهدأ بعض الشيء *)

الثالث : علينا ألا نوافق ، تصوروا ماذا سوف يحدث : مكتوب على جميع اليوابات « مجلس الشيوخ والشعب الروماني » * وفجأة ثمة حصان ، فحل أحمر !

- هذا اسطبل ، وليس مجلسا للشيوخ •
 – مربوط للخيل •
- الرابع :** الهدوء أيها الشيوخ ! يجب أن نتشاور في الامر •• ها هو ذا تيت – لنسأله • تيت ، تيت !
 (يشق تيت الموقر طريقه في الزحام ، انه فقد الآن قدراً كبيراً من مكانته) •
- تيت :** لقد خرجت ، ولم أفهم ما الذي يجري هنا ، صياح ، وزعيق ، ما الذي حدث أيها الأصدقاء ، يقال أن ثمة حصاناً •• ؟
- مارك :** ليس ثمة حصان ، بل فحل القيصر • الاحمر ، هل تعرفه ؟
- تيت :** أعرفه ، وماذا !
- مارك :** وماذا ! لقد عيّن عضواً ، وسوف يجلس الى جانبك •
- (صرخات ، وضحك • ينهار تيت ويعود الى الورا
 ويفقد وعيه)
- أصوات :** من الانف ! دغدغوه من أنفه !
 – عليه بالماء •
 يعود تيت الى وعيه)
- تيت :** (بضعف) أهذا صحيح ؟ أوه جوبيتر !
- أصوات :** ما العمل يا تيت ؟
- أغريبسا :** أقترح : أن نتوجه الى الجمهور والجيش •••
- تيت :** هل جننت ! •• انتظروا ، دعوني أفكر (يفكر)
 (البقية تنظر اليه فاغرة الفم)
 وهكذا •••
- أصوات :** استمعوا ! استمعوا !
- تيت :** أقول بوصفي أقدم أعضاء مجلس الشيوخ : علينا ألا نخضع •
 (هتافات استحسان)

ان أغسطس ، على ما يبدو ، قد أخطأ • اذ كيف يمكنه أن يعين حصانه عضوا ؟ عند ذلك أكون أنا أيضا حصان ؟ (بسخرية مريرة) فحل ؟ على ما يبدو انه لم يُقدِّم تقريراً صحيحاً للقيصر ، وأن جلالته في سعيه لخير الشعب ، لم يحسب •••

صوت : كم عدد الارجل لدى الاحمر ؟

تيت : طبعا ، كمية الارجل ، وبوجه عام •• ولكنني أعتقد أن القضية هنا لا تتعلق بالارجل : القضية في رأيي أعمق من هذا ، وتحتاج الى أن نتوجه الى كاليغولا بعريضة نطلب فيها أن يلغى اختياره الخاطيء ، أو الأصح المتسرع •• غير اللائق •
(حاكا رأسه) حتى أنت ، يا تيت ؟

تيت : لتذهب الى بلوتون ! حتى أنت يا تيت ! ما الذي تقصده ؟ هيا انصرف (يغتفي نصف العضو على صرخات « هيا ، انصرف »)
وعلينا قبل كل شيء أن نشير لجلالته الى خدمتنا ، والى كفاءتنا التي تحذف ضرورة ضم أعضاء جدد من ••

صوت : من الحيوانات •

تيت : أجل ، من الحيوانات ألسنا نحن الذين وافقنا وسكتنا عندما نهب القيصر الشعب كله ، وبذّر الاموال في الاحتفالات الليلية ، وحفلات السخرية ؟ لقد سكتنا عندما أذاب الجواهر في الخل ، واحتسى ذلك الشراب الباهظ الثمن ، وقليل الفائدة •
نحن سكتنا أيضا عندما قذف بالمواطنين الرومان طعاماً لوحوشه في القفص • أنا نفسي ، أذكر اني بحثت في هذه القضية ، وتوصلت عندها الى اعتقاد أنه - فعلا - في حالة غلاء المدخرات يكون مثل هذا الطعام •••

أصوات : اختصر ! نعرف هذا !

تيت : لقد سكتنا عندما توجه في مسيرته الى بريطانيا وأخذ يكذب ويقول من هناك ، انه يحقق النصر ، في حين انه نفسه كان يجمع الأصداف عند الشاطئ ، لقد سكتنا أيضاً عندما أمر بقطع رؤوس الآخرين ليضع رأسه عوضاً عنها . وما دام الأمر على هذه الصورة ، لماذا اذن يوجه الينا مثل هذه الالهانة ؟ ما ذنبنا ؟ (يبكي) اني شيخ طاعن في السن ، وأب للوطن ، لا أقوى على تحمل أي حصان أحمر . . (يبكي) .

منيني : (يبكي) الاحم . . الاحمر . . .

تيت : (ينتحب) وهو قد ارتدى الثوب . . ارتدى الثوب . . يفعل فعلته في المكان الذي أجلس بجانبه تماما ، عقابا على أي شيء ؟ اني أسأل : ما هو ذنبنا ؟ ما هي جريمتنا ؟ ألسنا نحن الذين سكتنا ، عندما . .

أصوات : كفى !

– يجب أن نطالب

– ليس لنا أي ذنب

– يجب أن نطالب

– ليسقط الحصان اللعين !

أغريبا : اني أحتج ! يا أعضاء مجلس الشيوخ ثوبوا الى وعيكم !

الأصم : (يجمر كالمعجائز وأنا أصوت بنعم ، نعم ، نعم !

أغريبا : علينا ألا نرجو ، بل أن نطالب يا شيوخ الرومان ، اذا كنا مذنبين في شيء ، فليحددوا لنا عقاباً في المحكمة ، ولكن أن يكون الامر هكذا ! على حين غرة ، واذا بحصان . . ما هذا ؟ كثيرون هنا أشاروا الى اللون الاحمر للفحل في اعتقادي أن القضية ليست في اللون ، بل في أن ننهض جميعا ، وأن نخرج من هنا .

أصوات :

لنخرج .

- لنترك مجلس الشيوخ .

أغريبا :

(مصغياً الى نفسه) وعندما نغطي جميعاً رؤوسنا بالشوب ،
تعبيراً عن اليأس العابس ، وعن كبرياء عدم الخضوع للقدر ...
(تشأ حركة عند المدخل ، يظهر القنصلان ، وحرس
الامبراطور ، وأفراد الشرطة ، وهم يصرخون « الى أماكنكم !
الى أماكنكم ! أخلوا الطريق للامبراطور » .
(يتفرق الاعضاء الذين أحاطوا بأغريبا ، ويركضون بسرعة
الى أماكنهم) .

(غير منتبه) ومن سيبقى في المجلس عند ذلك ؟ من سيعقد
الاجتماعات ؟ الاحمر وحده . في هذا المكان حيث يرون
صاحب ال ..

حارس :

(دافعا اياه) افسح الطريق !

(يثوب أغريبا الى رثده ، ويهرع الى مكانه . حركة صاخبة
وضوضاء . الاعضاء القدامى ، وقد فقدوا صوابهم ، يتيهون
في أماكنهم ، وأماكن غيرهم ، ويأخذون بالنزاع . يمر كتاب
القلم ، وتبرز رؤوس أنصاف الاعضاء من جميع الزوايا
والشقوق لوضع بيان ذكي عن الاجتماع . ويرابط الحرس
عند منافذ الخروج . يظهر كاليغولا برفقة حشد من المنعمين
المقربين ، وذوي الرتب العالية من رجال الامن ، وآخرين من
ذوي الرتب الحربية الهامة . انه سكران . ويسنده من تحت
ابطه اثنان من الاصدقاء هما (بريسك) و (ديبون) . على
رأس القيصر أكليل من الذهب . عيناه صغيرتان منتفختان ،
ناعستان وثرستان . يسحب القيصر قدمه عابثا ويرسم بها
دوائر على الارض . الا أنه فجأة يدفع الصديقين ضاحكا ويدخل

بشيء من الثبات ، الشرفة القيصرية المرتفعة (تقع في الزاوية اليمنى من مقدمة المسرح) • وتحتل الحاشية مكانها الى جانبه • عندما يحتل كاليغولا مكانه ، يقف مجلس الشيوخ بكامله ويستقبله بعاصفة من التصفيق والهتاف • وتدوي زعقات « عاش القيصر ، عاش القيصر » • يتفحص كاليغولا الزاعقين دون أن ينحني ، ومن ثم يلوح بيديه : « كفى » يخفت الزعيق ، ويجلس الاعضاء ، ويفتح القنصل الاول الجلسة • «

القنصل الأول :

يا أعضاء مجلس الشيوخ الروماني ! ان القيصر بسعيه الدائم لخير الشعب الروماني ! وازدهار الجمهورية ، يتعطف ويأمر بتعيين عضو جديد في مجلس الشيوخ ، غير متردد ازاء التضحيات مهما ثقلت على قلبه العظيم • ان كاليغولا في صالح احتياجات الدولة ، يتنازل عن الفتح • • • حفا • • •

القنصل الثاني :

(هامسا) حصانه •

القنصل الأول :

عن حصانه • ولسوف يشرفنا هذا الاخير بزيارته من الآن فصاعداً بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ ، وأباً للوطن ونحن سعداء • • •

كاليغولا :

(بصوت عال) ماذا تهرف ؟ أوقفه يا بريسيك ، وقل له أنني سأركب الاحمر • ما الذي يختلقه هذا الاحمق !

بريسك :

(بكسل) اسمع ، أنت ! • • •

القنصل الأول :

أجل ، أعرف • وان عطف القيصر لعظيم بحيث انه لن يترك العضو الجديد ، بل انه يشمل سلفا برعايته ، وسيقوم عليه - كما يقال - بالتمارين • • •

القنصل الثاني :

وبناء على أحكام التوصية ، فان كل عضو في أوقات الفراغ يمكن أن يكون ذا نفع - أو كما يقال - (مكيفاً) بوجه عام • • •

- كاليغولا : (بصوت عال ، وبغضب) قل له ، متى أشياء !
القنصل الأول : (بعجلة) واذ أن خدمة القيصر هي أولى وظائف الدولة وأهمها ، بل وأكثرها قدسية من بين الواجبات ، فان العضو الجديد سيكون دائماً على أهبة الاستعداد للقيام بهذا الواجب . . .
أقصد التمارين . وأخيراً اني سعيد بتبليغ المجلس سرور الامبراطور من أنكم ، يا أعضاء مجلس الشيوخ ، بوعيكم للواجب الملقى على عاتقكم ، قد اجتمعتم بهذه السرعة في جلسة اليوم . أما الان فأرجو أن يسا . . . أن يحضر . . .
القنصل الثاني : أن يدعى .
القنصل الأول : أن يدعى الاح . . . العضو الموقر .
(الجميع ينظر بانفعال . عدد من الساسة يقودون الحصان الأحمر الشاهق ، الذي أخذ يخطو بقوة على الأرض الحجرية . الحصان رائع بالفعل ، انه مستثار بعض الشيء ، ويحوّل عينيه المتكبرتين السوداءوين في قلق . وقد ألقى على الحصان ثوب مجلس الشيوخ عوضاً عن الجلّة)
كاليغولا : (يدمدم بغبطة) يا له من حصان ! كم هو رائع يا بريسيك ؟
القنصل الأول : ما بكم يا شيوخ روما ؟ هيا حيوا الحصان . عاش الحصان ! ينهض الاعضاء ويحيون الحصان بصرخات عالية ، وبصوت واحد : « عاش ! » .
كاليغولا : (يبحث بعينين ناعستين) هل نهض الجميع يا بريسيك ؟
بريسيك : الجميع .
كاليغولا : (متنهدا) أنظر بشكل جيد ، قد يكون هناك من لم ينهض ؟
بريسيك : لقد نهض الجميع ، يا سيدي .
كاليغولا : هات الخمر (يرفع الخمر ، وينظر بغضب على الحشد)
(اجتمع حول العضو الجديد فئة من النبلاء المميزين ، الذين

- راحوا ، بابتسامة لطيفة ، يرتنون على ظهره ورقبته • يتهيج
الخصان) •
- بريسك : ألا يبدو لك أيها المعظم ، أن هؤلاء المعجبين الجدد يزعجون
الاحمر كثيرا ؟
- كاليغولا : آ ؟ (يصرخ) قل أن لا يلمسه أحد ! اطردهم ، اطردهم جميعاً •
- القنصل : القيصر يطلب أن لا يثقل على العضو باللطف الزائد •
- كاليغولا : اطردهم ، اطردهم •
- القنصل : (بعجلة) وأن يلزم بكل مكانه •
- (ينصرف) النبلاء الى أماكنهم ، وهم ينحنون ، ويبتسمون
تعبيراً عن فهمهم • يسود هدوء شامل • يتبادل الاعضاء أطراف
الحديث بصوت منخفض ويرتسم على وجوههم تعبير الولاء ،
حتى إن أحدهم يتشاءب بولاء أيضاً مظهراً أن كل شيء يجري
على ما يرام •)
- كاليغولا : (عابسا) أهذا كل شيء ؟
- بريسك : (متثائباً) وماذا تريد أكثر من هذا يا سيدي ؟ ها
هو أحمرك قد قبل في مجلس الشيوخ بجدارة •
- كاليغولا : بجدارة ، بجدارة ، وهل هذا شيء ممتع ؟
- بريسك : لا • ولكنني قلت لك : لنعيّن لهم ديكاً !
- المقرب الثاني : لكان الامر نفسه مع الديك أيضاً !
- كاليغولا : ما هذه الترهات ! أي ديك هذا ؟ اني أحب الاحمر ولا أريد
أي ديك ! أنت نفسك ديك ! ماذا يعني هذا يا بريسيك ؟ هذه
خنزرة ! أتفهم ؟ اني سامان وأريد أن أبتهج ، أما هم فلا
يستطيعون شيئاً • (يبكي) تباً لبلوتون ، اني أبحث عن
المشاعر •• القوية ؟ ايه ما هذا السأم يا أفروديت ؟
- بريسك : اهدأ يا سيدي ، فأنت تمزق قلوبنا من الألم •••

- كبير الشرطة : (يستل سيفه) أيها السفلة ! لقد أزعجتم القيصر .
- المقرب الثاني : اهدأ ! ان صحتك ضرورية للوطن ! قد نوفق الى شيء آخر ..
- كاليغولا : (منتحبا) نوفق ! وكيف ! اني أعرفهم جيدا ! ..
- بريسك : ان منيني سوف يقول كلمة ترحيب بالحصان
- كاليغولا : (يكف عن البكاء) منيني ! هل جنت !
- بريسك : (دون اكتراث) ولم لا ؟ انه نبيل ذائع الصيت ، ينحدر أصله مباشرة من طباخة توما بومبيلي (٦) انه شخصية محترمة ، وسمعته لا غبار عليها . وهو فوق ذلك محترم من قبل المجلس ..
- كاليغولا : منيني ؟ انه يخطب في حفلات التآين فقط . ما زلت أذكر كيف ألقى كلمته عندما خنقوا أبي بأغطية الفراش . لقد بكيت آنذاك .. (يبكي ثانية)
- بريسك : اهدأ يا سيدي ، خفف من حساسيتك ، ان هذا هو الممتع في الامر . فهو قد اعتاد أن يخطب في حفلات التآين ، فليغير من عادته الان . اننا ، مع القنصل ، قد اخترناه عن قصد ، كي تضحك .
- (يضحك المقربون ، وبعد أن يفهم كاليغولا الامر ، ينضم اليهم ويضحك بصوت عال) .
- كاليغولا : ليكن ! ليخطب اذن منيني !
- أصوات : منيني !
- منيني ! ...

خطبة منيني

أيها السيد كاليغولا ، وأنتسم يا أعضاء مجلس الشيوخ الروماني :

(٦) توما بومبيلي : حاكم أسطوري في روما القديمة (نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع

يا للخسارة الفادحة .. احم .. احم .. التي كنا قد
تفرّنا لو أن جلاله القيصر لم يعين هذا الـ .. كيف
يدعى .. احم .. الـ .. العضو .. ويا للفضيحة الروحية
انقضية ، التي كانت قد حلت بنا جميعاً ، نحن المجتمعين هنا
على .. تحت .. على ما هو ليس هباء أبداً . أجل لو أن
الامبراطور قد ضنّ بفعله ، ولم يغطّه بثوب مجلس الشيوخ .
ان الدموع تختفي لمجرد التفكير .. يا آباء الوطن لقد
عرفتموه جميعاً ، وأحبتموه ، ولا يحتاج الامر لان أعيد الى
ذاكرتكم هيأته الخالدة ، أجل ، الخالدة . كيف كان يتكلم !
وكيف كان يعدو رافعاً ذنبه كالتضبيب في الميدان الامبراطوري ،
وكيف كان يرتع ويمرح بوجه عام . أما الآن ، فماذا نرى ؟
انه يجثم .. (يبكي) واذا كان هذا الاجتماع بالنسبة لنا ،
نحن الذين نملك اثنتين من الأرجل مرهقاً ، ولا يطاق ، خاصة
في أوقات الصيف ، فاية فائدة يجنيها هو ، أجل بأرجله المتعددة
وبذنبه ؟ لنقدم له فرائض الاحترام مرة أخرى بالنهوض ،
وبالشكر والعرفان لاغسطس العظيم الذي لم يضنّ على مجلس
الشيوخ حتى بفعله العزيز (يبكي ويجلس) .

(ينهض الجميع ، ويحيون « عاش » ضحك ، ويضحك الجميع
أيضاً في الشرفة القيصرية ما عدا كاليغولا الذي لم يفهم بعد
ما الباعث على الضحك) .

- ماذا في الأمر ، هل خطب جيداً ؟ : كاليغولا
في رأيي ، انه خطب بشكل جيد . : المقرّب الثاني
وفي رأيي أيضاً . ما عدا الكلمات الاخيرة .. : بريسك
بل حتى الكلمات الاخيرة .. اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، : المقرّب الثاني
الاخلاص العميق للخطيب ، ودموعه ..

(يضحكون من جديد يتفحص القيصر الجميع بارتياح • وفجأة
ينقلب الى العنف •)

كاليغولا : أخرسوا ، أنتم ، أيها العبيد ! سأريكم ، سأريكم جميعا (يلهث
بشدة) •

(يسود صمت كالقبر ، ينهض كاليغولا ، ويصرخ عبر حاجز
الشرفة « هي ! أنتم ، يا آباء الوطن ، أيها العبيد ، لتكفوا
عن •• هذه ال •• اني أعرفكم جيداً ، من سمح لكم
بالضحك ؟ لن تجرؤوا على الضحك ! هذا حصاني ! وان
ضحكتهم فلسوف •• سوف •• أخرسوا جميعا أيها الاوساخ
والا أمرت بجلدكم بالسياط ، بالسياط •• أخرسوا •• من
أنا ؟ أنا • لقد قطعت رأس كاستور ، ورأس بولوكس (٧) ،
وسأمر بقطع رؤوسكم ، لقد سئمت ، ان شئت جعلت
الفحل عضوا ، وان شئت جعلتكم جميعا فحولا ، وأطلقتكم في
الميدان لتعدوا أمامي • هل تسمعون ؟ سأركب لكم أذنا بيا
أعضاء مجلس الشيوخ العفن • هل سمعتم ؟

(يجلس ويشرب الخمر ، وهو ينظر الى المقرّبين بأعين دموية •
هؤلاء يهمسون فيما بينهم) •

بريسك : يا لها من خطبة ! ان هذه واحدة من أروع الخطب •

كاليغولا : (يشرب) هكذا !

المقرّب الثاني : وفكرة الذنب ! يا لها من فكرة !

كاليغولا : كفى ! لقد سئمت • ليخطب أحد ما هناك ، على شرط ألا تكون
خطبته لغوا ، بل خطبة حقيقية •

(٧) كاستور وبولوكس : توأمان في الميثولوجيا ، وهما ابنا جوبيتر وليدا زوجة القيصر الاسبارطي
تيندورا • اشتهر كاستور بقيادة المركبة وتزيين الجياد ، أما بولوكس فقد اشتهر بفن
المصارعة •

- بريسك : يبدو أنه جام دور مارتسيل !
 كاليغولا : آ ! العجوز العرييد ! وهل هو لا يزال على قيد الحياة ؟
 بريسك : انك نسيتَه يا سيدي .
 كاليغولا : وأنت لم تستطع أن تذكرني ! دعه يخطب . مارتسيل !
 أصوات خجولة : « مارتسيل » ، « مارتسيل » .

خطبة مارتسيل

مرحباً يا سيدي أغسطس الفريد ! مرحباً أيها الشيوخ !
 ومرحباً أيها الجديد الموقر ! (ينحني للحصان) .
 اني محارب ولست خطيباً . أن أقارع بالسيف أجدر بي من
 أن أتفوه بالكلمات الخفيفة وأرجو أن تعذروني سلفاً ، ذلك
 أن كلمتي لن تكون بليغة بما فيه الكفاية . سأحاول تعويض
 هذا النقص باستقامتي الحربية ، وبشرف مواطن روماني
 قديم . أجل ، أنت على حق يا كاليغولا ، أنت على حق في كل
 شيء . لقد كنت على حق عندما غضبت ، وأردت أن تخرس
 الذين ضحكوا ، اني ، من كل قلبي ، أؤيد كلماتك العنيفة :
 « اجلدوهم بالسياط ! » انهم يخلفون اليمين وينقضونه ، انهم
 دائماً يتفوهون بالترهات والسخافات ، أما هو فوحده الذي
 يصمت بكبرياء . من في المجلس من هو أجدر منه ! من منهم
 يستحق أن يكون عضواً ان لم يكن الفحل الاحمر ؟ غير أنني أخذ
 عليك يا سيدي وقوفك في منتصف الطريق ، أنت لم
 تتم حتى النهاية ما شرعت به ، ولم تختتمه بتنازلك للاحمر
 عن التاج ، وعن المجلس

(كاليغولا لم يفهم بعد ، يهمس له المقربون بشيء ما ،
 الا أنه يشيخهم عنه بيده) .

اجعل اذن الأحمر قيصراً كما جعلته عضواً لتزين به
 حكام روما • ما لي أرى وجهك قد احمرّ من الخجل ، هل
 تشك في استحقاق الشعب الروماني ، الذي تكرهه ، لمثل هذه
 الهبة ؟ هدّئ من روعك : فالشعب يستحقها • انه قد احتمل
 بصمت وخنوع ، سنوات طويلة بهيجة مثلك باثنتين من الأرجل ،
 لهذا فان حيواناً بأربع أرجل لن يكون بالنسبة لهم الا خطوة
 جديدة في الطريق الى المجد •

(ترتفع الضجة ، ويتجه أفراد الجيش بسرعة نحو مارتسيل
 للقبض عليه ، كثيرون من الاعضاء ينسحبون خوفاً مما سيقع •
 كالأبغول يزعق بعنف : اقبضوا عليه ! سأقذف بك الى الوحوش
 الضارية ، أنا •••)

مارتسيل : (ينحني) لقد أنهيت كلمتي !

(ترتفع الضجة أكثر ، ويهرب الجميع • أفراد الجيش يلقون
 القبض على مارتسيل) •



محنة القريب

مسرحية من فصل واحد

مكان موحش في الجبال • فوق صخرة عالية ترتفع عموديا الى حد ما عن الارض ، وعلى نتوء صغير فيها ، وقف انسان في وضعية يائسة • كيف توصل الى هناك ، هذا ما يصعب شرحه بيد أن انقاذه لم يكن ممكناً لا من الأعلى ولا من الأسفل • فالعصي والحبال والسلالم القصيرة تدل على أنه بذلت بعض المحاولات لانقاذ المجهول ، الا أنها كانت مخففة •

من المرجح أن المسكين ظل على هذا الوضع اليأس فترة طويلة ، فقد اجتمع في الاسفل زحام كبير مختلف في تكوينه ، ويضم مقهى بكامله يدور حوله نادل يلهث ويتفصد عرقا ، فعليه وحده أن يلبي جميع الطلبات • ويضم الزحام أيضا بائعي المرطبات ، وبائعين متجولين يخطررون بالاعشاب البحرية، والهدايا التذكارية ، وبطاقات البريد ، ومختلف الترهات • ثمة شخص يحاول جاهدا بيع مشط بدا وكأنه مصنوع من درع السلحفاة • يستمر توافد السياح منجذبين بما سمعوه عن وشك وقوع كارثة مؤكدة ، من بينهم انكليز ، ولمان ، وروس ، وفرنسيون ، وإيطاليون ••• بكل ميزاتهم القومية في الطبايع والتصرفات والملابس • الجميع تقريبا يحملون عصيا للتسلق، ومناظير مقرّبة ، وأجهزة تصوير • اثنان من الشرطة العرفاء يطردان الأولاد بعيداً عن أسفل الصخرة ، حيث يُفترض أن يسقط المجهول ، ويسيّجان المكان بحبل رفيع ثبتّ على أوتاد ، هرج ومرج •

- الشرطي ١ : ابتعد أيها الشقي اذا وقع على رأسك ، فماذا يقول أبوك وأمك ؟
- الولد : وهل سيقع هنا ؟
- الشرطي ١ : نعم . هنا
- الولد : واذا وقع أبعد ؟
- الشرطي ٢ : الولد على حق . اذ أنه بدافع اليأس قد يقفز ويجتاز الحبل ويسبب بذلك مشكلة للمتفرجين . انه يزن لا أقل من أربعة بوندات .
- الشرطي ١ : ابتعدي أيتها البنت ، الى أين تزحفين ؟ ياسيدة هل هذه ابنتك؟ أرجو أن تأخذوها . ان الشاب سيقع الان . .
- السيدة : الآن ؟ آه يا الهي ! ولكن زوجي ليس هنا
- البنت : انه في المقهى يا أمي .
- السيدة : (في يأس) طبعاً ، دائماً في المقهى ! ادعيه يا نيللي ، وقولي له انه سيقع الآن ، بسرعة ! بسرعة !
- أصوات : أيها النادل
- يا جرسون
- أيها الرجل
- بيرة
- بيرة لا يوجد
- ماذا ؟ ما هذا ؟ المقهى الحقيقي . . .
- سيحضرون الآن !
- استعجلوا !
- أيها النادل
- يا نادل
- يا جرسون

- الشرطي ١ : عدت مرة ثانية يا ولد !
 الولد : أردت أن أرفع ذلك الحجر .
 الشرطي ١ : ولماذا ؟
 الولد : حتى لا يكون وقوعه أليماً .
 الشرطي ٢ : الولد على حق . . . الأحجار يجب أن تُرفع . وعلى وجه العموم ،
 إن تهيئة المكان أمر ضروري . ألا يوجد هنا نشارة أو رمل ؟
 (يقترب اثنان من السياح الانكليز . ينظران الى الرجل
 المجهول في النظارات المقربة ، ويتبادلان الملاحظات)
 الاول : شاب !
 الثاني : كم ؟
 الاول : ثمانية وعشرون
 الثاني : ستة وعشرون
 الاول : الرهان ؟
 الثاني : عشرة مقابل مئة . سجل !
 الاول : (متوجها الى الشرطي وهو يكتب) قل لي من فضلك ، ماذا
 أوصله الى هناك ؟ وماذا يمنع من انتشاله ؟
 الشرطي : لقد حاولوا ، ولكن دون جدوى ، فالسلام كلها قصيرة .
 الثاني : وهل هو هناك منذ فترة طويلة ؟
 الشرطي : منذ يومين .
 السائح ١ : أو - هو ! في المساء سيقع حتماً .
 السائح ٢ : بعد ساعتين . مائة مقابل مائة
 السائح ١ : سجل ! (ينادي صارخا على الرجل المجهول) كيف حالك ؟
 ماذا ؟ لا أسمع .
 المجهول : (بصوت ضعيف لا يُسمع) سيئة جداً .
 السيدة : آه ! يا الهي وزوجي ليس هنا .

- البنيت :** (تقترب راكضة) يقول انه لم يحن الوقت بعد ، انه يلعب الشطرنج مع أحد السادة
- السيدة :** آه ! يا الهي • قولي له يا نيللي اني مصرّة •• على فكرة ، هل سيقع على الفور أيها السيد العريف ؟ لا ، يا نيللي الافضل أن تذهبي أنت ، أما أنا فسأحجز مكانا لايك •
- (سيده طويلة القامة ، نحيلة ، ذات شخصية مستقلة وعدائية تنازع أحد السياح على المكان • السائح قميء القامة ، واهن القوى ، وهادى يدافع عن حقه بضعف •)
- السائح :** ولكن هذا مكاني يا سيده • اني أقف هنا منذ ساعتين •
- السيدة العدائية :** وما شأنني أن تقف هنا منذ ساعتين أو أكثر ؟ أريد أن أقف هنا ، هل فهمت ؟ من هنا ستكون الرؤية أفضل •
- السائح :** (بضعف) ولكن من هنا ستكون الرؤية أفضل بالنسبة لي أيضاً •
- السيدة العدائية :** قل لي من فضلك ! وهل تفهم أنت شيئاً في هذا الامر ؟
- السائح :** وما حاجة هذا الى الفهم • انسان يجب أن يقع ، هذا كل ما في الامر •
- السيدة العدائية :** (تقلده) انسان يجب أن يقع ، هذا كل ما في الامر ! قل لي من فضلك ! وهل رأيت أنت كيف يقع الانسان ؟ تكلم ؟ لا؟ أما أنا فقد رأيت ثلاثة : بهلوانيين ، وراقصاً على الحبل ، وثلاثة ملاحين يعملون على المنطاد •
- السائح :** المجموع ستة •
- السيدة العدائية :** (تغيظه) المجموع ستة ! يا لمواهبك الرائعة في الرياضيات • قل لي ، وهل رأيت بأمر عينك كيف يمزق نمر احدى النساء في قفص ؟ آ ؟ ماذا ؟ هكذا ! أما أنا فقد رأيت ! من فضلك ، من فضلك •
- (يبتعد السائح مهاناً ، أما السيدة النحيلة فتجلس شامخة الانف وتصف حولها محفظة ، ومناديل أنف ، وأقراص نعناع •

وزجاجة مملوءة بالاكسير ، ثم تنزع القفازات ، وتمسح زجاج
المنظارات المقرّبة وتنظر فيها بسرور الى الناس المحيطين بها .
توجه حديثها الى السيدة التي تنتظر عودة زوجها من المقهى .

السيدة العدائية : (بعطف) سوف تتعبين هكذا يا عزيزتي . اجلسي .
السيدة : آه ، لو تعلمين ، لقد نملت رجلي تماماً .
السيدة العدائية : ما أوقع رجال اليوم ، أصبحوا لا يتخلون عن أماكنهم للنساء .
على فكرة ، ألم تحضري معك أقراص نعناع ؟
السيدة : (بخوف) وهل هي ضرورية ؟
السيدة العدائية : الانسان يصاب بالدوار حتماً عندما ينظر طويلاً الى الاعلى .
وهل معك روح النشادر ؟ لا ؟ يا الهي ، ما أخف عقلك ! كيف
سيعيدون اليك وعيك عندما يقع ؟ وليس معك اكسير ؟ ما دمت
أنت نفسك على هذه . . . أيعقل أن لا يكون عندك من يستطيع
أن يهتم بأمرك ؟

السيدة : (بخوف) سأقول هذا لزوجي ، انه في المقهى .
السيدة العدائية : زوجك سافل !
الشرطي : لمن هذه السترة ؟ من قذف بهذه الخرقه البالية ؟
الولد : أنا ، أنا قذفت بالسترة حتى لا يكون وقوعه أليماً .
الشرطيان : يجب أن ترفع .
(بعض السياح المجهزين بآلات تصوير ماركة كوداك « يتنازعون
الاماكن المريحة »)

الاول : أنا أردت أن أقف هنا .
الثاني : أنت أردت ، أما أنا فقد وقفت .
الاول : أنت وقفت الآن فقط ، أما أنا فقد وقفت هنا يومين كاملين .
الثاني : ولماذا غادرت المكان ولم تبق ظلك على الاقل ؟
الاول : عليك اللعنة . طبعاً لن أبقى هنا حتى أفطس من الجوع .

- بائع الأعشاب البحرية : « في السر » مصنوع من درع السلحفاة •
 السائح : (بعنف) وبعد ؟
 البائع : مصنوع من درع السلحفاة الحقيقي •
 السائح : اذهب الى الشيطان •
 السائح ٢ - مصور : سيدتي ، كرامة لله ، لقد جلست على جهازي •
 سيدة شابة : أه ، وأين هو ؟
 السائح : انه تحتك ، تحتك !
 السيدة الشابة : اني تعبة جدا ! اللعنة ما أكره جهازك ، وأنا أقول لماذا جلستني ليست مريحة ، هذا اذن لانني أجلس على جهازك •
 السائح : (في يأس) أيتها السيدة !
 السيدة الشابة : وأنا ، هل تتصور ، فكرت أنه حجر • رأيت شيئاً ما يرقد هكذا ، فرحت أفكر : هل يعقل أن يكون حجراً ، لماذا هو أسود اللون اذن ؟ ثم يتضح انه جهازك •
 السائح : (في يأس) سيدتي ! كرامة لله ! ••
 السيدة الشابة : ولكن ما السبب في أنه كبير الى هذا الحد ، الاجهزة تكون عادة صغيرة ، أما هذا فكبير • أتول • الحق اني حتى لم أشك في أنه جهاز •
 بإمكانك تصويري ؟ طالما تمنيت أن تؤخذ لي صورة على (خلفية) من الجبال في مثل هذا الوضع •
 السائح : كيف أستطيع أن أخذ لك صورة وأنت عليه !
 السيدة الشابة : (تقفز خاضعة) صحيح ؟ لماذا لم تقل لي ؟ هل يصور الآن ؟
 أصوات : أيها النادل ، بيرة !
 - لماذا لا تقدمون البيرة ؟
 - لقد طلبت لكم منذ فترة طويلة •
 - ماذا تأمرون ؟
 - الآن

- هذه اللحظة •
 — أيها النادل !
 — أيها النادل !
 — فرشاة أسنان •
 (يدخل سائح سمين لاهثاً ، تحيط به أسرته الكبيرة العدد)
 : السائح (يصرخ) ماشا ! ماشا ، بيتيا ! أين ماشا ؟ آه يا الهي ، أين ماشا ؟
 : رياضي (ببرود) انها هنا ، يا أبي •
 : السائح ولكن أين هي ؟ ماشا !
 : الصبية أنا هنا ، يا أبي •
 : السائح أين أنت ؟ (مستديراً) آه ، هناك ؟ ومن يقف ورائي ؛ انظري بسرعة ، انظري ! الى أين تنظرين ، يا الهي !
 : الصبية (ببرود) أنا لا أعرف ، يا أبي •
 : السائح لا ، هذا أمر لا يطاق ! تصوروا انها لم تر البرق ولا مرة • تحدد طويلاً بعينين كبيرتين كالبصلة ، وما إن تبرق حتى تغلقهما • وهكذا فانها لم تر ولا مرة ! ماشا ، عدت للتأوب ! انه هناك ، هل ترين !
 : الرياضي انها ترى يا أبي •
 : السائح راقبها (وفجأة يتحول الى لهجة أسى عميقة) آه ، أيها الشاب المسكين ! تصوروا ، أصدق أنه سيقع حتماً ؟ انظروا يا أطفالتي ، كم هو مسكين • رأيتم ، هذه هي عاقبة التسلق •
 : الرياضي (ببرود) انه لن يقع اليوم يا أبي •
 : السائح هراء ! من قال هذا ؟
 : صبية أخرى أبي ، ماشا أغلقت عينيها مرة أخرى •
 : الرياضي 1 دعني أجلس يا أبي ، أقسم أنه لن يقع اليوم ••• لقد قال

- لي هذا بواب الفندق • أنا لم أعد أحتمل أكثر ، فانت تتسكع
بنا في مختلف المعارض من الفجر وحتى الليل ...
- السائح :** ولمصلحة من أفعل هذا كله ؟ تكلم ! أتفكر أن مع سخيف مثلك ،
يحلوا ال ...
- الصبية ٢ :** أبي ، ما شا تغمز ثانية •
- الرياضي ٢ :** لن أحتمل أكثر من هذا ، فانا أحلم دائما بأحلام مرعبة ، لقد
حلمت اليوم طوال الليل بالخدم •
- السائح :** بيتييا •
- الرياضي ١ :** وأنا أيضا هزلت ولم يبق مني سوى اللحم والعظم • لن أحتمل
أكثر يا أبي • اجعل مني راعيا للاغنام ، أو للخنازير ...
- السائح :** ماشا !
- المهم أن يقع بالفعل ، اذ انهم يلفقون عليك مختلف الاكاذيب
وأنت تصدق ، وصاحبك بيديكر (*) إنه يكذب أيضا •
- ماشيا :** (ببرود) يا أبي ، أيها الاطفال ، انه يبدأ في السقوط •
(الرجل المجهول يصرخ من الاعلى ، حركة عامة ، أصوات
« انظروا انه يسقط » ترتفع المناظير المقربة ، بعض المصورين
يتنافسون ، و (يقرقعون) بآلات التصوير •)
(الشرطيان يخليان مكان السقوط بنشاط وحيوية »
- مصور :** تبا للمجلة اللعينة ! ماذا أنا ...
- مصور ٢ :** يا زميل ، العدسة عندك مغلقة •
- الأول :** اللعنة على الشيطان !
- أصوات :** هدوء ! انه على أهبة السقوط •
- لا ، انه يقول شيئاً مما •

(*) بيديكر - دليل للسياح يحمل اسم ناشره كارل بيديكر الذي نشر عدة ادلة للسياح في عدد
من الدول •

- لا ، أبدا • انه يسقط •
– الهدوء •
- المجهول :** (بصوت ضعيف) أنقذوني ! ••
- السائح السمين :** آه ، أيها الشاب المسكين ! ماشا ! بيتيا ! يا لها من مأساة :
السماء صافية ، والطقس رائع ، وعليه أن يسقط الآن ،
ويتعرض جسمه حتى الموت • هل تتصور يا ساشا كم
هذا مرعب !
- الرياضي :** (ببرود) أتصور •
السائح السمين : وأنت يا ماشا هل تتصورين ؟ انظري ، هذه هي السماء ،
والناس يأكلون ، كل شيء عذب ، أما هو فعليه أن يسقط !
يا لها من مأساة ! بيتيا ، هل تذكر هاملت ؟
- الصبية ٢ :** (همسا) هاملت ، أمير دانيماركي من السينوري •
بيتا : (متجهماً) من هيلسيغفوري ، أعرف • لماذا تحاول اغاظتي
يا أبي ؟
- ماشاشا :** (ببرود) انه يحلم طوال الليل بالخدم •
ساشاشا : الافضل أن نطلب (السندويش) •
- بائع الاعشاب السحرية :** (في السر) مصنوع من درع السلحفاة الاصيلي •
السائح السمين : أهو مسروق ؟
- البائع :** لا يا سيدي ، معاذ الله !
- السائح السمين :** (بغضب) ان لم يكن مسروقاً ، فكيف يكون أصلياً ؟
- السيدة العدائية :** (بلطف) كلهم أطفالك !
- السائح السمين :** أجل أيتها السيدة • هذه واجبات الاب ••• الا أنهم يعقون
كما ترين • انه الشقاق الابدي بين الآباء والبنين • سيدتي
هنا تحدث مأساة مخيفة ، يتقلص لها القلب من شدة الالم •••
ماشاشا ، عدت للغمز ثانية !

- السيدة العدائية : انك على حق : يجب أن يكون الاطفال أقوياء • ولكن لماذا تسمى هذا بالمأساة المخيفة ؟ ان أي انسان يعمل فوق أي سطح يسقط من ارتفاع كبير • كم الارتفاع هنا ••• مائة ، مئتا قدم ؟ اني رأيت كيف يسقط الانسان مباشرة من السماء •
- السائح السمين : (بغبطة) أحقا ما تقولين ! ساشا ، يا أطفالي ، اسمعوا مباشرة من السماء !
- السيدة العدائية : نعم • ملاح يعمل على المنطاد ، سقط من الغيوم و بم - م م على السطح الحديدي •
- السائح السمين : يا للفظا ••• عة !
- السيدة العدائية : هذه مأساة حقيقية ! لقد صبوا علي الماء من المضخة طيلة ساعتين ليعيدوا اليّ وعيي • الاندال كادوا أن يفرقوني ! منذ ذلك الحين وأنا أحمل معي ملح النشادر •
- (تظهر فرقة جواله ايطالية من المطربين والموسيقيين • أحدهم ذو صوت (تينور) قميء الشكل ، سمين ذو لحية حمراء ، وعينان كبيرتان ، غبيتان • وهو يغني بصوت عذب غير مألوف • وآخر أحذب هزيل يرتدي قبعة راكبي الخيل ، ويغني بصوت « بارتيون » ذي صرير • أما ذو صوت « الباص » فيشبه قطاع الطرق ويعزف على المندولين • ويسحب وراءه فتاة رفعت عينيها الى الاعلى بحيث لم يظهر منها الا البياض • الفتاة تحمل كماناً •
- يبحثون عن مكان لانفسهم ، ثم يشرعون بالغناء)
- الايطاليون : مقطع من أغنية نابولية « سانتا لوتشيبيا »
- « الفجر يتلألأ بالشعاع القمري
والرياح المواتية ترفع الشراع
زورقي خفيف ، والمجازيف كبيرة
سانتا لوتشيبيا ! »

- ماشاش : (ببرود) أبي ، أيها الاطفال ، انظروا : أخذ يلوح بيديه .
 السائح : أيعقل أن يكون هذا بتأثير الموسيقى ؟
 السيدة العدائية : جدا . وعلى وجه العموم . مثل هذه الامور تجري عادة
 بمصاحبة الموسيقى . الا أنه هكذا سيقع بأسرع مما يجب .
 هي ، أيها الموسيقيون انصرفوا من هنا . . هيا ، انصرفوا !
 (يقترب سائح طويل ذو شاربين مفتولين الى الاعلى ،
 برفقة بعض الاتباع من الفضوليين . انه يشير بيديه بقوة) .
 السائح الطويل : هذه فضيحة ! . لماذا لا ينقدونه ؟ أيها السادة ، أما سمعتم
 جميعا ، كيف صرخ « انقدوني » ؟
 الفضوليون : (في صوت واحد) كلنا سمعنا .
 السائح الطويل : بالضبط ! وأنا أيضاً سمعت ذلك بوضوح كامل ، وعلى وجه
 الخصوص هذه الكلمة : أنقدوني . لماذا لا ينقدونه اذن ؟ ان
 هذه فضيحة ! أيها الشرطي ، يا شرطي ، لماذا لا تنقذه أنت ؟
 ماذا تفعل هنا .
 الشرطي : نعدّ مكاناً للسقوط .
 السائح الطويل : أما ! هذا أمر معقول . ولكن لماذا لا تنقدونه ؟ عليك أن
 تنقذه . هذا واجبك الانساني . مادام هناك انسان يطلب
 الانقاذ ، فلا بد من انقاذه أليس كذلك أيها السادة ؟
 الفضوليون : (في صوت واحد) بالضبط . بالتأكيد . لا بد من انقاذه .
 السائح الطويل : (بحرقه) نحن لسنا وثنيين ، اننا مسيحيون ، وعلينا أن نحب
 الجار . وما دام هذا الجار يطلب الانقاذ فيجب أن تكون قد
 اتخذت جميع الاجراءات التي تملكها الادارة . أيها الشرطي .
 هل اتخذت جميع الاجراءات ؟
 الشرطي : جميعها .

- السائح الطويل :** جميعها بلا استثناء ؟ أيها السادة ، لقد اتخذت جميع الاجراءات أيها الشاب ، اسمع . . . لقد اتخذت جميع الاجراءات في سبيل انقاذك . هل تسمع ؟ .
(بصوت يكاد لا يسمع) انقذوني ! . . .
- الرجل المجهول :**
- السائح الطويل :** (خائر القوى) أيها السادة ، هل سمعتم : لقد صرخ للمرة الثانية « أنقذوني » . هل سمعت أيها الشرطي ؟ .
(بخجل) أرى انه من الضروري انقاذه .
- الفضولي :**
- السائح الطويل :** بالضبط ! طيلة ساعتين وأنا أتكلم على هذا الامر . أيها الشرطي هل سمعت ؟ هذا أمر فاضح !
(أكثر جرأة) في رأيي يجب أن نتوجه الى الادارة العليا .
- الفضولي نفسه :**
- البقية :** (معاً) نعم ، نعم . من الضروري أن تقدم الشكوى ، هذا أمر فاضح ! يجب على الدولة أن لا تترك مواطنيها في خطر . نحن جميعا ندفع الرسوم . من الضروري أن ينقذ .
- السائح الطويل :** ألم أقل لكم ، طبعاً ، من الضروري أن نذهب فنقدم الشكوى . . . أيها الشاب ، اسمع ، هل تدفع الرسوم ؟ ماذا ؟ لا أسمع .
- السائح السمين :** بيتيا ، كاتيا ، اسمعوا ، يا لها من مأساة ! آه ، يا للشباب المسكين ، عليه أن يسقط الآن . ويطلبون منه رسوم الشقة . . .
- كاتيا :** (فتاة تلبس النظارات وتتكلم بلهجة تعليمية) وهل يمكن أن يسمى هذا برسوم الشقة يا أبي ؟ ان مفهوم الشقة . . .
- بيتا :** (يقرصها) يا لك من متملقة . . .
- ماشاشا :** (ببرود) يا أبي ، أيها الاطفال ، انظروا ، بدأ يسقط من جديد .
- (تبدأ حركة في الزحام من جديد ، بنفس الصرخات وضجة المصورين) .

- السائح الطويل :** لا بد من العجلة ، أيها السادة يجب انقاذه مهما كلف الامر !
من يتبعني ؟ •
- الفضوليون :** (في صوت واحد) كلنا •
- السائح الطويل :** أيها الشرطي ، هل سمعت • لنذهب حالا أيها السادة •
(يخرجون ملوحين بأيديهم • تنمو الحركة في المقهى ، ويسمع
(قرقعة) كؤوس البيرة ، وبداية أغنية ألمانية في صوت
مرتفع • الخادم الذي أنهك تماما ، يتنحى جانبا ويرمق
السماء في يأس ، ثم يمسح وجهه المتفصّد بالعرق • أوامر
عنيقة) •
- « أيها النادل ! يا نادل ! »
- المجهول :** (بصوت مرتفع بعض الشيء) أيها النادل ، هل تستطيع أن تقدم
لي ماء الصودا •
(النادل يرتعش ، وينظر الى السماء برعب باحثاً عن الرجل
المجهول ، ثم يخرج متخذاً هيئة من لم يسمع • أصوات قوية)
- « أيها النادل ، بيرة ! »
- النادل :** الآن ، حالا ! حالا •
- (يقترب اثنان من السكرارى ، قادمين من المقهى) •
- السيدة :** آه • ها هو زوجي ! تعال الى هنا بسرعة !
- السيدة العدائية :** يا له من نذل !
- السكران :** (ملوحاً بيده) هي ، أنت هناك ، في الاعلى ، ما بك • •
هل الحالة سيئة ؟
- المجهول :** (بصوت مرتفع بعض الشيء) سيئة جدا ، لقد سئمت •
- السكران :** ولا يمكنك أن تشرب الخمر •
- المجهول :** هناك ! الى أين ؟ •

- السكران ٢ : ماذا تهرف ، كيف يستطيع أن يشرب الخمر ؟ الرجل عليه أن يغطس وأنت تثيره بمختلف المغريات • اسمع اننا دائما نشرب نخب صحتك • أضررك ذلك ؟
- السكران ١ : ماذا تهرف ، كيف يمكن أن يضره ذلك ؟ من شأن ذلك أن ينعشه فقط • اسمع ! نقسم بأننا نأسف لك ، فلا تلق انتباها الى هذا كله ، ، سنعود الآن الى المقهى ثانية •
- السكران ٢ : انظر هذا الحشد الهائل من الناس !
- الأول : لنذهب ، قد يسقط ، فيفلقون المقهى •
(يظهر حشد جديد من السياح • على رأسه سيد رشيق جدا ، انه مراسل أكبر الصحف الاوربية ، ترتفع صرخات التعجب والغبطة • كثيرون يهجرون المقهى لرؤيته ، حتى ان النادل نفسه يلتفت بخفة وينظر على الفور ، ثم يبتسم بسعادة ويستمر في طريقه دون أن يشعر بانسكاب الكأس الذي يحمله •)
- أصوات : مراسل صحفي !
— انظروا ، مراسل صحفي !
- السيدة : آه يا الهي ، اختفى زوجي ثانية •
- السائح السمين : بيتيا ، ماشا ، ساشا ، كاتيا ، فاسيا ، انظروا •• هذا هو كبير المراسلين الصحفيين •• أتفهمون ؟ المراسل الاكبر • ما سوف يكتبه سينشر حتما •
- كاتيا : الافضل أن نطلب (السندويش) ! اني لا أستطيع يا أبي ! يجب إطعام الانسان •••
- السائح السمين : (في غبطة) يا لها من مأساة ! كاتيا يا عزيزتي هل تتصورين كم هذا مرعب ! في مثل هذا الطقس الساحر •• وكبير المراسلين ! اخرج الدفتر يا بيتيا ، دفتر المذكرات • بسرعة •
- بيتا : لقد أضعته ، يا أبي •

- المراسل : أين هو ؟
 أصوات : (بطاعة) هناك !
 - أعلى بعض الشيء ، أعلى قليلا !
 - اخفض ، اخفض !
 - لا ، أعلى !
- المراسل : من فضلكم ، من فضلكم أيها السادة ، سأجده بنفسني * آها
 هذا هو ! نعم ** م ، حالة ***
 السائح : ألا تريد كرسيًا ؟
- المراسل : أشكرك (يجلس) نعم ** م حالة ! رائع ، رائع جدا (يعد
 دفتر المذكرات ويوجه حديثه الى المصورين بلطف) هل أخذتم
 صوراً أيها السادة ؟
- مصور ١ : طبعاً ! لقد صورنا الطابع العام للمكان **
 مصور ٢ : وضع مأسوي لشاب ***
 المراسل : حقاً ؟ شيء ممتع ، ممتع جداً *
 السائح السمين : أسمع يا ساشا : رجل ذكي ، وكبير المراسلين يقول ان هذا
 شيء ممتع ، أما أنت ، (فسندويشات) ! ** أبله !
 ساشا : يبدو أنه شبعان ***
 المراسل : أيها السادة ، حافظوا على الهدوء من فضلكم *
- صوت أحد الاتباع : هي ° ، هناك في المقهى : الهدوء !
- المراسل : (يصرخ موجهاً حديثه الى الاعلى) اسمح لي ان أقدم لك
 نفسي : أنا كبير مراسلي الصحافة الاوربية ، أرسلت الى هنا
 بناء على اقتراح خاص من ادارة التحرير ، لو سمحت ، أن
 أطرح عليك بعض الاسئلة التي تتعلق بوضعك * ما اسمك ؟
 الاسم ** والحالة الاجتماعية ، والعمر ؟
 (المجهول يدمدم بشيء ما)

- المراسل : (بشيء من سوء الفهم) لا أسمع شيئاً • هل هو يتكلم هكذا دائماً ؟
- أصوات : أجل • لن تفهم شيئاً مما يقول •
- المراسل : (يسجل شيئاً ما) رائع ! هل أنت أعزب ؟
(المجهول يدمدم ثانية)
- المراسل : لا أسمع ! متزوج ، أليس كذلك ؟ أعد
- السائح : قال انه أعزب
- السائح ٢ : لا ، أبداً ! انه متزوج طبعاً •
- المراسل : (بلا اكتراث) هل تعتقدون ذلك ؟ سأسجل : متزوج • كم من الأطفال عندك ؟ ماذا ؟ لا أسمع • يبدو انه قال ثلاثة ؟ هم ••
- سنسجل خمسة على كل حال •
- السائح السمين : آه ، يا لها من مأساة ! خمسة أطفال • تصوروا !
- السيدة العدائية : انه يكذب •
- المراسل : (يصرخ) كيف وقعت في هذه الحالة ؟ ماذا ؟ لا أسمع بصوت أعلى ، أعد ، ماذا قلت ؟ (بسوء فهم الى الجمهور) ما الذي يقوله ؟ صوت هذا العفريت ضعيف جداً ؟
- السائح ١ : يخيل الي أنه قال انه ضاع •
- السائح ٢ : لا •• هو نفسه لا يعرف كيف وقع في هذه الحالة •
- أصوات : كان قد خرج للصيد !
- كان يتسلق الصخور •
- لا ، أبداً • كل ما في الأمر انه مصاب بالعشا •
- المراسل : على رسلكم أيها السادة ، انه لم يهبط من السماء على أي حال • على فكرة •• (يسجل بسرعة) الشاب المسكين •• يعاني منذ طفولته من داء العشى •• ضوء القمر القوي •• الصخور الموحشة •• البواب النعسان لم أميز •••

السائح ١ : آه ، وهل تعتقد أن الجمهور يفهم شيئاً ما في علم الفلك ؟
السائح السمين : (في غبطة) ماشا ! انتبهى .. هذا مثال واضح على تأثير القمر في الاعضاء الحيوية ، ولكن ، يا لها من مأساة مخيفة : أن يخرج الانسان (للتجول) في ليلة مقمرة .. وفجأة يتسلق هكذا بحيث يستحيل انقاذه .

المراسل : (يصرخ) ما هو شعورك ؟ لا أسمع . أعلى ! آه هكذا اذن ! نعم .. م . حالة .

الجمهور : (باهتمام) اسمع .. اسمع ، ما هو شعوره ، كم هذا مرعب !
المراسل : (يسجل ، ملقياً بين النخين والآخر ملاحظاته بصوت عال) رعب

قاتل يشل الاعضاء ... خوف حقيقي يزحف في الظهر ..
ليس ثمة أمل ... تتوالى أمام العين الواعية لوحات السعادة المنزلية : الزوجة تصنع البسكويت ، أصوات الاطفال الخمسة الملائكية والبريئة تعبر عن أرق المشاعر ... الجدة في مقعدها الوثير تدخن الغليون ... أعني الجد يدخن الغليون ، والجدة ..
.. حائر من تعاطف الجمهور ... لقد عبر عن رغبته الاخيرة قبل موته فقال : أرجو أن ينشر نفسي الاخير في جريدتكم ..

السيدة العدائية : (مهتاجة) يا له من دجال !

ماشاشا : (ببرود) أبي ... أيها الاطفال ، انه يبدأ بالسقوط مرة أخرى .

السائح السمين : (بغضب) اسكتي ! تقع هنا مثل هذه المأساة .. وأنت ... لماذا تحددقين هكذا ؟

المراسل : (يصرخ) تماسك أكثر ! أجل هكذا . السؤال الاخير : وأنت

المجهول : تنتقل الى العالم الافضل ، بم ترغب أن نبلغ اخوانك المواطنين؟
(بصوت ضعيف) أن يذهبوا الى الشيطان جميعاً .

المراسل : ماذا قلت ؟ آه نعم ! معارض بحزم لحقوق المساواة الكاملة مع

- الزئوج .. آخر وصية له وهي أن لا يكون لهؤلاء المتلطفين بالسواد .
- القس :** (يخترق الزحام لاهتاً) . أين هو ؟ آه هناك ! يا للشباب التعيس ! أيها السادة ، ألم يحضر أحد رجال الكهنوت ؟ لا ؟ أشكركم جميعاً . أيعقل أن أكون الأول ؟
- المراسل :** (يكتب) لحظة حاسمة .. لقد ظهر القس ... وتجمد الجميع .. كثيرون انخرطوا في البكاء ! ..
- القس :** اسمحوا لي من فضلكم أيها السادة ، الروح الضالة تطلب الصلح الاخير مع السماء (يصرخ) هل تطلب الصلح مع السماء يا بني افتح لي نفسك ، وستنال الغفران بالتأكيد . ماذا ؟ لا أسمع ؟
- المراسل :** (يكتب) النحيب يهز عنان الفضاء . خادم الكنيسة بتعابير مؤثرة يقدم الوعظ للمجرم ، أعني البائس .. واغرورقت عيناه بالدموع . ثم شكر بصوت ضعيف ...
- المجهول :** (بصوت ضعيف) ان لم تبتعدوا فسأقفز فوق رؤوسكم . ان وزني ستة بوندات . (يرتد الجميع خائفين ويختبئ الواحد خلف الآخر) .
- أصوات :** انه يسقط ، انه يسقط !
- السائح السمين :** (بانفعال) ماشا ، ساشا ، بيتيا !
- الشرطي :** (بحيوية) المكان ، أرجو أن تُخلوا المكان .
- مصور :** (بيأس) يا الهي ، لقد انتهى شريط الفيلم (يحوص في مكانه ناظرا الى الرجل المجهول بيأس) لحظة واحدة سأتي حالا ، انه هناك في المعطف (يبتعد بعض الشيء دون أن يرفع بصره عن المجهول بيد أنه يعود على الفور) لا .. لا أستطيع .. آه يا الهي ! انه هناك في المعطف ! سأعود حالا ، لحظة واحدة .

- القس : بسرعة يا عزيزي ، اجمع قواك واعترف ولو بالآثام الكبيرة
فقط أما الصغيرة فسوف نغض الطرف عنهما .
- السائح السمين : يا لها من مأساة !
- المراسل : (يسجل) المجرم ، أعني البائس ، يجلب تطهيرا عاما للشعب . . .
تفتضح أسرار مخيفة . . . الشرير فجر صيرفيا . . .
- القس : (يصرخ) أولا ، ألم تقتل ؟ ثانيا ، هل سرقت ؟ ثالثا ، هل
زנית ؟
- السائح السمين : ماشا ، بيتيا ، كاتيا ، ساشا ، فاسيا ، سدوا آذانكم .
المراسل : (يسجل) الشعب غاضب . وهتافات السخط . . .
- القس : (بعجلة) رابعا ، ألم تجدف على الله ؟ خامسا ألم تطمع
بحمار جارك ؟ أو ثوره ، أو أسماكه ، أو زوجته ؟ سادسا . . .
- مصور : (بمنزعجا) أيها السادة ، حمار !
- مصور ٢ : أين . أين الحمار ؟ اني لا أرى .
- مصور ١ : لقد خيل الي .
- القس : أهنئك يا بني ، لقد صالحت السماء ، وتستطيع الآن بهدوء
أن . . . آه ، يا الهي ، ماذا أرى ؟ أعضاء جيش الانقاذ(*) . أيها
الشرطيان ، اطردهم !
- القس : (يقترب عدد من الرجال والنساء في ثياب استعراضية ،
يعزفون الموسيقى على آلات ثلاث : طبل ، وكمان ، وثمة آلة
غريبة تشبه صوتا يشبه السقسقة (١)) .
- عضو جيش الانقاذ الأول : (يقرع الطبل بقوة ويصرخ من أنفه بصوت ممطوط)
أيها الاخوة ، وأيتها الاخوات . . .
- القس : (محاولا أن يطنى صوته على كل صوت) لقد طلب الغفران

(*) جيش الانقاذ . منظمة خيرية رجعية أسسها القس ف . بوتس عام ١٨٦٥ في انكلترا .

(١) صوت المصفور .

- أيها الاخوان • كونوا شهودا على ذلك أيها السادة ! لقد طلب
الغفران صالح السماء •
- عضو جيش الانقاذ الثاني - سيدة :** (تتسلق صخرة وتجعر لقد ضللت في الظلام •
ومثل هذا الخاطيء شربت الكحول، عندما كان نور الحقيقة •••
- صوت :** والآن سكرانة (طينة) أيضاً •
- القس :** أيها الشرطي أسمعت كيف طلب الغفران صالح السماء ؟
(عضو جيش الانقاذ الاول يقرع الطبل • باحتدام ، ويشرع
الآخرون بالفناء • صراخ وضحك و صفير • يرتفع الفناء في
المقهى أيضا • وينادون على النادل بمختلف اللغات • الشرطيان
الحائران يتملصان من القس الذي كان يجرحهما الى مكان ما •
المصورون يحوصون كالمجانين •
- تظهر سائحة انكليزية تمتطي حمارا باعد بين رجليه الاماميتين
غير راغب في متابعة المسير ، ويضم صوته الى أصوات الآخرين •
يهدأ الجميع بعض الشيء • ثم يبتعد جيش الانقاذ ، ويخرج
القس خلفه ملوِّحاً بيديه) •
- سائح انكليزي :** (آخر) يا للشؤم • هؤلاء الاوباش لا يعرفون أبدا كيف
يتصرفون •
- سائح انكليزي ٢ :** لنذهب من هنا •
- الاول :** لحظة واحدة (يصرخ) اسمعني أيها المحترم : ألا تريد أن
تسقط بسرعة ؟
- الثاني :** ماذا تقول يا سير ويليام ؟
- الاول :** (يصرخ ألا ترى أنهم لا ينتظرون الا سقوطك ؟ وواجبك
كانسان مهذب أن ترضي فيهم هذه الرغبة ، وتجنب نفسك
كلفة المعاناة أمام هؤلاء الاوباش •-
- الثاني :** يا سير ويليام !

- السائح السمين : (بغبطة) هذه هي الحقيقة ! ساشا ، بيتيا ، اسمعوا انهم يقولون الحقيقة • يا لها من مأساة !
- أحد السياح : (متهجماً على الانكليزي) كيف تسمح لنفسك •••؟
- الانكليزي ا : (منحياً اياه) اقفز بسرعة ، هل تسمع ؟ واذا كانت تنقصك الجسارة دعني أساعدك برصاصة جيدة • هل توافق ؟
- أصوات : لقد جن هذا العفريت الاحمر !
- الشرطي : (يقبض على الانكليزي من يده) أنت لا تملك الحق في فعل شيء كهذا • اني أعتقلك •
- أحد السياح : أوباش !
- (يصرخ المجهول بشيء ما • حركة في الاسفل • أصوات)
- « اسمعوا ! اسمعوا ! »
- المجهول : (بصوت عال) خذوا هذا الحمار ، انه يريد أن يطلق عليّ الرصاص • ثم بلغوا صاحب المقهى أنني لم أعد أحتمل أكثر ماذا يقصد ؟
- أصوات : — الى من ، صاحب ماذا ؟
— لقد جن المسكين !
- السائح السمين : ماشا ، ساشا ، هذه هي لوحة الجنون • بيتيا ، تذكر هاملت بسرعة •
- المجهول : (بغضب) قولوا له أن ظهري قد انكسر •
- ماشيا : (بيروود) يا أبي ، أيها الاطفال ، انظروا انه بدأ يهز قدميه •
- كاتيا : هذا ما يسمى بالتشنج يا أبي •
- السائح السمين : (بغبطة) لا أعرف ، ربما • يا لها من مأساة •
- ساشا : (متجهماً) كاتيا ، أيتها الغبية ! يعلمونها ولا تعرف أن هذا يسمى سكرة الموت • ومع ذلك تلبس النظارات ! لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك يا أبي •

السائح السمين : تصوروا يا أطفالي ، انسان سيتعرض حتى الموت ، وماذا يشغل فكره ؟ ظهره !

(تسمع ضجة • بعض السياح الغاضبين يجرون سيداً مرتدياً سترة بيضاء • انه خائف جدا ، ويبتسم ، ويركع صوب كل الجهات رافعاً ذراعيه • السياح يدفعونه بقوة ، فيحاول الهرب بيد أنهم يقبضون عليه من جديد ويجرونه • !
خداع فاضح •

أصوات :

– يا للفضيحة •
– أيها الشرطي ، أيها الشرطي !
– يجب تلقينه درساً !

أصوات أخرى : ما هذا ؟

– ما الامر ؟

– أيها السادة ، لقد قبضوا على لص •

السيد : (يركع مبتسماً) مزحة أيها السادة الكرام • مجرد مزحة ؟
رأيت الجمهور سائماً ، فأردت أن أسليه قليلاً •••

المجهول : (بعنف) يا صاحب المقهى !

السيد : انتظر قليلاً •

المجهول : ما هذا • هل سأقف هنا حتى يوم القيامة ؟ اتفقنا حتى الساعة الثانية، عشرة • فكم الوقت الآن ؟

السائح الطويل : (خارجاً عن طوره) أسمعتم أيها السادة ؟ لقد تبين أن هذا

السافل ذا السترة البيضاء استكرى سافلاً آخر • وبكل بساطة ربطه الى الصخرة •

أصوات : هو مربوط اذن ؟

السائح الطويل : أجل ، هو مربوط ولا يمكنه أن يقع • نحن هنا ننفعل ويقتلنا القلق ، وهو لا يستطيع أن يقع •

- المجهول** : حالا ، سأفعل ! سوف أكرر لك رقبتي من أجل خمسة وعشرين روبلاً ! يا صاحب المقهى ، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك ، أحد الحمير هنا أراد أن يطلق عليّ الرصاص ، والقس أخذ يعنفني ساعتين كاملتين . ان هذا كله لا يدخل في الاتفاق .
- ماشيا** : ألم أقل لك يا أبي ان صاحبك بيديكر هذا يكذب . أنت تصدق كل شيء وتتسكع بنا دون أن نأكل !
- صاحب المقهى** : رغبتني الوحيدة كانت تسلمية الجمهور المحترم . لقد رأيت أنه سائم ، فأردت .
- السيدة العدائية** : ما هذا ؟ اني لا أفهم شيئاً ، لماذا لن يقع ؟ ومن سوف يقع اذن؟
- السائح السمين** : وأنا أيضاً لا أفهم شيئاً . طبعاً يجب أن يقع .
- بيتا** : أنت لا تفهم شيئاً يا أبي ، يقال لك إنه مربوط .
- ساشا** : وهل تستطيع اقناعه ! انه يحب بيديكر أكثر من أبنائه جميعاً .
- بيتا** : وفوق هذا يقال انه أب !
- السائح السمين** : اخرس !
- السيدة العدائية** : ما هذا ؟ يجب أن يسقط !
- السائح الطويل** : ما هذا الخداع الفاضح ! يجب أن تفسر ذلك أيها السيد المحترم .
- صاحب المقهى** : سامحوني أيها السادة ، الجمهور سووم . ولقد فعلت هذا من أجله ، فما يضير أن ينفعل الجمهور بمرح بضع ساعات ، ويجرب مشاعره الغيرية ، ويقوي أعصابه ؟ .
- الانكليزي** : المقبى لك ؟
- صاحب المقهى** : لسي .
- الانكليزي** : والفندق الذي في الاسفل أيضاً لك ؟
- صاحب المقهى** : لي . . الجمهور سامان . .
- المراسل** : (يسجل) خداع فاضح . . ان صاحب المقهى ، طمعاً برفع دخله من المشروبات الروحية، استغل أسمى المشاعر الانسانية . .
- سخط الجمهور .

- المجهول : (بعنف) يا صاحب المقهى ، أتحلّ وثاقي بسرعة أم لا ؟
صاحب المقهى : وما دخلك أنت ؟ ماذا يضريك ، ان حلوا وثاقتك أم لم يحلوه في الليل ؟
- المجهول : أهذا ما يعوز لي أن أعلق هنا طوال الليل ؟
صاحب المقهى : يمكنك أن تصبر بضع دقائق في هذا الوضع . ان الجمهور سؤوم .
السائح الطويل : هل تعرف ماذا فعلت أيها السافل ! من أجل أغراضك القذرة استغلّيت حبنا للمقريب . لقد أزغمتنا جميعاً على معاناة الرعب والتعاطف مع الالم ، لقد سممت قلوبنا بالشفقة . . . وماذا يتبين بعد هذا كله ؟ تبين أن شريكك القذر هذا مربوط الى صخرة ، فقط لن يقع كما كان يتوقع الجميع . بل ولا يمكنه أن يقع أيضا .
- السيدة العدائية : ما هذا ؟ يجب أن يقع .
السائح الطويل : أيها الشرطي ، أيها الشرطي !
(يظهر القس لاهثاً)
القس : ماذا . ما زال حيا ؟ آها ، هذا هو . يا لهم من دجالين هؤلاء أعضاء جيش الانقاذ !
- صوت : ألم تسمع : انه مربوط .
القس : مربوط إلام ؟ الى الحياة أوه نحن جميعا مربوطون الى الحياة حتى يحررنا الموت . ولكن ان كان مربوطا أو لم يكن فأنا قد صالحته مع السماء وانتهى الامر ! أما هؤلاء الدجالون . . .
- السائح السمين : أيها الشرطي ، أيها الشرطي ، من الضروري أن تسجل المحضر !
السيدة العدائية : (متهجمة على صاحب المقهى) أنا لا أسمح لاحد بخداعي ، لقد رأيت كيف سقط ملاح يعمل على المنطاد من الغيوم الى السطح ، ورأيت كيف مزق نمر امرأة .
- المصور : لقد أفسدت ثلاثة أفلام ، وأنا أصور هذا اللعين . يجب أن تعوض لي هذا أيها السيد المحترم !

- المحضر ، المحضر ! يا للسفالة ! ماشا ، بيتيا ، ساشا فاسيا ،
ادعوا الشرطي .
- صاحب المقهى : (متراجعا في يأس) اني لا أستطيع ارغامه على السقوط ما دام
لا يريد . لقد فعلت كل ما في طاقتي أيها السادة .
سامحوني أيها السادة ، أقسم لكم أنه في المرة القادمة سيقع
أما الآن فهو لا يريد ذلك !
- المجهول : ما هذا الذي في المرة القادمة ؟
صاحب المقهى : اخرس أنت !
المجهول : في سبيل خمسة وعشرين روبلا ؟
القس : يا له من وقح ، لم أكد أنقذه من الخطر ، وأصالحه مع السماء
حتى أخذ يهددني بالوقوع على رأسي ! وهو فوق ذلك ليس
راضيا . الفاجر ! اللص ! القاتل ! الطامع بحمار جاره !
- المصور : أيها السادة حمار .
مصورتان : أين الحمار ؟
مصور أول : لقد خيل اليّ .
مصور ثالث : أنت الحمار . بسببك جحظت عيناى .
ماشاشا : (ببرود) يا أبى ، أيها الاطفال ، انظروا ، الشرطي قادم .
(حركة وضجة . الجمهور يطلب الشرطي من جهة ، ويهز
صاحب المقهى من جهة ثانية ، وكلاهما يصرخ « من فضلكم ،
من فضلكم »)
- السائح السمين : أيها الشرطي ! هذا هو ، المخادع ، المحتال
القس : أيها الشرطي ! هذا هو ، الفاجر ، القاتل ، الطامع بحمار جاره .
الشرطي : من فضلكم ، من فضلكم أيها السادة ، الآن سوف نعيد اليه
وعيه ، ونجمله يندم على ما فعل .
صاحب المقهى : لا أستطيع أن أرغمه على السقوط ، ما دام لا يريد ذلك !

- الشرطي : هي ، أنت ، أنت هناك ، في الاعلى ، هل تستطيع أن تسقط أم لا ، اعترف ؟!
- المجهول : (متجهماً) لا أريد أن أسقط .
- أصوات : أها ، لقد اعترف ! السافل .
- السائح الطويل : سجل أيها الشرطي . انه بهدف الريح . . . استغل محبة القريب . . تلك العاطفة المقدسة أ . . أ . . أ . .
- السائح السمين : يا أبنائي اسمعوا ، انهم يكتبون المحضر . يا لها من بلاغة !
- السائح الطويل : العاطفة المقدسة ، التي . . .
- الشرطي : (يكتب باندفاع عاضا على لسانه) محبة القريب تلك العاطفة المقدسة ، التي . . .
- ساشا : (ببرود) يا أبي ، أيها الاطفال . انظروا : راية تتقدم ! (يظهر عدد من الموسيقيين ، يحملون الابواق والطبول ، ويسير في مقدمتهم رجل يحمل على عصا طويلة راية كبيرة جدا ، رسم عليها شخص ذو شعر طويل جدا ، وكتب تحت الرسم « كنت أصلعاً »)
- المجهول : لقد تأخرتم أيها الاخوة . انهم يكتبون المحضر . فانصرفوا بسرعة .
- أحد الاشخاص : (يقف ويتكلم بصوت عال) لقد كنت أصلع منذ ولادتي ولسنوات عديدة ، ذلك النبات الضئيل الذي كان يغطي جمجمتي في السنة العاشرة من عمري ، كان أشبه بالصوف منه الى الشعر . وعندما تقدمت للزواج كانت جمجمتي عارية تماماً كالمنخدة ، وعروستي الصدية . . .

السائح السمين : يا لها من مأساة ! عريس يمثل هذا الرأس • أتتصورون ذلك،
ما أروع هذا يا أبنائي ؟

يصغى الجميع بانتباه ، حتى الشرطي نفسه يجمد
والريشة بيده) •

الشخص : وجاءت اللحظة التي أصبحت فيها سعادتني الزوجية متعلقة على
شعرة • إذ ان جميع العقاقير التي وصفها لي الدجالون لتنمية
الشعر ...

السائح السمين : أخرج دفتر المذكرات ، يا بيتيا •

السيدة العدائية : أيسقط في آخر الامر ، أم لا ؟

صاحب المقهى : (مشيرا) في المرة القادمة أيتها السيدة ، في المرة القادمة لن
أربطه بقوة •• أتفهمين ؟ ••

ستار



قصائد

من شعر بابلونيرودا

ترجمة: الأَب الياس زحلاوي

السماط العظيم

عندما وُجِهت الدعوة للوليمة ،
تدافع الطفلة

- وصواحبهم العواهر العابرات -
جميلاً كان مشهدهم يمرون
كالزنابير ذوي الصدور القوية ،
تلاحقهم أولئك النمرور العامة ،
الشاحبة ، البائسة •

- في الحقل أكل ، الفلاح
نصيبه المتواضع من الخبز •
كان وحيداً ، وكان الوقت قد فات •
وكان القمح ' يحيط به ،
ولكنه لم يبقَ لديه خبز ،

فأكله بصعوبة ،

• وهو يخذق اليه بعيون قاسية •

وفي ساعة الغداء الزرقاء ،

وساعة الشواء اللامتناهية ،

يترك الشاعر قيثاره ،

ويمسك بالسكين والشوكة ،

ويضع كأسه على المائدة ،

• ويسارع الصيادون الى قاع الحساء •

وتحتج قطع البطاطا ،

• تلعقها السنة الزيت •

والحمّل' المذهب وسط الجمر ،

• فيما البصل يتعري •

محزن أن يأكل الانسان بلباس رسمي ،

• إن هذا إلا أكل في نعش •

اما أن يأكل في الأديرة ،

• فهو الايذان بأنه يأكل تحت الارض •

منتهى المرارة أن يأكل وحيداً •

• أما ألا يأكل ، فشيء عميق ،

شيء أجوف ، أخضر ، ذو أشواك ،

كسلسلة من الصنابير ،

تسقط من القلب ،

• وتسمرك في الداخل •

• أن يجوع الانسان أمر يشبه الكمّاشة ،

يشبه عضّة السرطان ،
يحرق ، يحرق ، ولا نار له :
الجوع حريق بارد •
فلنجلس سريعاً كي نأكل
مع جميع الذين لم يأكلوا •
ولننشر السمط الطويلة ،
والمالح في بحيرات العالم ،
والمخابز الكونية ،
وموائد الفراولة فوق الثلج ،
ولنأت بصحن كالقمر ،
نأكل فيه كلنا •

أما الآن فلست أطالب بأكثر
من عدالة الغداء •

(من ديوانه « استرافاغاريو » أو « هديان ») ١٩٥٨

لا تسلني

قلبي مثقل
بالعديد من الاشياء التي أعرف •
لكأني أحمل حجارة
ضخمة في كيس ،
أو لكأن المطر انهمر
دونما انقطاع ، في ذاكرتي •

لا تسلني عن هذا ،

- لست أدري عما تتكلم
- لم أعرف ما الذي حدث
- والآخرون بدورهم لم يكونوا يعرفون ،
- فتنقلت هكذا من ضباب الى ضباب ،
- ظناً مني بأن شيئاً لم يكن ليحدث ،
- باحثاً عن فواكه في الطرقات ،
- وعن أفكار في المراعي ،
- وكانت النتيجة كالاتي :
- أن الجميع على حق ،
- وإني أثناء ذلك كنت أنام
- فأركم' بسبب ذلك ، فوق صدري ،
- لا حجارة وحسب ، بل ظلاً ،
- لا ظلاً وحسب ، بل دماً

- هكذا هي الاشياء ، أيها الفتى ،
- وهي أيضاً ليست كذلك
- فأنا ، على الرغم من كل ذلك ، أحيا ،
- وصحتي ممتازة ،
- ونفسي تنمو ، وأظفري ،
- أقصد الحلاقين ،
- أعبّر الحدود وأعود منها ،
- أطالب بأهداف ، وأسجلها
- ولكن ، إن شاء المنافقون
- أن يعرفوا أكثر ، فانهم سيخيّبون

وإن سمعوا الحزن ينبع ،
بالقرب من منزلي ، فذلك كذب :
فالوقت الصافي هو الحب ،
والوقت الضائع هو النحيب .
وهكذا ، عن الأشياء التي أذكر ،
وعن تلك التي غادرت ذاكرتي ،
عما أعرف ، وعما عرفت ،
وعما فقدت في الطريق ،
بين العديد من الأشياء المفقودة ،
وعن الموتى الذين لم يسمعونني ،
والذين قد يكونون ودوا أن يروني ،
من الاجدى ألاّ تسلني :
ألمس هنا ، فوق سترتي ،
ترآكم ينبض
كيس من الحجارة الغامضة .

وكم تراه يحيا ؟

أخيراً ، كم ترى الانسان يحيا ؟
هل هو يحيا ألف يوم أم يوماً واحدا ؟
اسبوعاً أم قرونًا كثيرة ؟
ولأي فترة يموت الانسان ؟
ماذا تعني : « إلى الأبد » ؟
أستبدت بي هذه المشكلة ،

فانصرفت الى استيضاح الاشياء •
بحث عن الكهنة العلماء ،

أرهقتهم أسئلتي •
هم أيضاً لم يكونوا ليعرفوا الكثير ،
لم يكونوا سوى موظفين •
واستقبلني الأطباء ،
ما بين معاينة وأخرى ،
وفي كل يد مبضع ،
غارقين في الأوريويميسين ،
وفي العمل يوماً بعد يوم •
الذي فهمته من خلال ما قالوا ،
أن المشكلة هي التالية :
لم يقتل يوماً مثل ما قتل من الجراثيم ،
سقطت بالأطنان ،
ولكن البقية الباقية
تبدت خبيثة •

ولقد أثاروا فيّ من الهلع ،
ما دفعني إلى البحث عن حفّاري القبور •
قصدت الأنهر حيث تحرق
جثث كبيرة ملونة ،
وأموات صفار هزيلون ،
وأباطرة تغطّيهم

قشور مرعبة ،
ونساء حصدتهن فجأة
رشقة غضب •
كانت ثمة شواطئ من الموتى ،
وأخصائون رماديون •
عندما حان دوري ،
طرحت عليهم بعض الأسئلة ،
فاقترحوا عليّ أن يحرقوني :
كان ذلك كل ما يعرفونه •

وفي بلدي ، قال لي
حفاروا القبور ، بين كأس وأخرى :
— « تدبر أمرك بفتاة قوية ،
وتخلّ عن هذه الحماقات • »
لم أر يوماً بشراً مرحين كهؤلاء •
كانوا يغنون وهم يرفعون نخب
الصحة والموت •
كانوا فساقاً مارقين •

وعدت الى بلدي أشدّ هرمًا ،
بعد أن جبت العالم •
لا أطلب شيئاً من أحد •
ولكنني أزداد جهلاً يوماً بعد يوم •

وارتحلت المدينة

- مثلما أن الساعة تتقدم دون أن تسرع ،
بثقة تمكنها من التهام السنوات :
فالأيام عناقيد عنب ، صغيرة وعابرة ،
والشهور المنسلخة عن الزمان تفقد ألوانها .
والدقيقة ترحل نحو الوراء ، ترحل تطلقها
أكثر المدفيعيات صموداً .
وفجأة لم يعد يتبقى لرحيلنا إلا سنة .
شهر ، يوم ، ويطال الموت التقويم .
- ما من انسان استطاع أن يوقف المياه الهاربة ،
ولم يتمالك فكري ذاته بحب ،
بل استمر ، استمر راكضاً بين الشمس والكائنات ،
وقد قتلنا نشيده العابر .

- وأخيراً نسقط في الزمان ، ممددين ،
ويدفعنا ، فاذا بنا راحلون ، موتى ،
مساقون ، دونما وجود ، ونصبح لا بالظل ،
ولا بالغبار ولا بالكلام ، والكل يتوقف هنا ،
وفي المدينة ، حيث لن نعود نحيا ،
تظل الالبسة والكبرياء فارغة .

ولادة ذاتية

جميع الذين كانوا يقدمون لي النصح

- يزدادون جنوناً يوماً بعد يوم ،
- لحسن حظي ، لم أصغ اليهم ،
- فانتقلوا الى مدينة أخرى
- حيث يعيشون جميعاً معاً
- ويتبادلون القبعات

كانوا رعايا محترمين ،

ولهم فكر سياسي عميق •

وكان كل خطأ ارتكبه ،

يسبب لهم من الألم

ما ضربهم بالشيب والنجعد ،

ومنعهم عن أكل الكستناء ،

ثم جعلتهم كآبة خريفية

• أخيراً يهدون

الآن لست أدري إن كان يجب علي الاعتصام

بالنسيان أم بالاحترام ،

إن كان يجب علي أن أتلقى النصح ،

أو أخذ عليهم هديانهم :

حراً ، لست أصلح لشيء ،

أتيه بين العديد من أوراق الشجر ،

ولا أدري إن كان يجب علي أن أخرج أو أدخل ،

أن أسير أو أتوقف ،

• أن أبتاع قطعاً أو بندورة

سأحاول أن أفهم
ما يجب عليّ ألاّ أفعله ، فأفعله ،
فأستطيع بذلك أن أبرر
الدروب التي سأفقدھا •
فان لم أرتكب خطأ ،
من تراه سيصدق أخطائي ؟
وان احتفظت بتعقلي
فلن يقيم أحد لي وزنا •
ولكني سأحاول أن أتغير :
سأحيي بلباقة ،
سأعنى بالمظاهر ،
باجتهاد واندفاع ،
حتى أصبح كل ما يريدون لي
أن أكون ،
وآلا أكون ،
حتى لا أكون سوى الآخرين •
ولئن تركوني عندها وشأني ،
فسأستبدل شخصي ،
وسأستبدل جلدي ،
وعندما سيصبح لي قم آخر ،
وأحذية أخرى ، وعيون أخرى ،
عندما أصبح آخر ،
سأبقى أتصرف على هذا النحو ،
لاني لا أعرف أن أفعل شيئاً آخر •

أطلب الصمت

- فلأترك الآن وشأني
- وليألفوا الآن غيابي
- سأغمض عيني
- لست أريد سوى خمسة أشياء ،
- خمسة جذور مفضلة

- أحدهما الحب دونما نهاية
- ثانيهما مشاهدة الخريف
- فلا يسعني أن أكون ، ان لم تتطير
- الاوراق وتعد الى الارض
- ثالثها الشتاء الرصين ،
- والمطر الذي أحببت ، ومداعبة
- النار في صقيع الغابات
- رابعها الصيف
- المستدير كالبطيخة
- وخامسها هو عيونك ،
- يا ماتيلدا ، حبيبتي ،
- لست أريد أن أرقد من دون عينيك ،
- لست أريد أن أكون دون أن تنظري اليّ :
- فأنا أبدل الربيع
- كي توأصلي التحديق اليّ
- أصدقائي ، هذا ما أريد
- يكاد يكون لا شيء وكل شيء
- ارحلوا الآن ، ان رغبتهم في ذلك

- لطالما استهلكت من العمر ،
حتى أنكم ستضطرون حتما لنسياني •
وستسقطوني من اللوح :
فليس لقلبي نهاية •
ولكن إن كنت أطلب الصمت ،
فلا تظنوا اني على وشك الموت :
ما يحدث لي هو نقيض ذلك ،
فالذي يحدث هو أنني أوشك أن أحيأ ذاتي ،
الذي يحدث هو أنني قائم وأقوم •
أليس ذلك لان في أعماقي ،
تنمو الزروع ،
وفي طليمتها الحبوب التي تشق
الارض لتبصر النور ؟
إلا أن الارض الام غامضة ،
وأنا في أعماقي غامض :
فأنا شبيه ببئر ، في مياهها
يودع الليل نجومه ،
وهو يواصل السير وحيدا عبر الحقول •
الواقع أنني لطالما نهلت من الحياة ،
حتى انني أريد أن أحيأ أيضا عديل ما عشت •
لم أجدني يوما على هذا القدر من الارتعاش ،
لم أوفق يوما بمثل هذا القدر من القبلات •
الان ، كما في كل آن ، لم يحن الوقت بعد •
النور يطير بنحله •
دعوني وحدي مع النهار •
أسأل أن يؤذن لي بالولادة •



معجم الأساطير اليونانية والرومانية

رعى واعداد سهيل عثمان
عبد الرزاق الأصغر

القسم الرابع

□ أومولبوس Eumolpos

هو ابن بوزيدون وشيونه . ألقته أمه في اليم فتلقيه أبوه الى البحر وأوصله الى ساحل أثيوبيا ، حيث تبنته بانتيسيسيمه بنت بوزيدون من أمفريت وزوجته إحدى بناتها ، ثم طرد لما سولت له نفسه اغتصاب إحدى أخوات زوجته ، فالتجأ الى تراقيا وتآمر على ملكها تيجيريوس فطرد من جديد والتجأ الى ايلوزيس وأصبح ملكا عليها وكاهنها الاعظم الذي أسس العبادة السرية التي تقدر ديمترا ثم هلك على يد ايرينختوس أثناء الحرب بين مدينته ومدينة أثينا . وقد انتقم زوس لمصرعه بالحاح من بوزيدون بأن قصف ايرينختوس بأحدى صواعقه . وقد خلف أومولبوس في الكهنوت ابنه الاصغر سيريكس وبقيت هذه الوظيفة في أعقابه . وبعض الروايات تفرق بين أومولبوس الكاهن وأومولبوس الملك .

□ أونوبيون (بالاغريقية وانوبيون) Oenopion

هو ملك جزيرة شيوس وابن أريان وديونيزوس . تعلم من أبيه صناعة الخمر وأدخل صناعة الكرمة في جزيرته . أشهر أولاده ابنته ميروب التي عشقها

أوريون ولأجل أن ينالها قتل كل الوحوش التي كانت تعيش في الجزيرة فسادا .
وذلك حسب شرط والدها الذي لم ينجز وعده بتزويجه اياها . ولكن أوريون
اغتصب الفتاة ذات ليلة بينما كان أبوها ثملا . وانتقم الملك لشرف ابنته بأن
سمل عيني أوريون وطرده من البلاد .

□ أونوس بالاغريقية (وانوس) وتعني الخمر Oenée

هو ملك كاليديونيا في ايتوليا تزوج أثيا فولدت له عدة أولاد منهم
ميلياغروس . أعطاه ديونيزوس الكرمة وسر الخمر . وفي مملكته جرت أمور
هامة منها صيد الخنزير الذي فاز فيه ميلياغروس . وفيها قام هرقل بعدد من
أفاعيله العجيبة قبل زواجه بديجانير . ثم أقصي أونوس عن العرش على يد
أبناء أخيه أغريوس الذين قتلوه فانتقم له حفيده ديوميدي .

□ أونوماوس Oenomaos

هو ابن آريس اله الحرب وملك بيزا في مقاطعة الايليد ووالد الحسناء
هيبودامية . وقد ذكرت له احدى النبوءات أن موته مقترن بزواج ابنته هذه
ولذا أعلن أنه لن يزوجها الا من يغلبه في سباق العربات . وكان مطمئنا الى
النتيجة لأن بوزيدون آله البحر - وقيل والده أرس - قدم له جيادا لا تسبق ،
وهكذا هلك كثير من طلاب يد هيبودامية لأنه كان يقتل مسابقه المغلوب .
وأخيرا استطاع بيلوبس أن يتغلب عليه بحيلة وذلك بأن رشا سائسه فألصق
عجلات عربته على محورها بالشمع وفي أثناء السباق ذاب الشمع فانفصلت
العجلات ومات أونوماوس تجره جياده وتزوج بيلوبس هيبودامية .

□ أونوماوس في الفن : تظهر على الأنية الاغريقية صورة السباق بين أونوماوس
وبيلوبس . وهناك نقوش بارزة تزين الواجهة الشرقية لمعبد زوس في أولمبيا
تعود الى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تمثل السباق . ويبدو فيها أونوماوس
ملتحيا ومتكبيرا مفعما بالثقة وعلى رأسه خوذة الحرب .

□ أونون وبالاغريقية (وانون) Oenone

هي حورية فريجية والدها اله النهر سيبرن • اختطفها باريس الى قمة جبل ايدا حيث تزوجها وولدت له كوريشوس ثم هجرها زوجها لما عشق هيلين فماتت غما • ويقال إنها لم تمت مباشرة وان باريس لما جرح في حرب طروادة جرحا بليغا استدعاها للعناية به لعلمه أنها الوحيدة القادرة على شفائه فرفضت متأثرة بخيانتة لها ولكنها عندما سمعت بموته انتحرت شنقا أو حرقا •

□ أياكوس Eaque

هو ابن زوس وايجين وملك جزيرة ايجين ووالد تيلامون وبيلياس • عندما ضرب الطاعون بلاده وأهلك أهلها استجاب زوس دعاءه بأن حول النمل بشرا فأصبحوا يعرفون بالميرميدون أو شعب النمل • وشاركوا في حرب طروادة بقيادة أخيل • وبعد أن توفي أياكوس جعله زوس قاضياً في عالم الاموات الى جانب مينوس ورادامانت • وهو جد البطلين أجاكس وأخيل •

□ ايبافوس Epaphos

هو ابن زوس من ايو • وكانت هيرا قد غضبت عليها فحولتها عجلة • ولما آلت ايو الى مصر استعادت صورتها البشرية الجميلة وولدت ايبافوس على شاطئ النيل غير أن الكهنة أخفوه بأمر من هيرا ولكن أمه عادت فوجدته ولما أصبح شاباً ملك مصر وتزوج في منفيس التي يروى أنه بناها ، وأنجب ثلاث بنات هن ليزياناسا وطيبة وليبيا • وهذه الأخيرة تزوجها بوزيدون فولدت منه آجينور وبيلوس ولما مات ايبافوس عبد في مصر كتجسد للاله الثور آبيس •

□ الأبيغونيون Les Epigones

هم الابناء السبعة للأبطال السبعة الذين اشتركوا في الحملة الأولى على مدينة طيبة التي قادها أدراس ملك أرغوس انتصاراً لبولينيس الذي كان أخوه قد طرده من طيبة وقد هلكوا جميعاً ما عدا أدراس • وحين شب أبناؤهم السبعة

– الأبيغونيون – قاموا بحملة ثانية انتقاما لمصرع آبائهم • وقد أنبأهم وحي معبد دلفي بأنهم لن ينتصروا الا اذا رأسوا عليهم أحدهم وهو الكميون بن أمفياروس • وقبل هذا رئاستهم تحت ضغط والدته • وقد فاجأوا المدينة وانتصروا في معركة حاسمة وقدموا قربانا للاله أبولون الذي صدقهم وعده • ونصبوا أحدهم وهو ثرساندروس ابن بولينيس ملكا على طيبة •

□ ايبيكوس Ibycos

شاعر غنائي يوناني عاش في أواسط القرن السادس قبل الميلاد في بلاط الطاغية بوليقرات في ساموس • وقد نسجت حول موته إحدى الاساطير • وذلك أنه عندما اغتيل طلب من سرب من اللقلق أن ينتقم له • وحدث أن سربا من اللقاليق مر من فوق مسرح احتشد فيه الناس فلما رآه أحد القتلة صاح مذعورا انها طيور الانتقام لايبيكوس ، فكشف بذلك عن نفسه وقبض عليه فاعترف أمام الجمهور ، وأعدم هو وشركاؤه في الجريمة •

□ ايبيميثيوس Epiméthée

هو المارد ابن المارد جابيت وأمه كليمينية وأخوه بروميتيوس • عندما أراد بروميتيوس محب البشر أن يتحدى زوس الغاضب على البشرية نصح أخاه ايبيميثيوس بالألا يقبل أية هبة من زوس • ولكن أخاه لم يجرؤ على رفض باندورا الجميلة التي قدمها اليه زوس ومعها علبة مغلقة تحتوي على الأوبئة والكوارث • ولما فتحتها بدافع الفضول انطلقت منها الشرور لتصيب البشرية •

□ ايببيوس Epéios

أحد أبطال الاغريق في حروب طروادة كان على رأس ثلاثين مركبا • وجاءت شهرته الحربية من صنعه حصان طروادة الخشبي بوحى من الآلهة • وبواسطة هذا الحصان استطاع الاغريق دخول طروادة ونهبها وتدميرها • وبعد ذلك ذهب الى ايطاليا وأنشأ مدينتي ميتابونت وبيزا • ويقال أن نساء طروادة أحرقن مراكبه فمنعته من العودة الى وطنه •

□ ايتالوس Italos

تذكر احدى الروايات أن تيليفونوس كان ثمرة العلاقة بين أوليس والساحرة كيركة . وقد قتل تيليفونوس والده أوليس دون قصد منه وتزوج أرملة أبيه بينيلوبه فولد لهما ايتالوس الذي سميت ايطاليا باسمه ، لانه أصبح ملكا على شعبها القديم وتقول رواية أخرى أنه بطل ايطالي أصيل .

□ ايتنا Etna

هو البركان الشهير القائم في صقلية مطلا على مدينة كاتان وقد سمي باسم ايتنا الحورية التي فصلت في الخصومة بين هيبايستوس وديمترًا حول امتلاك جزيرة صقلية ، وهذه الحورية هي بنت أورانوس وغايا . وفي الاساطير أن زوس سجن تحت هذا الجبل الماردین تيفون وأنكيلادوس اللذين تحديا سلطة الأولمب . وأن الهزات البركانية من اختلاجهما والشواظ من أنفاسهما . وفي رواية لاتينية أن جبل ايتنا هو مقر فولكان آله النار الذي كان يصنع فيه بمساعدة المردة السيكلوبات صواعق جوبيتر وأسلحة الأبطال .

□ ايتيس Itys

هو ابن تيروس وبروكنة . لما دنس تيروس فيلومين أخت زوجته وقطع لسانها لثلاث بوح انتقامت الأختان منه بأن قتلتا ابنه ايتيس وقدمتا له على مائدة الطعام .

□ ايتيوكل Eteocle

هو ابن أوديب . كان أوديب قد قتل أباه وتزوج أمه جوکاست بدون أن يعلم . فولد له منها ايتيوكل وبولينيس وبناته ايسمين وأنتيغون ، ولما اكتشف فعلته سمل عينيه ، وطرده ابناه من طيبة التي كان يحكماها ، فلعنهما وأنذرهما بعداوة أبدية . وتنبأ بأن سيقتل كل منهما الآخر . وقد حكم الأخوان طيبة بالتناوب ولما انتهت سنة حكم ايتيوكل وطالبه أخوه بدوره في الحكم استأثر

ايتيوكل وطرد أخاه الذي التّب على طيبة عددا من حلفائه في حرب السبعة ضد طيبة • وأثناء هذه الحرب تبارز الاخوان فقتل كل منهما الآخر • ونظرا لأن ايتيوكل كان يدافع عن المدينة فقد استحق التشييع المناسب بينما حرم أخوه من الطقوس الجنائزية •

□ ايجوس Egée

ملك أثينا ووالد تيسيوس وهو مؤسس أعياد الآلهة أثينا • قتل أندروجيه بن مينوس ملك كريت فحكم عليه بأن يرسل الى كريت سنويا سبعة غلمان وسبع فتيات من أثينا ليأكلهم المينوتور وحش الجزيرة ، وقد أرسل ايجوس ابنه تيسيوس في آخر فوج من الضحايا وأوصاه بأن يقتل المينوتور اذا استطاع وأن يبدل بأشعة السفن السود أشرعة بيضا دلالة على نجاته وظفّره • وقد انتصر تيسيوس وقتل المينوتور ولكنه نسي أن يبدل الاشرعة فلما رآها ايجوس الذي ينتظر على مرتفعات الشاطئ ظن أن ابنه قد هلك فألقى بنفسه في البحر الذي حمل اسمه (بحر ايجه)

□ ايجيبتوس Egyptos

هو ابن بيلوس والأخ التوأم لدانايوس • وقد رزق ايجيبتوس خمسين ولداً قتلوا كلهم على يد بنات عمهم دانايوس ما عدا واحداً منهم وقد حكم ايجيبتوس مصر التي سميت باسمه •

□ ايجيد (ايجيس باليونانية) Egide

هو في الاصل درع زوس التي لا تثقب وقد أصبح فيما بعد علما على درع ابنته أثينا وهو عبارة عن ثوب من جلد الماعز مزخرف بصور الثعابين ومغطى بالحرشف وفي وسطه رأس سعادة • وقد صنع ايجيد أثينا من جلد العنزة امالتيه ويشاهد في تماثيلها مغطيا كتفيها وصدرها •

□ ايجيريا Egérie

احدى ربّات الليل عند الرومان • كانت زوجة ومستشارة لنوما بومبيليوس

ثاني ملوك روما وقد تحولت بعد موتها الى ينبوع يجري قرب أريسيا في اللاتيوم وقد عبدها الرومان باعتبارها الآلهة المهيمنة على الولادات .

□ ايجيست Egistne

ابن ثيستوس . قتل عمه أتريوس واستولى على السلطة في ميسين فطرده منها ابن عمه آغامنون . وفي أثناء حرب طروادة أغوى ايجيست كليتمنسة زوجة آغا ممنون واغتاله عند عودته ، فثار له ابنه أورست وقتلها .

□ ايجيميوس Aegimius

هو الجد الاسطوري للدوريين . أسر في معركة ضد اللابيتيين فطلب مساعدة هرقل وأراد أن يكافئه باعطائه ثلث مملكته . الا أن هذا رفض بإباء وأراد ايجيميوس أن يعبر عن عرفانه لجميل هرقل فتبنى أحد أولاده (هيلوس) ومن اسمه واسم أخويه بانفيلوس وديماس إبني ايجيميوس جاءت أسماء ثلاثة أعمدة دورية .

□ ايدا Ida

جبل في كريت يوجد فيه الكهف الذي ولد فيه زوس وقد سمي هذا الجبل باسم مرضعته ايدا . وهناك قمة بهذا الاسم بالقرب من طروادة وتدعى حالياً (كازداغ ١٧٥٠ م) وقد اتخذها الآلهة مقراً لهم أثناء حرب طروادة ، وعليها جرى تحكيم باريس بين الآلهات المتنافسات على تفاحة ايريس الذهبية .

□ ايداس Idas

هو ابن آفاريه ، اختطف ماريسا أميرة ايتوليا وحفيدة آريس وكان أبولون يحبها ويريدها لنفسه ، فخيرها زوس بينهما فاخترت ايداس . وقد اشترك ايداس في صيد الخنزير البري في كاليدونيا وفي رحلة الأرغيين ، ونشبت بعدئذ معركة بينه وبين ابني زوس كاسترو وبولينيكس المعروفين بدioskور بسبب الخلاف على قسمة قطيع فقتل ايداس كاستور وهم بقتل أخيه لولا أن تدخل

أبوهما فضرب ايداس بالصاعقة . ويقال ان سبب النزاع خلاف بينه وبسين
الاخوين ديوسكور على حب ابنتي لوسيوس هيليرا وفوابيه .

□ ايدومينوس Idomenée

هو حفيد مينوس ملك كريت وقائد الكريتيين في حرب طروادة ، وهو أحد
الذي اختبأوا في جوف الحصان الخشبي وتمكنوا من دخول طروادة . وكانت
عودته الى بلاده حميدة حسب رواية الأوديسة ولكن بعض الروايات الأخرى تزعم
أنها كانت عودة مشؤومة فحينما داهمت أسطوله العواصف نذر أن يضحي لبوزيدون
أول من يستقبله عند عودته ، وكم كان هلعه عظيماً حين لقي على الشاطئ ابنه
الحبيب أول مستقبله . وترجع الروايات أنه وفي بنذره فغضبت عليه بقية
الآلهة وأصابت كريت بالطاعون فطرده أهلها الى كالابريا حيث أسس مدينة
سالانت ونقل اليها قوانين جده مينوس الحكيمة .

□ ايلون Aedon

هي بنت بانداريوس وزوجة زيتوس ملك طيبة . لم ترزق الا ولداً واحداً
هو ايتليوس . فحسدت نيوبيه زوجة أخيها على كثرة أولادها وأرادت أن تقتل
لها ابنها البكر ولكنها أخطأت فقتلت ابنها الوحيد مما سبب لها آلاماً شديدة حتى
أسفق عليها زوس وحولها بلبله .

□ ايراتو Era'o

هي ملهمة الشعر الغنائي والغرامي عند الاغريق ، إليها توجه فيرجيل عندما
أراد نظم الانبادة وكان الفنانون يمثلونها أو يصورونها فتاة تحمل بيدها
اليمنى قيثاره وباليسرى سهماً ، ويتوجون رأسها بالأس والورد .

□ ايرجينوس Erginos

هو ابن كليمينوس ملك المنين في أورشومين . وقد قتل أبوه تحت إحدى
العربات الطيبية أثناء الاحتفال بعيد بوزيدون ، فغضب ايرجينوس وشن حملة

على طيبة أحرز فيها انتصاراً سريعاً وأرغم سكانها على دفع جزية سنوية مقدارها مئة ثور سنوياً لمدة عشرين عاماً . ولكن هرقل قبض على رسله الذين جاؤوا لأخذ الجزية المعتادة فصلم آذانهم وجدع أنوفهم وغل أعناقهم بالحبال وأرسلهم إلى إيرجينوس ، فغضب هذا وزحف ثانية على طيبة التي كان يحكمها كريون ولكنه اصطدم هذه المرة بجيش من شباب طيبة يقوده هرقل فهزم وقتل . وفي زاوية أخرى أنه عاش بعد هزيمته وشارك في رحلة الارغيين وتزوج وأنجب المعمارين المشهورين آغاميد وتروفونيوس .

□ ايروب Aerope

هي زوجة آتريوس وقد خانته مع أخيه ثيستوس الذي قدمت له الكبش الذهبي وبفضل هذا الكبش كان يجب أن يصبح حاكماً شرعياً لمنطقة ميسين ولكن آتريوس عرف كيف يحول بينه وبين الحكم .

□ ايروس Iros

١ - متسول أتيكبي حاول أن يبعد أوليس عن مملكته بلمكة من يده أثناء ابتهاج الطامعين في بينيلوبه إلا أن البطل قتله .

٢ - ثمة ايروس آخر هو والد الأرعين أوريداماس وأوريتيون . قتل بيليوس خطأ أحد أبنائه ودفع ديتة قطعانا من الماشية فرفضها ايروس وتركها في العراء فأكلها الذئب ثم تحول هذا الوحش إلى تمثال من الحجر .

□ ايروس، Eros

١ - هو أحد الآلهة المبكرة التي حكمت الكون قبل ظهور البشر وتتعدى قدرته الاحياء إلى الجمادات والنباتات وهو الذي جعل النظام والترابط في أجزاء السديم الكوني الأول وهو القوة الممجة والمازجة والموحدة ، انه القوة الجاذبة التي تحمل الموجودات على التألف لانتاج الحياة .

٢ - آله الحب عند الاغريق وهو ابن أفروديت وأريس وزوج بسيشة وقد

اتحد عند الرومان بكيوبيد اله الحب وصوره الفنانون بهيئة غلام مجنح يرمي
بسهامه قلوب البشر ويوقد في نفوسهم شعلة الهوى .
٣ - ايروس أو الحب عند أفلاطون هو هبة الآلهة للانسان ويعني التشوق
الى الخير والخلود .

□ ايريب Erèbe

تعني في الاصل الظلمات وربما أطلقت على ظلمات الجحيم ثم تشخصت
فأصبحت تعني ابن السديم وأخا الليل وفي الاساطير أن ايريب ساعد المردة في
حربها ضد آلهة الأولمب فألقي في الجحيم .

□ ايريختوس Erechthée

بطل أتيكي قديم وهو ابن هيبايستوس وجيا . عهدت به أمه الى الآلهة أثينا
لتنشئه وعندما شب وأصبح ملكاً على أثينا أدخل عبادة هذه الآلهة اليها . وقد
حكم في الخصومة التي قامت بين بوزيدون وأثينا وعبد مع هذين الالهين في معبد
أريختيون في الأكروبول وهذا المعبد يحتوي على قبره وتوحده بعض الروايات
بأيرختونيوس الذي حمل طفلاً في سلة الى بنات سيكروبس .

٢ - وقد سمي بهذا الاسم حفيده الذي ملك أثينا . وكانت له سبع بنات
متحابات تواتقن على أن ينتحرن جميعاً اذا ماتت احدهن . وقد تعرضت أثينا
في أيامه الى هجوم شنه عليها أومولبوس بن بوزيدون . ولما استشار ايرختوس
هذا عرافة دلفي أشارت عليه أن يتقرب الى الآلهة بأحدى بناته ففعل وانتصر
ولكن أخواتها انتحرن وفاء لعهدهن .

وتلبية لطلب بوزيدون الغاضب ضرب زوس ايرختوس بأحدى صواعقه
فأهلكه .

□ ايريختونيوس Erichthonios

لما كان الاله هيبايستوس يلاحق الآلهة أثينا بغرامياته العنيفة. مست بعض

نطفه ساق الآلهة ووقعت على الارض فكان منها طفل يدعى اريختونيوس وقد وضعته أثينا في صندوق مغلق وأودعته عند باندوروس احدى بنات سيكروبس وأوصتها بالآلا تفتح الصندوق . وبما عهد عند المرأة من الفضول فتحت الاخوات الصندوق وفوجئن بالطفل ومعه ثعبانان . ومن هول المشهد وشدة الفزع القين بأنفسهن من فوق قلعة أثينا . وقد أصبح ايريختونيوس فيما بعد ملكاً على هذه المدينة وأدخل عبادة أثينا اليها وأقام فيها أعياد الآلهة أثينا .

□ ايريس Eris

هي آلهة الفتنة والشقاق ويقال انها ابنة الليل . ويروى أن هيرا ولدتها حين لمست زهرة وتعد توأم آريس ورفيقته في الحرب وكانت وظيفتها اذكاء العداوة والكراهية بين المتحاربين وهي التي تسببت في نشوب حرب طروادة وقصة ذلك أنها حضرت مآدبة لم تدع اليها فكانت مغتاظلة ولذلك رمت تفاحة ذهبية مكتوباً عليها (الى أجمل فتاة) فتنافست عليها الآلهات هيرا وأثينا وأفروديت واحتكمن الى الامير الطروادي بارييس الذي قدم التفاحة الى أفروديت فكافأته أفروديت بأن قدمت اليه هيلين الجميلة فخطفها بارييس وثارث ثائرة الاغريق ومن أجل ذلك شنوا حملتهم الشهيرة على طروادة . وقد ولدت ايريس مجموعة من الآلهات المجردات الخبيثات كالجوع والتعب والنسيان وغيرها وقد أصبحت تفاحتها رمزا للفتنة .

ايريس في الفن : ظهرت صورتها على بعض المرايا الاتروسكية مجنحة وفي عصر النهضة والعصر الباروكي برز كثيرا في الاعمال الفنية مشهد تحكيم بارييس .

□ ايريس Iris

هي آلهة قديمة . وهي بنت توماس وايلكترا وهي رسولة الآلهة وعلى الأخص هيرا ووصيفتها المخلصة التي تستجيب لادنى رغباتها ويعد قوس قزح تجسيدا لها لانه الجسر الذي يمتد بين الارض والسماء وقد اعتبرها بعض الشعراء المتأخرين زوجة يفيروا وأم ايروس .

ايريس في الفن : تمثل ايريس بشكل فتاة مجنحة على الاواني الاغريقية
حاملة بيدها عصاً أو ابريقاً .

□ ايريستيختون **Erysichthon**

١ - هو ابن أحد ملوك تساليا وكان قد اقتترف خطيئة قطع أشجار غابة
لديمترا فعاقبته بجوع دائم فلم يكن يشبعه شيء فانتهى بأن أكل نفسه .
٢ - هو ابن سيكروبس أحد مؤسسي أثينا .

□ ايريفونة **Erigoné**

١ - بنت كليتمينيسترة من ايجيست .
٢ - بنت ايكاريوس الاثيني الذي قتله رعيان سكارى ولم ينتقم له فشنتت
ابنته ايريفونه نفسها حزنا عليه ولما كان الآله ديونيزوس يحبها فقد غضب
وانتصر لها ورمى بنات أثينا بجنون يدفعهن الى شق أنفسهن على أغصان الصنوبر
ولما استشار الاثينيون عرافة دلفي وجههم الوحي الى انزال القصاص بالرعيان
المجرمين فشنتقوهم وبذلك سكن غضب الآلهة وانحسر الجنون عن بنات أثينا
وقد أقيم عيد في أثينا تخليدا لايريفونة .

□ ايريفيل **Eriphyle**

هي مثال افتتان المرأة بالزينة والتبرج . وهي أخت أدراس وزوجة
أمفياروس . وكانت تقوم بدور الحكم بين زوجها وأخيها . وعندما قرر أخوها
أن يزحف على طيبة انتصارا لبولينيس بن أوديب رفض أمفياروس المشاركة في
هذه الحملة متوقعا الهزيمة ومقتله فيها . ولأجل أن يرغمه أدراس على الاشتراك
في الحرب ، أشار على حليفه بولينيس بأن يقدم لايريفيل عقدا ورداء ثمينين ،
مما جعلها تنسى حب زوجها وتلزمه الذهاب مع الحملة حيث هلك فعلا فانتقم له
ولداه الكميون وأمفيلوكس وقتلا أمهما . ولما كان هذا العقد يجلب الشؤم لمن
يحوزه فقد أهدى الى الآلهة أثينا وأودع معبدها .

ايريفيل في الفن : توجد صورة لبولينيس في ثياب مسافر وهو يقدم العقد الى ايريفيل فتتناوله باليد اليمنى وتعود هذه الصورة الى القرن الخامس قبل الميلاد .

□ ايريكس Eryx

هو ابن الالهة أفروديت ويسمى باسمه جبل في صقلية أقيم على قمته معبد لاهه أفروديت . كان ايريكس ملكاً على مقاطعة ايليم في صقلية وكان يتمتع بقوة خارقة مما جعله يتحدى هرقل . وقد قبل هرقل التحدي على شرط أن يأخذ مملكته اذا غلبه . ولما التحمها رفعه هرقل في الهواء ثم صرعه على الأرض فمات . وأصبحت المملكة من حق هرقل ولكنه تخلى عن حكمها لأهلها وأخبرهم بأن أحد أحفاده سيحكمها في يوم ما وقد كان هذا الحاكم هو دوريوس .

□ ايرينه Irène

هو تشخيص يوناني للسلم واحدى بنات زوس الثلاث الراعيات للنظام الكوني والاجتماعي .

ايرينه في الفن : تمثل ايرينه أو السلم على هيئة امرأة تحمل العصا وقرن الثروة والشعلة وقد اشتهر تمثالها المرمرى الذي صنعه الفنان سيفيزودوت في سنة ٣٨٠ ق م ويمثلها حاملة بلوتوس رمز الثروة والتمثال محفوظ في متحف ميونيخ .

□ الايرينات Les Erinnyes

اسم يطلق على آلهات الانتقام الثلاث تيسيفون وميجير وأليكتو . زعم هزيود أنهن ولدن من الأرض بعد أن أخصبها دم أورانوس أما أسخيلوس فقد روى أنهن بنات أشيرون . أجسامهن مجنحة وجدائلهن من الأفاعي ويحملن مشعلاً وسطاً ويلاحقن المذنبين والمخلين بالنظام العام وينزلن بهم العقوبة في الحياة وبعد الموت أما في الحياة فبالندم وتآنيب الضمير والجنون والخوف من العقاب ، وأما بعد

الموت فيجلد نهم بالسياط ويشتمهم ، وكانت هذه العقوبات تنزل على الاخص
بمن يخفر ذمة المستجير أو الضيف أو يقتل والديه أو يحنث بيمينه . وقد يكون
عقابهم جماعيا كأن يرسلن الوباء على المنطقة التي وقعت فيها الجريمة . وممن
وقع عليهم عقابهم أورست قاتل أمه . ويستطعن القاء الكراهية بين ضحاياهم
كما فعلن بين الاخوين ايتيوكل وبولينيس ابني أوديب . ثم يلفظن مع من تطهر
من ذنبه . وكان الاغريق يذكرونهن بالاجلال والخوف ويتجنبون ذكر أسمائهن
الصريحة بل يكونن عنهن بكلمة (أومينيد) ومعناها الخيرات . أما الرومان
فيسمونهن (ديريا) وتعني الرهيبات .

الايرينات في الفن : درج الفنانون القدماء على تصويرهن بعيون ملتهبة وشعر
من الافاعي وفي أيديهن المشعل والسوط وأحيانا على هيئة صيادات بأثواب قصيرة
ومن تماثيلهن الشهيرة تمثال ايريني النائمة الموجود في روما والعائد الى العصر
الهيلينستي في القرن الثاني ق.م

□ ايزاكوس Aesacus

هو ابن بريام ملك طروادة أحب الحورية هيسبيري التي نهشها ثعبان
فماتت فدفع اليأس ايزاكوس لان يلقي بنفسه في البحر فتحول الى طائر غواص
بقدره تيثيس .

□ ايزيس Isis

هي آلهة المصريين القدماء وزوجة أوزيريس وأم حوريس وكانت آلهة
الخصب والنظام وحامية الأمومة وحاكمة العالم الآخر وبها صلاح الفرد والدولة،
وقد بدأت عبادتها تنتشر بين اليونان في العصر الهيلينستي ثم اتسعت في
الامبراطورية الرومانية وأنشئ لها معبد في ساحة مارس بروما . وكانت
عبادتها تقوم على الاسرار اذ تمثل طقوسها أحزان ايزيس لمصرع زوجها وبحثها
عنه ثم أفراحها عندما يعود الى الحياة ، فالتشابه واضح بين أسطورتها وأسطورة

كل من ديمترا وسيبيل الأولى في بحثها عن ابنتها برسفونة والثانية في بحثها عن حبيبها آتيس . وقد وحدها اليونان أحيانا بايو حبيبة زوس .

□ ايسكولاب (باليونانية اسكليبيوس) Esculape

هو آله الطب عند الاغريق . وهو ابن أبولون وكورونيس . وقد صوره الادب اليوناني المفرق في القدم بصورة بطل بشري . وذكر هوميروس أنه كان حاكم منطقة تيكا في تساليا ووالد بودالير وماشاوون طبيبي الجيش الاغريقي الذي حاصر طروادة . وكان أبوه أبولون قد عهد بتربيته الى شيرون فعلمه الطب حتى نجلب ونبغ وأصبح قادراً على احياء الموتى ولكن زوس اغتاض منه فضربه باحدى صواعقه . وقد انتشرت عبادة ايسكولاب في أرجاء اليونان ولا سيما في أبيدور حيث يوجد معبده الرئيسي الذي يرتاده المرضى معتقدين أنهم يشفون أثناء النوم أو يحلمون بالدواء الناجع . وأقيمت حول المعبد منشآت عديدة منها المسرح الفخم الذي حافظ على بهائه رغم القدم . وفي معبده كانت تمارس عبادة الأفعى وهي الحيوان المنذور لايسكولاب لانها رمز الحياة . وقد اكتسب كهنة معبده خبرة في التشخيص والعلاج اشتهرت بها ابيدور وسائر مناطق عبادة ايسكولاب وبذا أصبحت مراكز لانطلاق الطب اليوناني . وعندما أصاب الطاعون مدينة روما حوالي عام ٢٩٣م أرسل الرومان بعثة الى أبيدور لنقل الآله الى روما وقد عبده الرومان مرموزا اليه بالافعى .

ايسكولاب في الفن : يمثل ايسكولاب بصورة رجل مكتهل وملتح ، عليه ملامح النباهة تلازمه عصاه وأفاعيه ، وكان أسكوباس والكامين أشهر من مثله من النحاتين ، وفي برلين ونابولي نسخ من تمثال الكامين يبدو فيها الآله مغطيا كتفه الايسر بردائه وكاشفا كتفه الايمن ومعتمدا على عصاه التي التفت عليها احدى الحيات . ويوحى شعره ولحيته بشيء من ملامح زوس . وقد فقد تمثاله الذهبي والعاجي الذي صنعه الفنان ثراسيميدي خصيصا لمعبده في ابيدور في القرن الرابع قبل الميلاد . بينما وصلتنا كثير من صورته البارزة . وكانت صورته تزيّن

كتب الطب في العصور الوسطى أما في عصر النهضة فقد أصبح ايسكولاب
صيدلانيا .

□ ايسمين Ismène

هي بنت أوديب من أمه جوكاست وأخت أنتيفون واتيوكل وبولينيس . لما
طرده أوديب من طيبة وطاف مسمول العينين أرجاء اليونان رافقته أنتيفون بينما
بقيت ايسمين في طيبة ، ولكنها كانت بقربه عندما مات في كولونا ثم عادت
بصحبة أختها الى طيبة . وعندما قتل أخوهما بولينيس ومنع كريون تقديم
الشعائر الجنائزية له باعتباره خائنا للوطن ، التزمت ايسمين بأمر كريون خوفا
من الموت، على حين أقدمت أنتيفون على تقديم تلك الشعائر لآخيا مضحية بنفسها .
وقد حاولت ايسمين أن تشاركها في مصيرها المحتوم ولكن أنتيفون أبعدها بلطف
ومضت وحدها الى الموت . وبعد هذه الحادثة يختفي ذكر ايسمين من الاساطير
حتى أن تاريخ موتها وكيفيته مجهولان .

□ ايشيدنا Echidna

هي بنت غايا من بونتوس ، وقد كانت وحشا خرافيا نصفه امرأة ونصفه
أفعى . أنجبت من الوحش المائل تيفون كل أنواع الوحوش الخرافية مثل شميمير
وكلب جيريون وأرثروس وسيرير والاسفنكس ، ووحش بحيرة ليرن ، وتنينات
كولشيد وبستان هيسبيريد ، وميدوزا ، والنسر الذي يأكل كبد بروميثيوس
وغيرها . وقد لعبت هذه المخلوقات الفظيعة أدوارا رئيسية في الاساطير اليونانية .
وعقابا لايشيدنا على هذه الذرية اللعينة وعلى افتراسها المسافرين ، سلطت عليها
الآلهة آرغوس ذا مائة العين فقتلها وهي نائمة .

□ ايفاندر Evandre

تضارب الروايات حول مولد هذا البطل اليوناني الروماني وأشهرها أنه
ابن هرمس والحورية الاركادية نيكوستراتا التي يدعوها الرومان كارمانتا .
أنشأ مدينة بالانتيه في اللاتيوم بعد أن استوطن ايطاليا على رأس جالية يونانية

قبل حرب طروادة بسنوات • وبفضل حكمته وعلمه حاز تقدير السكان الاصليين فعلمهم القوانين الجديدة والكتابة ونقل اليهم عبادة بعض الآلهة • استقبل هرقل بمراسم التقديس كما استقبل اينياس وحالفه في حروبه وبعد وفاته أصبح في عداد الخالدين •

□ ايفيتوس Iphitos

١ - هو ابن أوريتوس ملك أوشاليا • وقد برز كأحد الرماة المهرة مع الأريغيين وهو الوحيد بين اخوته الذي أزر حق هرقل في الزواج من أخته يولا عندما ربح مباراة الرماية ولكن هرقل قتله عندما حاول أن يسترد منه الثيران التي غنمها ويقال أن هرقل أخذته نوبة من الجنون فألقى به من فوق الاسوار •

٢ - ملك بين الاسطورة والتاريخ حكم مقاطعة الايليد في القرن التاسع قبل الميلاد وقد أصيبت مملكته بالانقسام والمجاعات والأوبئة فاستشار عرافة دلفي فنصحته بأن يعيد الألعاب الاولمبية التي أسسها هرقل وأهملها القوم من بعده ففعل ، ومد يده بالمودة الى ليكورغوس حاكم اسبارطة فتحققت بذلك أول وحدة بين أجزاء بلاد اليونان المنقسمة الى دويلات وحكومات متعادية فأصبحوا يتناسون خصوماتهم على الاقل في موسم الألعاب الأولمبية •

□ ايفيجينيا Iphigenie

هي بنت آغا ممنون وكليتمنسترة • حين كان والدها قائدا للاسطول اليوناني الذاهب لاقتحام طروادة أسكنت الآلهة آرتيميس الريح في مرفأ أوليس فعجز الاسطول عن الابحار فأشار عليه الكاهن كالشاس أن يضحي ابنته ايفيجينيا للآلهة آرتيميس • وبعد تردد اضطر الأب الى الاذعان فاستدعى ابنته من مدينة ميسين بحجة أنه سيزفها الى أخيل ، ولما أصبحت تحت السكين أخذت آرتيميس الشفقة عليها فوضعت محلها على المذبح وعلا ويقال انه حملها في غمامة الى توريد في شبه جزيرة القرم حيث جعلتها آرتيميس كاهنة معبدها المسؤولة عن ذبح الغرباء الذين يدخلون المنطقة • وحدث أن أخاها أورست مر بتوريد بصحبة

صديقه بيلاد فلما قدم اليها لتذبحه عرفته وادعت أنه ارتكب جريمة قتل فلا بد من تطهيره قبل تقريبه . وهكذا تمكنت من انقاذ حياته وهربت معه عائدة الى بلاد الاغريق . ويقال انها ماتت في ميغارا وأن آرتيميس وهبتها الخلود . وقد ذكرها هوميروس باسم ايفياناسا ولم يتعرض لحادثة تقريبه . والحق أنها في الاصل إحدى تشخيصات آرتيميس وقد ألهمت ايفيجينيا كثيرا من كتاب العصور القديمة واللاحقة ومنهم أوريبيدس الذي كتب (ايفيجينا في أوليس) و (ايفيجينا في توريد) ومنهم راسين وفوندل وغوته وغلوك .

ايفيجينا في الفن : ظهر منظر تقريب ايفيجينا في كثير من الصور الجدارية في بومبي حيث تبدو فتاة تتقدم الى المذبح بسكينة وظهرت لها رسوم أخرى في هذه المدينة وهي في توريد مع أخيها وصديقه بيلاد . ومن رساميهما في العصور المتأخرة ريتشي وبيتوني وبانكوفيش وتيبولو .

□ ايفيس Iphis

١ - فتاة من كريت حاولت أمها تيليثوزا أن تتخلص منها لان والدها يكره البنات فتدخلت الالهة ايريس ونصحت الأم بأن تلبسها زي البنين ، وهكذا نشأت ايفيس وعندما شبت عشقتها فتاة من الحي تحسبها شابا فتحابتا . ولما حان وقت الزفاف أخرجت تيليثوزا فلا هي قادرة على البوح بالحقيقية ولا هي قادرة على اجراء الزفاف وأخيرا تدخلت ايريس مرة ثانية فحولت ايفيس الى فتى وتم الزواج .

٢ - عاشق الحسناء آناكساريتية الذي انتحر لأنها لم تكن تحبه .

□ ايفيكليس Iphiclès

هو ابن أمفثريون والكمين ويعد الاخ غير الشقيق لهرقل الذي ولدته الكمين من زوس ، وقد ولد ايفيكليس قبل هرقل بلميلة واحدة ولما كان من طينة بشرية فقد أعوزته شجاعة أخيه وقوته الخارقتان . فحين أرادت هيرا ذات ليلة أن تنتقم من غريمها الكمين أرسلت الى بيتها ثعابين في سلة لقتل الطفل هرقل .

ولما شاهدهما ايفيكليس هرب من معهده وجعل يصرخ وأما هرقل الصغير فقد احتفظ برباطة جأشه وخنقهما • وقد ارتبطت حياة ايفيكليس بأخيه البطل فصحبه في عدة حملات وعلى الاخص في حملته ضد اورشومين وقتل في الحرب ضد أبناء هيبوكون •

□ ايكاروس Icare

هو ابن البطل اليوناني ديدال من احدى جوارى مينوس ملك كريت ، وقد حبس الابن والوالد في تيه كريت وتمكنا من الخروج بفضل أجنحة صنعها ديدال والصقاها بجسميهما بالشمع • وقد أعجب ايكاروس بقدرته على الطيران فحلقت عاليا على الرغم من تحذير أبيه له فأذاابت الشمس الشمع فانفصل الجناحان وسقط ايكاروس في البحر فحمل هذا اسمه بعدئذ ، وقد دفن في جزيرة ايكاريا الواقعة في الغرب من ساموس •

□ ايكاريوس Icaros

١ - هو أثني أحسن ضيافة ديونيزوس فكافاه بأن علمه صنع الخمر • وقد افتتن ايكاريوس بشرابه هذا فسقى منه رعاة في وليمة فسكروا وأصابهم صداع وحسبوا أنه سقاهم سما فقتلوه • وقد اكتشفت ايريغونه قبره بفضل حاسة الشم عند كلبتها ميرا فانتحرت فغضب ديونيزوس وأصاب بنات أثينا بالجنون فأخذن يشنقن أنفسهن على جذوع الصنوبر ولم يرفع هذا البلاء الا بعد الانتقام لمصرع ايكاريوس •

٢ - هناك ايكاريوس آخر ينتسب الى بريير وكان هيبوكون قد طرده وأخاه تندار من لاكيديمونيا فعاش في أركانانيا وتزوج الحورية بريبولا فولدت له أبناء منهم بينيلوبه الحسناء التي كانت أحبهم اليه • ولما بلغت سن الزواج أراد أن يصرف عنها الخطاب حتى لا تفارقه فكان يضع العراقيل في سبيلهم وأخيراً جعلها جائزة لمن يستطيع أن يتفوق عليه في سباق العربات ففاز أوليس وأصبحت بينيلوبه من حقه ولكن أباهما اشترط عليه أن يعيش بقربه فلم يرض وخير الوالد ابنته

بين أبيها وفتاها فاحمر خذاها خجلا وغطت وجهها بحجاب فعرف أنها قد اختارت أوليس فخضع ايكاريوس لقرارها وبنى في مكان الحادثة معبداً لالهة الحيام .

□ ايكسيون Ixion

هو ملك اللابيثيين ، تزوج ديا بنت ديونوس بعد أن وعد أباه بهدايا نفيسة، ولكنه نكث بوعدته وزاد على ذلك أن قتل حماه بالقائه في الفرن فثارت ثائرة الآلهة ولم يقبلوا له توبة أبداً فالتجأ الى زوس الذي رق لبكائه ودعاه الى مائدته وأطعمه من طعام الآلهة ، وبدلاً من الاعتراف بجميل كبير الآلهة اشتهى ايكسيون هيرا وحاول تدنسيها فخلق زوس سحابة على هيئة هيرا فاتحد بها ايكسيون وكانت الصانثورات (البشر الأحصنة) ثمرة هذا الحب الوهمي ثم ألقاه في أعماق الجحيم ووكل بتعذيبه هرمس فربطه بأربع أفاع على دولاب مشتعل يدور به الى الأبد ، وهذا يمثل عقاب ناكري الجميل .

□ ايكسيون في الفن : وجدت على بعض الآنية في جنوبي ايطاليا صورة تمثل عقاب ايكسيون وهي عبارة عن دولاب مشتعل تحيط به أربع أفاع وعليه رجل عار مقيد بالسلاسل .

□ ايكو Echo

حورية يونانية من بيوتيا شقيت في حب نرسيس وماتت غماً وبقي صوتها من بعدها فهو الصدى .

□ ايلبيس Elpis

هي الأمل عند اليونان ثم الرومان الذين أسموها سبيس . والأمل هو الشيء الوحيد الذي بقي في علبه باندورا بعد أن غادرتها جميع الشرور . وقد عبدها القدماء ومثلها الرومان بصورة فتاة ترفع ذيل ثوبها باحدى يديها وتحمل باليد الأخرى زهرة في أول تفتحها .

□ ايلبينور Elpénor

هو أحد رفاق أوليس • مسخته الساحرة كيركة خنزيراً ثم استرجع هيئته الانسانية ، سقط وهو ثمل من أعلى قصر كيركة فانكسر رأسه ومات • ولما نزل أوليس الى الجحيم التقى بطيفه فوعده بأن يقيم له جنازاً يليق به •

□ ايلوزيس Eleusis

مدينة صغيرة في أتيكا تقع على خليج يحمل اسمها • اشتهرت بالشعائر السرية التي تقام فيها تكريماً لديمترا وپرسفونه وكان يصلها بأثينا طريق طوله اثنان وعشرون كيلو متراً يدعى الطريق المقدس عند الأثينيين الذين مارسوا هذه الطقوس منذ القرن السابع قبل الميلاد •

□ ايلوس Ilos

هو ابن تروس والهورية كاليرويه وأخو كليوباترة وأساراكوس وغانيميد وحفيد داردانوس ، تزوج أوريديسة فأنجبت له لاوميدون والد بريام وتزوج أخرى ولدت له بنتا هي جدة اينياس • يروى أنه فاز في بعض الألعاب فحصل على جائزة هي جملة من العبيد مع بقرة • وتبع ايلوس البقرة حسب اشارة الوحي فوقفت على هضبة آتية في فريجيا فبنى عندها مدينة ايليون التي سميت فيما بعد طروادة • وقد بارك زوس هذا الاختيار فأرسل اليه تمثال أثينا بالاس حامياً للمدينة الجديدة •

□ ايليثيا Iliithie

هي ربة الأمومة وحامية الوالدات والقابلات وأخت هيبييه وآريس وهييايستوس • أرسلتها هيرا لتساعد النساء في المخاض واتحدت في العصور المتأخرة بهيرا أو آرتميس •

ايليثيا في الفن : تمثل ايليثيا عادة بشكل فتاة ترفع يداً وتمسك بالأخرى

مشعلا مضاءً رمزاً للحياة الجديدة التي ترى النور • وتبدو في بعض الصورلابسة
ثوباً بدون أكمام معقوداً فوق الكتف ومتوجة بصفيرة نباتية •

□ ايليد Elide

مقاطعة في شبه جزيرة المورة ، أشهر مدنها ايليس وأوليمبيا التي كانت تقام
فيها الألعاب الأولمبية الشهيرة على شرف زوس كل أربع سنوات • وكانت ايليد
تعتبر منطقة حراماً لا يدخلها انسان بسلاحه وعلى قاصديها أن يعلقوا خصوماتهم
وحرورهم •

□ ايليزيه Elysée

وتسمى أيضاً حقول الايليزيه (شانزيليزيه) وهي سهل نضر في أقصى الأرض
ينتقل اليه من تصطفهم الآلهة بعد الموت حيث يتمتعون بحياة أبدية سعيدة •



نغوين دو

بقلم نغوين دو
ترجمة . عبدالمعين الملوحي

نغوين دو

(١٧٦٥ - ١٨٢٠ م)

ولد « نغوين دو » عام ١٧٦٥ م ، في أسرة من كبار الموظفين شغل كثير من أفرادها وظائف رفيعة في بلاط أسرة « لي » المالكة . وقبل « نغوين » نفسه في مسابقات المثقفين وشغل مركزاً متواضعاً كموظف عسكري حتى سقوط أسرة « لي » في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وسقوط الأسرتين الاقطاعيتين ، أسرة « ترينه » في الشمال وأسرة « نغوين » في الجنوب ، وقد تم سقوطها كلها على يد الحركة الشعبية الكبرى « تي سون » .

لجأ « نغوين دو » الى الريف ، وحاول تنظيم حركة لمعارضة « تي سون » تستهدف اعادة أسرة « لي » الى الحكم . ولكن اخفاق هذه المحاولة دعاه الى الاعتزال سنوات طويلة في قريته ومسقط رأسه « تيان ديان » في مقاطعة « هاتينه » .

انتصرت الأسرة الاقطاعية « نغوين » على « تي سون » وأقامت أسرة ملكية، كان « جيا لونغ » عام ١٨٠٢ م أول أباطرتها • وحاول « جيا لونغ » ضم حاشية الأسرة المالكة القديمة « لي » الى بلاطه فعرض على « نغوين دو » أن يعود الى وظيفته •

وبعد أن رد « نغوين دو » هذا العرض ، مراراً ، انتهى الى القبول بخدمة الأسرة المالكة الجديدة • وفي عام ١٨١٣ م ترأس سفارة الى الصين •

ومات عام ١٨٢٠ م •

عرف « نغوين دو » على الخصوص كمؤلف لقصيدة « كيو » ولكنه ترك قصائد كثيرة ، نذكر منها « نداء الى الأرواح المتشردة » وغيرها باللغة الصينية المدرسية •

تقديم « كيو »

كان مركب مثقل بالركاب يجري على صفحة نهر تتلألا في نور القمر الصافي • ومن وراء
الحقول تلمح كتلة قاتمة للقرى النائمة وراء أسيجة من أشجار الخيزران • وفجأة ، وفي صمت
الليل ، تعلو أغنية طويلة توقعها المجاذيف التي تضرب الماء :

توحي اليك
نظرتها ، تلالؤ النور على صفحة البحيرة في الخريف
وأجفانها ، تبرج الغابة في الربيع
الأزهار تصفر حسداً لها
الصفصافة تبكي لأنها لا تملك رشاقتها
انها صاحبة المركب تتغنى بجمال « كيو » التي لم تنقطع سلسلة حبها الشقي عن تحريك قلوب
النساء في فييتنام •

كان قطف « التمر الهندي » في ابانه • وعلى ضوء مصباح معلق على عارضة ، كانت الأسرة
كلها تقشر النوى ، وتقطعها قطعة تجففها بعد ذلك • يتقدم الليل ، تخفت المعاورات شيئاً بعد
شيء ، ولا تسمع إلا قعقة السكاكين فوق قشور النوى • ويقول أحد أفراد الأسرة : يا «أونغ شو»
- أنشدنا شيئاً •

وترك « أونغ شو » الناس يرجونه ويستحثونه ، ولكنهم كانوا يرون عشونه وهو ينتفض
فرحاً • سعل ، وهو يصلح صوته ، ثم علا صوته بأغنيته ، وسط ترحيب كل من هنالك :

كما تشق غصن خيزران ، كما تسقط آجرة من سقف ،
سحق « توهي » أعداءه ، متنقلاً كالطير من نصر الى نصر •
عمت شهرة قوته الإفاق ، في مثل هزيم الرعد
شطر المملكة شطرين ، تملك شطراً من السماء
أقام له بلاطاً ، سلطة مدنية وسلطة عسكرية
انطلقت الزوبعة : الثغور والولايات
تساقطت تحت ضربات سيفه الذي كان يشحذه بالريح والغبار

عرف الناس جميعاً « توهي » المحارب الرائع ، والعاشق الجدير بـ « كيو » الحسناء ، الذي سقط ، بعد أن انتصر في مائة معركة ، ضحية مكر حاكم حقير .

هنالك شرفة وبضع زهرات ، وكؤوس شاي .
مثقفون ، أصدقاء قداماء يشرثرون . وفجأة ينهض واحد منهم ويقول :

أصدقائي الكرام ، حاولت ، بغرقي المعهود ، أن أنظم بضعة أبيات ، فهل تفضلون عليّ وتصغون إليّ ؟

من يملك من الدموع ما يكفيه لبكاء أناس الزمن الغابر
الأرواح الحساسة ، رغم بُعد القرون
تشارك في آلامها ، كما حدث في « تام زونغ »
حين وجدت ، في أمثالها من الأرواح الحساسة ، صداها (١)

المنقف يغني ويكي مصائب الحسناء « كيو » . وأي مثقف فييتنامي لم يحاول مرة واحدة على أقل تقدير . أن يحتفل في بضعة أبيات بهذه الشخصية أو تلك من شخصيات « كيو » أو يرثي لهذه المهانة أو تلك التي عانتها البطلة .

هكذا كانت « كيو » في فييتنام الماضي . أبناء الشعب رغم أنهم أميون ، من الصيادين ، والفلاحين يحفظون عن ظهر قلب مقاطع منها طويلة . المثقفون الذين تغذوا بترائهم الأدبي ، المتذوقون للجمال العنيدون . كلهم أحبوا هذه القصيدة التي وجدوا فيها شيئاً من طعم هاكهة محرمة .

بعض الناس عبدوا « كيو » الحسناء ، شاطروها مصائبها ، احترموا فضائلها . وبعض الناس هاجموها لعدم أخلاقيتها .

واليوم ، في جمهورية فييتنام الديمقراطية ، ولد مجتمع جديد فوق أنقاض المجتمع القديم ، كنسته نفعة ثورية ذات قوة لم يسبق لها مثيل . رأى النور أدب جديد عزيز ، قدم للفلاحين والصيادين الذين أصبحوا يعرفون القراءة غذاءً فكرياً ثميناً . وفي وسط هذا الازدهار الأدبي حافظت « كيو » على مكانتها وثابر الناس على التفتن بها وحبها وتعلمها وتعليمها . لم تحلها الثورة ، ولا الثوريون . إلى متحف الآثار القديمة ، ولكنها على عكس ذلك نظرت نظرة جديدة إلى هذا الأثر الأدبي الذي اعتبرته أحد أجمل الآثار في التراث الوطني .

في سنة ١٩٥٥ وبعد سنة واحدة من نهاية حرب التحرير الوطنية ، احتفلت جمهورية فييتنام

(١) من قصيدة لـ « شو مانه ترينه » Chu Manh Trinh .

الديمقراطية بالذكرى ١٩٠ لولادة مؤلف « كيو » « نغوين دو » وكتبت صحيفة « نهان دان » لسان حال حزب الشغيلة الفيتنامي ، في عددها الصادر يوم ٢٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٥٥ ما يلي :

« ان قيمة « كيو » الكبرى ، بغض النظر عن انسانياتها المفعمة بالحماسة ، تقوم أيضاً على شاعريتها الرائعة ذات الصفة الوطنية الرفيعة ، السماوية في شكلها ، العميقة في مغزاها . »

وفي هذا العام (١) ، عام الاحتفال بمرور ٢٠٠ سنة على ولادة « نغوين دو » تجاوزت الاحتفالات بهذه المناسبة حدود فيتنام . وأصبحت « كيو » و « نغوين دو » الآن معروفين ومحبوبين في كثير من البلاد .

من أجل ذكراه المائتين ، ومن أجل أصدقائه حاولنا ، بعد عدد من المحاولات الكثيرة ، أن نترجم « كيو » الى لغة أجنبية .



ما الذي أتاح لقصيدة « كيو » هذا الجمهور الواسع من المستمعين وهذه المكانة المتميزة في الأدب الفيتنامي ؟



« علمتني أغاني الفلاحين لغة القنب والتوت . » قال ذلك « نغوين دو » في قصيدة أخرى .

وواقع أن الشاعر عاش سنوات طويلاً في الريف ، قريباً من أولئك الذين يزرعون الأرز والقنب وأشجار التوت .

ان لغة « كيو » تأخذ مكانها الراسخ بين أكثر تراثنا في الأغاني الشعبية صفاء ، حافظت على مرونتها وطابعها الواقعي ، وغناها في الصور والألوان . وليس من قبيل المصادفة أن يحفظ أبناء الشعب وبناته عن ظهر قلب مقاطع منها طويلة ، وإن أصبحت بعض أبياتها أمثالا حقيقية وحكمة دخلت في الكلام الدارج .

ولكن « كيو » ليست كتاب أدب شعبي (فولكلور) . انها اثر أدبي كبير يمكن أن يأخذ مكانه ، دون تردد ، بين روائع الأدب العالمي .

ان « نغوين دو » الذي تمثل تمثلاً عميقاً الآداب الصينية والفيتنامية المدرسية ، نجح عندما ألف قصيدته بين اللغة الشعبية واللغة الأدبية المدرسية مؤلفة منسجمة .

كانت « كيو » بدء مرحلة هامة في تاريخ اللغة الفيتنامية ، وأسهمت في اغنائها وتطويعها ، ووهبت لها وضوحاً وإيجازاً بارزين . وهذا ما يفسر لماذا كان هذا الأثر وما زال حتى أيامنا هذه

النموذج الذي أجهد كثير من الشعراء ورجال الأدب أنفسهم في تقليده • ذلك أنهم قلما وجدوا في شاعر مثل ما وجدوه عنده من أنغام ومن ألوان كثيرة الغنى ، كثيرة التنوع •

كان « نغوين دو » ابداعيا فعرف كيف يغني جمال الطبيعة ويعبر تعبيرا عجيبا عن العواطف التي تجيش في قلوب العشاق ، وعن الأسى والآلام واليأس والفرح المنتصر ، وفي اختصار ، عن كل الحركات الغنائية في روح الانسان ، وعن تبدلات الاحلام وعن خلجات الضمير • (بودلير)

وكان نغوين دو « واقعية ، فاستطاع في بضعة أبيات الاحاطة بشخصية من الشخصيات ، وايضاح سجية من السجايا : الحاكم الشهواني ، والتاجر اللئيم الوقح ، والمشرقة على « المقصورة الخضراء » ، كل هؤلاء كشف النقاب عنهم ، دون رحمة ، وفي لغة ساخرة ملونة لاذعة ، وفي شكل بلغ من الجودة أن جعل من أسماء بعض الشخصيات تدخل اللغة الدارجة وتصبح أسماء متداولة عامة ، فنحن نقول عن « المرتشي » أنه « سوكانه » كما يقولون في الفرنسية عندما يتحدثون عن بخيل حريص على دوائقه انه « هارباغون » •

★ ★ ★

بعض الترجمات حولت « كيو » الى حكاية شرقية ، بسبب ما فيها من تنانين ومن عنقاوات وما فيها من غرابة مشكوك فيها ، وبذلك أخرجتها عن طبيعتها تماما • لقد أحب الشعب الفيتنامي « كيو » لا لأنه اعتبرها أسطورة أو حكاية ، فلم يتسرب الى هذه الأثر ظل من العجائبية ، وحتى من الابداعية ، وهذا القدر الذي غالبا ما نراه مذكورا لا يأخذ قط شكل اله أو ملك يتدخل فيدفع في اللحظات الحرجة الحوادث لكي يتقدم العمل في القصة • ولكن هذا القدر ينظر اليه القارئ كأنما هو قانون ضروري يحكم الدورة العالمية للأسباب والنتائج ، بل أن القدر يكتسي وجهاً انسانياً والقارئ الناقد ، العائر المرتبط بواقعية الاوصاف يبلغ مرحلة ينسى فيها القدر لكي ينقل كل غضبه وعطفه واعجابه الى الشخصيات الحية ، الواقعية التي تتطور في مجتمع حقيقي • ليس في « كيو » الا موسيقى الشعر ، والأوان المناظر الطبيعية ، وغنى اللغة مما يهز قلب صياد أو فلاح عجوز في ذلك العهد ، أو يحرك قلب مناضل ثوري في عهدنا هذا •

ان « نغوين دو » الرجل الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر ، هذا القرن الذي كان عهد الانتفاضات الواسعة والامال العريضة ، قد أدرك وأحس في شكل عميق هذه الطموحات وهذه الآلام • كان المجتمع الاقطاعي الفيتنامي يتخبط عندئذ في أزمة ليس لها نهاية ، وليس منها خلاص • لقد قام هذا المجتمع منذ عدة قرون على نظام اقطاعي يمنع أكثرية الفلاحين من حق التملك ، وعلى نظام أخلاقي يعتمد على ثلاث دعائم صلدة : اخلاص الرعايا المطلق للملك ، بر الأبناء بالآباء قبل كل الواجبات ، خضوع المرأة الكلي لزوجها • •

الملك ، وهو ابن السماء ، يحكم لا باختيار الشعب له ، بل بالحق الالهي ، ونشر السلام . في السماء كما في الارض يتعلق بـ « فضيلة » الملك الذي تعم نعمه البلاد كلها مثل المطر الرخي في فصل الربيع . كانت « مكتبية الموظفين الكبار » آباء الشعب وأمهاته « تحكم البلاد باسم الملك . وأكبر شرف يصبو الشاب الى تحقيقه هو أن يصل عن طريق المسابقات الى مهنة الوظيفة ، وهي التتويج الأسمى لحياة الدراسة . كانت الثورة على الملك هي الجريمة الكبرى . لانها ثورة على الإرادة الالهية .

بر الابوين واحترامهما وهما واجبان على كل ابن ، وصلا الى حد المطلق في العقيدة الرسمية . لا يمكن لاحد أن يفي الدين الذي عليه لوالديه ، بل ان كل تضحية يقوم بها الابناء لا يمكن أن تصل الى حد الوفاء بكل واجبات بر الوالدين ، وخاصة حقوق الوالد قبل حقوق الأم .

ولم يكن للبنات أي حق في اختيار الرجل الذي تتزوجه ، بل انها « تجلس حيث يضعها أبواها » . انها ، وهي بنت ، يجب أن تطيع أباه ، وانها ، وهي زوج ، يجب أن تخضع لإرادة زوجها ، وانها ، وهي أرملة ، يجب أن تتبع نصائح ابنها البكر .

هذه العقلية الرسمية حولتها الكونفوشية الى قوانين صارمة منذ قرون تكون الهيكل الاخلاقي للمجتمع الاقطاعي . والقالب الذي تجري فيه الافكار والاعمال . ولكن ، هاهوذا النظام يلغم من أساسه: الفلاحون يثورون دون هوادة، وعدد كبير من الثورات هددت العاصمة عدة مرات . وفي منتصف القرن الثامن عشر حكم « نغوين هوكو » وهو أحد القادة الثوريين ، كل المنطقة الساحلية في شمالي شرقي فيتنام سنوات كثيرة ، وكتب على رأيه هذه الكلمات : « الدفاع عن الشعب » وصادر أموال الاغنياء ليوزعها على الفقراء . كان مجاربا لامعا ، ومثقفا متجعرا ، أحبه الشعب ، فاستطاع أن يجند في بضعة أشهر جيوشا غفيرة حيثما تنقل .

وكانت الاقطاعية . من جهة أخرى ، تتخبط في الهزال والملك ، ابن السماء ، سليل (لي) لا يحكم الا شكليا ، وقد عزلته في قصره أسرة « ترينه » الاقطاعية التي كانت تملك السلطة الفعلية ، وكانت الاسرة المالكة ، والعصابة الاقطاعية ، والموظفون الكبار يتسابقون في حياة العهر والشهوات الحسية ، وكانت الالقاب تشتري شراء ، والاختلاسات شرها مستطير .

وفي الجنوب شطرت أسرة اقطاعية أخرى هي أسرة « نغوين » اقطاعية واسعة مستقلة ، وكانت جيوش الأسرتين « ترينه » و « نغوين » تتحارب وتتصطدم دوريا ، فتزيد بؤس الشعب .

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، استطاعت حركة ثورية ذات مدى ليس له مثيل في السابق ، ثورة « تي سون » التي قادها رجل نابغة هو « نغوين هو » ، أن تكس في وقت قصير ، الأسرتين الاقطاعيتين معا في الشمال وفي الجنوب وأن توحد البلاد . واعتقد الاقطاعيون الصينيون الذين

استدعاهم زملاؤهم الاقطاعيون الفيتناميون الى نجدتهم ، أنهم قادرون على الاستفادة من هذه القلائل ليفرضوا سيطرتهم على فيتنام . ولكن « نغوين هو » أنزل بجيوشهم هزيمة منكرة في معركة ذائعة الصيت (عام ١٧٨٩ م) .

مع هذه الثورات الفلاحية الكبرى ، مع تأسيس أسرة « تي سون » المالكة التي قادها ذلك البطل اللامع « نغوين هو » تولدت آمال واسعة . لقد اهتزت أركان المجتمع الإقطاعي وتزعزعت ، ولكن هل تراها ستفسح المجال لقيام حياة جديدة ؟ ان العقلية الإقطاعية بعد هذه العقود من الاضطرابات قد أضاعت كل اعتبار وكل قيمة .

هذا الاخلاص للملك ، انى من يجب أن نحفظه ؟ أين هي السلطة الشرعية ؟ هل هي « ابن السماء » ؟ أو الاقطاعيون اللصوص العاهرون الذين استنجدوا بالأجنبي ؟ أو هي هؤلاء « الثوار الأبطال المنبثقون من صفوف الشعب » الأشراف ، الوطنيون . معرو الشعب والوطن ؟ ما الذي يمكن ألا تنتهم به هؤلاء الحكام « آباء الشعب وأمهاته » الذين لا يشغلهم شغل غير نهب « أطفالهم » وغير التنازع على المناصب والرواتب بالحيله والمكيدة . بل كم من جريمة شنعاء ومن فظائع يرتكبها هؤلاء الحكام في حق الناس البسطاء ؟

هذا المجتمع الإقطاعي ، في أقصى حالات تفسخه ، والذي تنبت فيه بعض بذور الرأسمالية ، يجر وراءه مسأخر الاحتفالات في البلاط الملكي ، ومع جلسات كبار الموظفين ، عدداً غير قليل من التجار الوسطاء والمتاجرين بالدعارة والنصابين والمرتشين ، وكلهم مستعدون لارتكاب كل الموبقات . وظهرت سلطة المال الكبرى . واحتل التاجر المستغل مكانه انى جانب الحاكم المستبد . وأصبحت المرأة - الأمة - تجارة أيضاً فقد سحقتها الإقطاعية ، وأهانها المجتمع الذي بدأت تنبت فيه بذور الرأسمالية ، وأذلها وجررها في الطين .



كلانت لـ « نغوين دو » في كيو ، أثره هذا الواقعي الكبير ، مزية حسر القناع عن وجه هذه الإقطاعية الباغية المتفسخة ، وفضحتها في كثير من العنف : نحن لا نجد في « كيو » موظفاً واحداً نانس به ونعطف عليه . كل المصائب التي حلت بـ « كيو » كان مصدرها شرارة حاكم لم يتربد في سبيل حفنة من المال ، عن القاء أسرة كاملة في وهدة البؤس والشقاء . وعندما ندخل قصر الوزير الأول نشعر بقشعريرة ونحس أننا نختنق ، وأكبر قائد حربي في البلاط لا يستطيع أن يغلب عدوه الا بالحيله والمكيدة .

وعلى عكس ذلك ما أجمل وجه هذا « الثائر » « توهي » الذي « هز الأرض والأنهار ، وسار على الأرض بغطى الكبرياء ، ولم ترتفع فوق رأسه الا نجوم السماء » .

علينا أن نعرف الى أي مدى ترسخ في فكر المثقف الكونفوشي تعظيم الملك واحترام الحكم وفي مقابل ذلك ، الاشمئزاز من الثوار والخوف منهم ، لكي ندرك كل ما في جراءة « نغوين دو » من أبعاد . هذه الجراءة التي تزداد قيمة حين نضعها في إطارها الزمني ، في العهد الذي كتب فيه المؤلف قصة « كيو » حين كانت الرجعية الاقطاعية تنفلت من عقالها في وحشية مرعبة . فبعد عهد قصير من المجد والجلال مات « نغوين هو » وانتصرت أسرة « نغوين » الاقطاعية على ثورة « تي سون » الشعبية وفرضت ، من جديد ، على البلاد أغلال الاقطاعية . وليس من شك أننا نلمح في صورة « توهي » انعكاساً لهذا الوجه الرائعة ، وكثيراً من ملامح هؤلاء الأبطال ، قادة الثورات الفلاحية ، الذين أناروا تاريخ فييتنام في القرن الثامن عشر . وتظهر لنا ، في الصورة المعاكسة ، وجوه الحكام القساة الجشعين ، ومع جلاوزتهم « في رؤوس ثيران وسحنة أفراس » .

لم يندفع الشعب الفييتنامي . لقد أحب وسوف يحب دائماً في « كيو » هذا الاتهام الذي يبلغ مرحلة الهيجان أحياناً ، للاقطاعية التي طالما عانى آلامها . وقد كتب الامبراطور « توودوك » بعد قراءة « كيو » وعلى هامش المقطع الذي يتحدث عن « توهي » ما يلي : « المؤلف يستحق الجلد » .

ها هي ذي « كيو » فتاة من أسرة طيبة ، تجتاز ذات ليلة ، العديقة وتلتحق بالرجل الذي أحبته ، في غياب أهلها ودون علمهم طبعاً . ما هذه الفضيحة في مجتمع كونفوشي ، ألف منذ قرون مفهوم المعلم : « لا يجوز أبداً أن يختلط الشبان بالصبايا »؟! والمؤلف لا يكتفي بعدم لوم العاشقين اللذين تجرأ على الحب دون إذن الوالدين بل انه يخصص عدداً من الصفحات ، ومن أكثر صفحات القصيدة حرارة ، ينقل فيها نجوى العاشقين وبوحهما ورقتهما . هذا الحب ، هذا الاختيار الحر بين شابين ، اللذان طالما أنكرتهما قرون طويلة من الاقطاعية ، وجداً في « نغوين دو » شاعراً حقيقياً . وقد حاول ملوك « نغوين » خلال القرن التاسع عشر ، بكل ما يملكون من جهود ، ترسيخ أكثر تعاليم الكونفوشية تزمناً ، ولكن عبثاً ما حاولوا ، فان شباب فييتنام وصباياها لم يمنعهم مانع من حب « كيو » الحسناء الجريئة ، و « كيم » حبيبها الوفي .

وكذلك تحدى المؤلف هذا المفهوم ، المقدس للأخلاص الزوجي الذي يفرض على المرأة أن تتركس حياتها كلها لرجل واحد ، حتى بعد موته : أما « كيو » التي كالت لها الحياة كثيراً من الضربات ، والتي أجبرت على بيع جسدها ، كثيراً من المرات ، فقد أحببت مرة أخرى حبة عنيقا

عندما وجدت الرجل الذي هو أهل لها • هذا الحب الثاني ، الذي يعتبره الكونفوشي المتزمت فضيحة ، وجد في « نغوين دو » مدافعا متحمسا عنه • والكونفوشية الصارمة تحرم تحريماً قاطعاً الإشارة الى الحب الجسدي ، مهما كانت بعيدة ، أما المؤلف فلم يخش من الاعجاب بـ « كيو » وهي في حمامها ، تكشف أمام عيني عاشق مسحور « جسداً من اليشب وبياضاً كالعاج » •

و « نغوين دو » يحتفظ بكل عطفه على « كيو » التي أجبرها المجتمع الوحشي على أن تكون مومساً عدة مرات ، وجعلها تقول ، في انصاف ، لحبيبتها المخلص ، انها بقيت طاهرة نقية رغم كل الاهانات ، وان الاخلاص في الحب يجب أن يفهم على نحو أكثر انسانية من مفهوم الناس الفريسيين • وعندما يعني « نغوين دو » حب الشابين ، بكل روعته ، هذا الحب القائم على الاختيار الحر ، دون أن يلغي عنصره الجسدي ، فانه يجاهر بالدعوة الى إعطاء المرأة كل الحقوق التي أنكرها عليها المجتمع الاقطاعي •

وفي الانتفاضات التي شهدها القرن الثامن عشر عند نهايته ، أصبح الحب ، وهو أمر جديد ، جزءاً من الطموحات العميقة التي أحست بها ، في وضوح كثير أو قليل ، الجماهير الواسعة ، كما أصبح - علامة على العصر - حب الشابين الجميلين الموهوبين موضوعاً أساسياً في عدد كثير من القصص الشعرية • ان نغوة انسانية جديدة تهب ضد القسوة اللا انسانية والمذهبية اليابسة في الكونفوشية ، وانها لانسانية تصبح متهمه - لا متهمه - عندما يصف المؤلف في واقعية لاذعة هذا المجتمع القاسي الذي هدم - دون رحمة - كل الأحلام البريئة التي حلمت بها صبية في زهرة شبابها ليجبرها على أن تجرر جسدها في الطين • والشاعر الكبير ، الذي هو « نغوين دو » أعار هذه الانسانية نبرات ناعمة أحياناً شجية أحياناً مثيرة للشفة أحياناً ، وبذلك استطاع أن ينقش في قلوب ملايين الناس هذا التطلع الى السعادة ، الذي يحاول الفكر الاقطاعي دائماً أن يخنقه ويقضي عليه •

من هنا نفهم الصدى الذي استطاعت كثير من المقاطع في « كيو » ، بالإضافة الى جمال اللغة ، أن تجده في قلب الشعب الفيتنامي •

★ ★ ★

طالما أثرت المأساة الداخلية التي عاناها « نغوين دو » الموظف الذي اضطرت الى خدمة أسرتين مالكتين واحدة بعد واحدة وجرح تجريعاً عميقاً في اخلاصه الأول • والسجلات السنوية تذكر لنا في الواقع أنه كان موظفاً قليل العماسة بل أكثر ميلاً الى الوجوم ، غير عابئ بالسباق الى المناصب التي كانت تحرك الموظفين الذين بلغوا أرفع المراكز في عهد الأسرة المالكة الجديدة •

وكذلك يجد بعض النقاد وجوها من المشابهة بين وضع المؤلف الشخصي الذي لم يخلص للملكه ، وبين وضع « كيو » الحسنة التي خانت حبيبها ، وأجبرت على تقديم جسدها لأول عابر .

وقيل لنا : إن في هذا التناقض في المواقف يكمن السبب العميق لهذه النغمة الوجدية ، المشيرة للشفقة التي نجدها في « كيو » المصدر الأول لقصيدته المؤثرة ، بل والموجعة في أغلب الأحيان .

ولكن في ذلك تحييفا كبيرا لأبعاد هذه المأساة . كان « نغوين دو » ذا ثقافة أدبية وهوسيقية واسعة ، كما أنه تعلم الفن العسكري ؛ وكثير من القصائد توحى اليها أنه حلم بـ « نشر السلام في العالم وانقاذ الشعب » . أنه قلب حساس يشعر في عمق بالأم الشعب ، وتهتز أوتار قلبه كلها بالتطلعات التي تحتضنها الجماهير الواسعة ولو في شيء من الغموض .

ومع ذلك ، وعلى نقيض ما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر الذي أسفر عن انتصار الثورة الفرنسية ، نجد عصر « نغوين دو » يسفر عن هزيمة . أن هزيمة « تي سون » وقيام أسرة نغوين « قرعت أجراس النعي الحزين للأعمال الكبرى التي أثارها الثورات الفلاحية في القرن الثامن عشر . وعادت فييتنام لتقع في ليل الاقطاعية الأسود .

ان غياب برجوازية نشيطة جعلت كل المحاولات المناهضة للاقطاعية تقع في مازق ، وكان علينا أن ننتظر قرناً ونصف قرن قبل أن تنفجر ثورة وطنية وشعبية تقودها الطبقة العاملة لتسب قناع الاقطاعية الرصاصي وتحرر الأجسام والأفكار معاً .

وإذا كان القرن الثامن عشر في فييتنام غنياً بالأمال فإنه لم يكن قرن نور ، ولم ينبثق فيه ما يضيء الطريق لأولئك الذين ناضلوا ولا لأولئك الذين كانوا يعلمون بالحياة الانسانية .

كان مازق « نغوين دو » الفكري عاماً شاملاً . إنه منحدر من أسرة من كبار الموظفين ، وتم تكوينه وتربيته وفق التعاليم الكونفوشية ، وهو لما يتحرر من كل هذه العوقات ، وهو لا يستطيع أن يعلم ، في غمرة كل هذه القلاقل والاضطرابات التي حدثت في عصره ، إلا بعودة الشرعية ، وعلى رأسها ملك متبصر ، تنقذ « فضائله » الوطن والشعب . لقد عارض تلك الحركة الشعبية والوطنية الكبرى التي هي حركة « تي سون » دون أن يفهم مداها ومغزاها ، بل أنه في فترة من الفترات ، انحاز الى الاقطاعيين الذين استدعوا الجيوش الاجنبية للتدخل ولانقاذ امتيازاتهم .

ومع ذلك فلم يكن « نغوين دو » أعمى حتى يجهل ضعف وخنوع الامراء الذين يسمون

« شرعيين » من أسرة « لي » القديمة ، وحتى لا يرى أن الملك الجديد « جيا لونغ » الذي كان عليه أن يقوم بخدمته سنين طويلة ، كان يجهد نفسه في إعادة حكم الاقطاعية في أشد أشكالها فظاظة وخطورة .

ان مأساة « نغوين دو » هي مأساة عصر هزته انتفاضات عنيفة ، ولكنها كانت دون أهداف ، دون تنظير سابق ووضوح . انها مأساة رجل تناقض آراؤه مع تطلعات قلبه .
والحق أن ذلك تناقض مأساوي لأنه لا يمكن حله .

ان الفنان « فيه » يشارك الشعب آلامه في عمق ، وينمضح في عنف ، ويتهم في فصاحة . ويجلد وهو يعرض على شفثيه ، ولكن المفكر « فيه » يتخبط في تأملات عميقة حول قدر الانسان . الكونفوشية لا تقدم له تفسيراً كافياً لكثير من المآسي والمظالم ، ومع ذلك فيجب أن نرتد الى النظرية البوذية في « الكرما » التي تريد من الانسان أن يجر معه قائمة فاعلة ومنفعلة من الحيوانات العديدة المتتابعة اللاحقة ، وأن يدفع ديون حيوات أخرى سابقة ، وأن يدفع ، في حياته المستقبلية ، ضريبة كل ما قام به في حياته العاصرة من أعمال .

من أجل هذه « الكرما » لم تعرف « كيو » الحسنة ، المتمتعة بكثير من المواهب والفضائل ، الا النكبات التي لا نهاية لها . هذا التناقض الموجه ، في كثير من الاحيان ، بين حساسية فنان يهتز قلبه مع الوقائع الانسانية والاجتماعية اهتزازاً عميقاً ، وبين التامل العقيم لرجل من رجال ما وراء الطبيعة ، تغشي على بصره مفاهيم « الكرما » والقدر ، هذا التناقض هو الذي يسري في القصيدة من أولها الى آخرها .

وانتهى المؤلف أخيراً الى إقامة نوع من « التوفيق » فعشر في دورة الفاعل والمنفعل في الحيوانات المتتابعة السابقة واللاحقة وهي دورة لا ترحم ، قلب الانسان ، وذلك كي يتسنى له تخفيف الصرامة اللا انسانية في قانون « الكرما » هذه .

والسألة أخيراً هي مسألة فلسفة الخضوع والاستسلام لقد حاولت « كيو » أن تتخبط وتقاوم ، ولكنها ذهبت قهراً ، وغلبت على أمرها ، وألغيت إرادتها منذ سفرها بذلك الشعور الجاد بعطب قدرها ، انها تشعر بوطاة كل ما تتمتع به من مواهب ، ولذلك لم تصل محاولاتنا في الثورة الى نتيجة . انها وقد سحقتها مجتمع لا انساني تعتقد في بساطة أنها تدفع ثمن أخطاء ارتكبتها خلال حيوات سابقة ، وهكذا اجردت سلفاً من سلاحها أمام الغيب والشئ اللذين أحاطا بها كل أولئك الذين خدعوا وخانوها .

ان مخنقة المجتمع الاقطاعي تقتل في «كيو» وفي كل النساء ، كل أمل في التحرير • ان فسوة مجتمع التناسخ ، وقد أصبحت قدرا و «كرما» تنفشى وباء ليس له دواء •

التعريف بمأزق «نغوين دو» هو في الوقت نفسه دلالة على حدوده • وهي حدود لا تقاصر فقط على انسانيته التي لم تدرك الحقائق التاريخية ، والتي ما تزال غارقة في المبادئ الدينية أو في المفاهيم الاقطاعية ، ولكنها أيضاً حدود لفنه • نعم ان «كيو» في مزاياها الادبية تدل على تلوين وأحيانا على نجاح لا يضارعهما فيها مضارع ، ولكن «نغوين دو» ترك كثيراً من أوتار القلب الانساني فلم يستطع تحريكها كما حركها غيره من الأدباء والشعراء ، النقمة تنتهي غالباً بالنحيب ، وطيبة قلوب أكثر الشخصيات تتوقف في خضوع لا يكاد يوارى ، ثم لا تصل الى اندفاع ولا الى عمق الطيبة التي نجدتها كثيراً في أبناء الشعب ، والملاحم الرائعة لـ «توهي» لا يمكن مع ذلك أن تبلغ به مستوى الشخصيات التاريخية الكبيرة في عصر المؤلف ، مثل «نغوين هوكو» و «نغوين هو» •

ومما لا شك فيه أننا نبالغ حين نؤكد - كما يفعل بعض الناس - أن «كيو» وحدها تصور الروح الفيينتنامية كلها ، وأنها ستبقى الى الابد الصرح الذي لا يضاهى في الادب الفيينتنامي •

ان هذا الانسان وان أثره هذا لكبيران الى حد يسمح لنا بعجبهما دون أن نقع في زخرفة وتقعر لا جدوى فيهما •

- نغوين خاك فيان -



القصة الشعرية*

- مدى حياة الانسان مائة عام ، انها ساحة صدام
يتصارع فيها القدر والعبقرية صراعاً لا هوادة فيه .
- البحر يهدر هنالك حيث كانت تخضوضر أشجار التوت (١)
- أيضيق صدرك برؤية هذا العالم ؟
ولكن علام تتعجب ؟ لا يدرك شيء عفوا بلا تعب
- طالما عاندت السماء الزرقاء الحسان ذوات الخدود الوردية
هذه مخطوطة قديمة طالما قلبها الناس على ضوء السراج
وقلبوها منذ زمن بعيد ، تعكفي لنا حكاية هذا الحب .
 - في عهد الامبراطور « جياتينه » من أسرة « مينه » (٢)
كانت الحدود آمنة ، وكانت العاصمتان يسودهما السلام .
 - في ذلك العهد عاش (فونغ) المحترم ، وكان متوسط الثروة
وكان ولده ووريثه (كوان) ثاني أولاد الاسرة يدرس ،
مضيفاً حلقة جديدة الى سلسلة طويلة من المثقفين
وكانت له أختان أكبر منه « توي كيو » و « توي فان »
كانتا في رقة زهرة الدراق ، وفي نقاء الثلج .
كانتا جميلتين ، ولكل منهما جمالها المتميز
كانتا جميلتين الى حد الكمال .

(*) العواشي واردة في آخر القصة ، لكيلا ينقطع الوحي الشعري .

- أما « فان » فرائعة روعة القمر في الليلة الصافية ...
 بسمتها كابتسامة الزهرة ، وصوتها في رنين البلور •
 الغيوم ليس لها جلال ضفائرها •
 والثلج ليس له نقاء لونها •

وأما « كيو » وهي الكبرى ، فكانت أروع جمالا ،
 أكثر رقة ، وموهبة ، يغيل اليك أنك ترى
 في نظرتها تلالؤ النور على صفحة البحيرة في الخريف •
 وأنت ترى في أجفانها ، تبرج الغابة في الربيع •
 الازهار تصفرُ حسدا لها ،
 والصفصافة تبكي ، لأنها لا تملك رشاقتها
 كانت جميلة جمالا - كما تقول الاساطير -
 ينسف القلاع ويدك الحصون
 كانت فذة في إجمالها ، نادرة في مواهبها :
 الشعر والرسم والموسيقى : ما من شيء عنها غريب
 سلم الألحان ذات الاصوات الخمسة على قيثارة هو (٣)
 تعرف كل ما فيها من أسرار •
 وضعت ، لتتسلى ،

لحن « القدرالقاسي » بنغماته الموجعة هذه :
 صبايا في ربيع الحياة
 جميلات بين الجميلات ، في حليهن وزينتهن ،
 يقضين أياما هادئة ، وراء الستائر المسدلة
 ووراء الجدران تغدو وتروح أسراب الشباب الظرفاء •



عندما طارت العنادل جعل الربيع ينسل خيوطه
 مر ستون يوماً من هذا الفصل البديع
 العشب يبسط حتى الافق سجاده الخضراء الناعمة
 وأشجار التفاح تزينت بأزهارها البيض
 في نور الشهر الثالث الصافي ، وفي إبان خضرته
 ذهب كل الناس الى المقابر خاشعين
 يزورون ويمجدون أولئك الذين مضوا ولم يعودوا
 مثل سرب من العصافير احتشدوا مختلطين صاحبين
 شباب مرموقون ، وفتيات رشيقات
 الرجال والنساء يتدفقون موجة بعد موجة
 بين القبور التي يستريح فيها الموتى
 تراكمت النذور ، وكانت الريح
 تحمل ، في طياتها ، رمادها الى البعيد البعيد •
 جنحت الشمس الى المغيب ، وعلى طريق العودة
 كانت أسرة « فونغ » تسير وتتأمل البرية
 ذات الجمال الفتان • هنالك ساقية تتلوى
 وتدمدم تحت عريشة من الاشجار
 وفجأة ظهر على جانب الدرب قبر
 يغطيه عشب ذاو أصفر

سألت كيو : في هذا اليوم يوم الضياء الصافي ،

لماذا لا يحترق البخور ، على هذا القبر المهجور ؟ !

وقال كوان : هذا قبر « دام تيان » كانت مومساً محترقة ،

في زمانها ، وبجمالها ومواهبها

عرفت المجد ، وعلى بابها تزاحم

عدد من العشاق • أكثر من العنادل والعصافير في أيام الربيع •

ولكن وا أسفاه • ما أشقى حظ الحسان ذوات الخدود الوردية •
 في عز ربيعها ، تكسر
 الزورق الذي حمل هذه الزهرة الخالدة
 وصل عاشق من مقاطعة بعيدة
 ما كاد زورق الحب يرسو على الشاطئ
 حتى تكسر أصيص الزهرة ومضى عطرها
 ساد الغرفة الحزينة صمت الجليد
 ومخا العشب آثار العجلات
 ولم يستطع العاشق كتمان لوعته

فصاح : « يا دام تيان » كتب علينا
 ألا تنسج بيننا خيوط الحب
 هذه السعادة حرمتنا منها في هذه الحياة الدنيا
 ولعلها أن تكون نذراً نقدمه لحياتنا الأخرى
 وأمر لها بتأبوت بديع ، ومضت الجنازة

ودفنت الميتة ، ومنذ ذلك الحين ، وعلى هذا القبر الوحيد
 نما العشب على هواه ، والاقمار والشموس
 بددت حرارتها ونورها دون جدوى •

ما من أحد ، ما من أحد ، وقف على هذا القبر •
 قصة هذه المأساة التي لا تنتهي
 أثارت في « كيو » الجميلة حناناً عميقاً

وانتزعت من عينيها الدموع ، ومن صدرها الآهات
 قالت : ما أشقى حظ النساء :
 القدر يناصبهن جميعاً ، العداء

يا خالقي : لم كل هذه القسوة ؟
 قسوة تهترىء فيها سنواتنا الخضر ، وتذبل فيها خدودنا العمر

هذه المرأة كانت في حياتها امرأة للناس جميعاً
وهاهي ذي الآن ، في مملكة الاموات ، تشتد روحها وحيدة
أين كل أولئك الذين كانوا يشاركونها لذاتها ؟
أين كل أولئك الذين كانوا يركضون وراء عطورها ؟
أنت ، أيتها الروح الشاردة ! ما من أحد يتنزل فيفكر فيك
لقد لقيتك مصادفة في طريقي ،
سأحرق هذه الباقة من البخور لك ومن أجلك ،
أيمكن أن يبلغك هذا التمجيد في عالم الظلمات ؟
وانحنت أمام القبر وصلت أمدًا طويلاً .
احمر العشب في نار الفسق .
تمايل القصب في نسيم المساء
وعلى شجرة ، بدبوس شعرها ،
نقشت « كيو » رباعية ، ثم اها هي ذي من جديد .
واقفة ، لا حراك فيها ، ساكنة لا تتكلم ، ضائعة في أحلامها
وتجهم وجهها ، كأنها زهرة لفحتها عاصفة
ولامتها « فان » . . . ما هذه المهزلة يا اختاه !
الدموع تهطل غزيرة
في بكائك على من مضى
وقالت « كيو » منذ زمن بعيد ، والنساء الجميلات
لم يراف بهن القدر القاسي
ها هي ذي راقدة في قبرها ، كما أراها اليوم
وأنا نفسي أجهل ما ينتظرني غدا ؟
تدخل « كوان » : لماذا هذه الكلمات المتطيرة ؟
لنعد الى البيت . ظل الغروب يمتد
وقد تصاعدت أبخرة المساء .
وأجابت « كيو » : أولئك الذين يملكون الجمال والموهبة

يعيشون الى الأبد • الجسد ميت والروح حي
 الحب لا يقابل الا بالحب •
 مهلاً • إن روحها في هذه اللحظة ، سوف تظهر لنا
 هبت فعلاً عاصفة من الريح قطعت صوتها ،
 مثل جيش يهجم ، ناشراً أعلامه
 انتزعت الأوراق ، هزت الأشجار
 وطاق عطر ناعم في قلب العاصفة
 هناك حيث هبت الريح - ما في ذلك شك -
 انطبعت آثار أقدام فوق العشب • أقدام امرأة ...
 وصعقوا كلهم رعباً
 وقالت « كيو » نعم ، أقسم • إنك أجبت على سؤالي ،
 قابلت حبي بعجب
 أنت في مملكة الظلال ، تعيشين
 وقد عرفت فيّ اختاً لك تعيش في عالم النور
 وتأثرت « كيو » فأهدت لها قصيدة ثانية
 نقشتها على جذع شجرة هرمة واهية •

★ ★ ★

وقفوا هنالك لا يعرفون : هل يبقون أو يروحون
 عندما سمعوا فجأة وقع حوافر حصان
 فارس شاب دنا منهم ، وقد أرخى لفرسه العنان
 كان حمله خفيفاً ، وكان يطير كالريح •
 ووراءه عدد من خدمه
 كان حصانه أبيض كالثلج ، ولباسه
 يُولف بين لون الأوراق الخضراء ولازورد السماء
 وقفز الفارس عن حصانه وجاء إليهم

- يعبث مهازاه بالعشب الأخضر
كل ما فيه يفوح بالانسجام والجمال
وعرفه « كوان » فرد عليه تحيته
وذمرت الفتاتان فتوارتا وراء الأزهار
كان الفارس « كيم ترونغ » جاراً لهم
من أسرة نبيلة ، ذو ذوق رفيع ، وثقافة واسعة •
جميل ، ممتاز ، كريم لا ينقصه شيء
عرف ، هذا المواطن ، وهو صديق « كوان » أن في جواره
تعيش فتاتان جميلتان ، ربيع شبابهما في إبانه
الستائر تعجبهما أكثر مما تحجب الأنهار والجبال •
لم يكن في وسع « كيم » إلا أن يحترق في الحب ، ويتنهد في صمت •
حظ غريب ، لقاء عجيب
ذلك الذي يحب الأزهار جاء في عيد الأزهار
من بعيد كان يرى ظل زهرتين
زنبقة الربيع ، وأقحوانة الخريف
من يستطيع أن يعرف أيتهما أكثر جمالاً ؟
« كيو » الجميلة و « كيم » النبيل ، من أول نظرة
أصبحا حبيبين : القلب يعرف والوجه لا يجرو فيعترف •
أهذا حلم ؟ أهذا واقع ؟
أيذهبون ؟ : لا يستطيعون • أيبقون ؟ : لا يعرفون
وطال ظل الغسق وامتد في كآبة
وركب « كيم » حصانه ، وتبعته نظرات « كيو » طويلاً
كان الماء الصافي يزغرد تحت العريشة
وأشجار الصفصاف تتمايل في ريح المساء •



عندما عادت « كيو » إلى ما وراء ستائرهما المزهرة
 كانت الشمس قد غابت وراء الجبال
 وقرعت أجراس المساء معلنة نهاية النهار
 وأطل القمر من النافذة
 يبذر سبائك الذهب فوق ماء البرك •
 وفي الباحة مدت الأشجار ظلالها
 وألقت شجرة الكاميليا الحمراء أفنانها على الأرض
 وقد أتعبها حمل كل هذه الأزهار الربيعية الغزيرة
 وتأملت « كيو » القمر وهي وحيدة في الليل
 كان قلبها مثقلاً بالرجاء القريب ، وبالقلق البعيد
 تلك المرأة الوحيدة في قبرها ، كان مصيرها
 هناك ، بعد كل ذلك المجد وبعد كل تلك الأبهة !
 وذلك الفتى الذي ألقاه القدر في طريقي
 أترى تجمع الأقدار بخيوطها بين قدرينا
 كتبت بعض الأبيات ، أودعت فيها
 قلبها الذي تزدهم فيه ألف فكرة وألف فكرة •••
 وتسرب شعاع من القمر وراء الستارة
 نامت « كيو » وفجأة ظهر خيال امرأة
 رائعة ، ناعمة ، يتلأأ وجهها كقطرة من الندى
 جسدها في بياضه الناصع مثل الثلج
 أتراها تقترب ؟ أتراها تبتعد ؟ لم تعرف « كيو »
 واستقبلتها في فرح • وسألتها : أتكونين
 روحاً هائمة في هذا العالم ، جاءت من وادي الخالدين ؟
 وقالت المرأة المجهولة الجميلة : عطف خفي يؤلف بيننا
 أتراك نسيت تلك التي لقيتها اليوم ؟
 في الناحية الغربية ، أتذكرين ذلك القبر الوحيد

والساقية التي تدندن تحت العريشة
لقد منحنتني عطف أخت
كلماتك الذهبية بلغت مسامعي
في سجل القدر الذي يحكمنا
قرأت اسمك • زورق واحد يمضي بنا
زورق الفتيات اللواتي لا يُوفّرهن الشقاء
نعم • نحن نجر سلاسل تناسخنا القاسي (٤)
وأنت أيتها الشاعرة أسألك صوغ أبيات حول هذا الموضوع
أنت تملكين سر الريشة الزاهرة ، سر الأشعار الخالدة
ولبّت « كيو » رغبتها ، وبأصابعها السحرية
صنعت أنغاماً وصاغت أبياتاً
وصاحت الزائرة الجميلة متعجبة : يا لك من موهبة
يا لك من قلب ذهبي ، يا لها من كلمات رائعة مثل الديباج المذهب
كل الحسان اللواتي كان حظهن شقيماً
أنت ولا شك ملكة عليهن في الموهبة
وودعت الزائرة « كيو » عند الدرج
وأمسكت بها « كيو » ولكن الريح حركت الستائر •
وارتجفت « كيو » : ما هذا إلا حلم من الأحلام
لا ظل لأحد ، ولكن هنا وهناك كان يتماوج عطر ناعم
وظلت « كيو » وحيدة تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل
التفكير في المستقبل يملؤها ذعراً
أتراها ستصبح زهرة ، في عاصفة ، عشبة تتقاذفها الأمواج ؛
وكالأمواج التي لاتني تزمجر ، كانت أفكارها القاتمة
تهاجمها وتنتزع منها آهات وزفرات خرساء ••
واستيقظت أمها فجأة وراء الستائر
وقلقت عليها وقالت لها : أفي قلب الليل يا ابنتي

تتعذبين ؟ وقد غسلتك الدموع
 كأنك زهرة تفاح بيضاء تحت المطر
 وقالت « كيو » لست إلا طفلة يا أمها
 أنت غذوتني وربيتني ، ولم أعطك شيئاً
 اليوم قدمت إحترامي لـ « دام تيان »
 والليلة بدت لي في منامي
 وذكرت لي ما ينتظرني من قدر رهيب
 تلك هي الموضوعات التي اقترحتها عليّ ، والأشعار التي كتبتها
 ما أشأم هذه النبوءة .. ماذا ينتظرني غداً ؟
 وقالت أمها : ولماذا تستسلمين يا ابنتي لحلم من الأحلام ؟
 لماذا تعذبين نفسك دون سبب معقول !؟
 وكأنما أوحى هذه النصائح الحكيمة السكينة الي « كيو »
 التي كان قلبها يفيض بحبها الجديد
 وزقزق عصفور وراء النافذة
 وتمايلت أفنان الصفصاف تداعب الستائر ..
 وألقى القمر تحت الشرفة أشعته المنحرفة
 وأحست « كيو » ، في مرارة ، بكل ما يحيط بها من وحدة .

★ ★ ★

هكذا هو الحب ، وهكذا هم العشاق
 تشابك العواطف في قلوبهم لا يدركه أحد
 وراء النافذة ، بين الكتب ، تستبد الذكرى
 بالفتى كيم ، كان كلما حاول كبح ألمه
 فاض وزاد . وامتدت أيام الانتظار
 كأنما هي فصول من الخريف طويلة لا تنتهي
 الستائر تغفي سرها ، كأنها حجاب من الغيوم

ما من سبيل إلى رؤية الحبيبة غير سبيل الأحلام •
 الأقمار تمضي : وطول الليالي
 يستنفد زيت القناديل
 إنه يفكر دائماً في تلك الطلعة
 يئن قلبه بحثاً عن القلب الآخر
 باردة بدت له غرفته
 الريشة تستلقي إلى جانب القيثارة محلولة الأوتار
 الريح تعبث ، دون هواده بستائر الحرير
 لا يكاد يحترق البخور حتى يبعث عطر الذكرى
 أطيب كأس من الشاي يصبها مذاق الحب ينقصها
 أترى سيجتمع شملانا ، ذات يوم ؟ لم هذا العبث القاسي ؟
 أيتها السماء لم قدرت عليّ أن ألقاها في الطريق ؟
 وهي ، هي الجميلة ، جمالاً يدك القلاع والحصون •
 لا شيء يمحي في خياله :
 لا وجه الحبيبة ولا ذكرى ذلك المكان
 وعاد مراراً يزور مكان اللقاء الأول
 العشب ، دائماً أخضر يمتد على مد البصر «
 الماء ، دائماً صاف ولكنه لا يحفظ صورة الحبيب
 نسيم المساء ينبش ألمه من مكانه
 يدغدغ القصب ، فيتمايل في مهب الريح
 في أعماق الذكرى تنسج الأحلام رقاها الساحرة
 ولم يستطع صبراً ، فهرع إلى منزل « كيو »
 البوابة مغلقة ، الجدران صارمة ، لاشيء يمر
 لا عصفور السماء ، ولا ورقة الأرجوان (٥)
 كانت أغصان الصفصاف تتدلى كأنها الستائر
 عصفور دوري ساخر يقفز بين الأوراق
 الأبواب مغلقة ، والمزاليج محكمة

الأزهار تتناثر على الشرفة ، ولكن ما من ظل لانسان
وتسمر هنالك ساعات طوالاً
ثم وجد في جوار بيت الحبيبة منزلاً خالياً
استأجره وحمل إليه كتبه وقيثارته
كان البستان وارف الظلال ، وهناك صخرة صغيرة
وقد كتب على الشرفة « لام توي » ووجد فيها بشارة سعيدة (٦)
وفرح وقال لنفسه : حيناً قدر من الأقدار
وخلف نافذته المفتوحة دائماً
كان « كيم » يرصد البيت يوماً بعد يوم .
ما تزال البوابة مغلقة ، ليس يفصل بينهما إلا شبر
ولكن تلك اللوحة الموردة التي ينتظرها لا يرى لها أثراً
والزمان يجري ، وانتظر قمرين كاملين
ولكن ! ذات يوم جميل ، خلف الجدار
سمع صوت ثوب يتموج في الريح ، تحت ظل شجرة دراق
وترك كيم قيثارته ، وأوغل في الحديقة
ليس هنالك أحد ، ولكن ما يزال يرف عطر ناعم
ومشى على الحائط ، فوجد على الشجرة قلادة من ذهب
أمسك بها ، وحملها إلى بيته ، وقال لنفسه : هذه الحلية
وهي جزء من حياة المرأة الشخصية ، فالحسن .
أيمكن أن تكون قد سقطت بين يدي دون سبب ؟
وجعل يقلبها ، ويتأملها ، فطار نومه
كان هنالك عطر فواح يؤرقه طوال الليل
ولم تكذ تذوب قطرات الندى عند الصباح
حتى رأينا شعباً يلتصق بالجدار
كان « كيم » يرقب ، وحاول أن يقترب ليرى من وراءه
كانت الحلية بين يديه ، أيمكن أن تكون

مثل لآلء (هوب فو) (٧) تعود إليك دون تردد •
 ورن صوت « كيو » الجميل تقول :
 ما قيمة هذه القلادة الضائعة
 عندك ، أيها الفتى النبيل ، الذي
 يرجح شرفه على كل ما في العالم من ذهب ؟
 وصرخ « كيم » : ألا تعرفينني ؟ ألا أعرفك ؟
 لقد قطفنت هذا العود الفواح الذي سقط منك
 ولكن ، يعلم الله كم من شهور طويلة تأملت
 وكم ترقبت هذا اليوم ،
 اسمحي لي بدقيقة ، أريد أن أقول لك أشياء وأشياء
 وعاد إلى منزله وأخذ قلادة من ذهب
 وقطعة من الحرير ، ثم ها هو ذا يقفز الحائط
 نعم • إنها هي : يحمر خدّاها خجلاً وتخفض رأسها
 شربتها عيناه وقال : لقد رأيتك
 يوماً من الأيام ، ومنذئذ أصبحت حياتي انتظاراً طويلاً
 أنا أذوب كأنني شجرة دراق تذوي
 مرت شهور ، وأنا تائه في غيوم أحلامي
 ظللت في عناد أستند إلى دعامة الترقب (٨)
 سؤال واحد أسأله : هذا النبات الوضيع
 هل يمكن أن يرجو شعاعاً من هذا النجم الرفيع ؟
 وجاء الجواب متردداً ، دون زخرف كأنه الثلج :
 تقاليد أسرتنا ريفية أصيلة مثل هذه الأعشاب
 ورقة الأرجوان ، رسالة الحب ، خيوط الزفاف الوردية
 كل ذلك يتعلق بالأب وبالأم يقطعانه أو ينسجانه
 لست إلا زهرة متواضعة ، صفصافة واهنة
 طفلة لا تعرف كيف تجيب •

ورجاها « كيم » : غداً يمكن أن تهب الرياح ، أن تنطلق العاصفة
 أيمن أن تعود روعة الربيع مرة ثانية ؟
 إذا لم ترحمي حبي الجنوني
 فسأقع في براثن اليأس ، وماذا تربحين ؟
 قلبي فقط كلمة واحدة ، لا تكلفك شيئاً ، فتجمع بيننا
 سأرسل ، حسب القواعد المتبعة ، في طلبك إلى أهلك •
 وإذا عارضت السماء حبي
 فأقسم : لأهدرن سنواتي الخضر هدرأ •
 دعني قلبك يتفتح لأنسام الربيع
 لا تتركي قلباً يختارك دون جواب
 كانت « كيو » تصغي صامتة ، تهددها هذه الكلمات
 وطاف في عينيها الصافيتين ، كبحرتين في الخريف ، حلم من أحلام الربيع •
 قالت : نحن لم نكد نتعارف ، ولكن كيف أمنع قلبي وأمسك به
 أمام هذه العواطف النبيلة ؟ أيها الفتى النبيل ، لقد أعطيتني كلمة شرف
 وهي منقوشة على قلبي أقوى من نقشها على الذهب أو على الحجر •
 كانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب « كيم »
 ومد إلى « كيو » قلادة الذهب ، وقطعة الحرير
 قال : سنبقى مرتبطين إلى مدى مائة عام ، إليك هذا العربون
 وأعطته « كيو » مروحة مزهرة ومنديلاً مطرزاً
 وأقسما يمين الحب الأبدي
 وسمعا وقع خطوات ، ونبأة أصوات
 تفرقا في سرعة يتخطيان الأوراق والأزهار
 وعاد إلى مكتبته ، وعادت إلى ستائرها •

★ ★ ★

اختبرت الصخرة صفاء الذهب
 كلما زاد الترابط بين القلبين
 زادت حرقه الانتظار ضنى العاشقين •
 جف نهر « تونغ » وأصبح ساقية صغيرة (٩)
 الحبيبة تنتظر عند منبعه ، والحبيب يتنهّد عند مصبه
 لا يفصل بينهما غير جدار
 ولكن الثلج والضباب كانا يحجبانه
 في ربيع جهما لم يجدا رسولاً ولا رسالة
 ومضى الوقت يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة
 خلعت الأشجار برد الأزهار واكتست بالخضرة
 والربيع يكاد يمضي ، وفي أسرة الأم
 كانوا يحتفلون بذكرى سنوية ، فذهبت أسرة « فونغ » تحمل النذور
 وبقيت « كيو » وحيدة في ثياب العيد
 الفرصة طيبة ، وحملت مسرعة بعض الفواكه والحلوى
 وها هي ذي في رشاقة تهرع إلى الجدار
 ومن بين أكوام الزهر أسمعت صوتها
 ووراء الأزهار كان « كيم » ينتظر
 وصاح : « ما أقسى هذا الإهمال ، لماذا
 « نترك نار حبنا تخبو ، وما كادت تشتعل ؟ »
 « أيامي نسجها الانتظار والألم »
 « وشعري بدأ يشيب »
 وقالت : « الأمطار والرياح حالت بيننا • »
 « أعترف أنني أخطأت ، غابت أسرتي اليوم »
 « وها أنذا الآن يلبي قلبي نداء قلبك »
 ودارت حول الصخرة الصغيرة ووصلت إلى أعلى الجدار
 كان سياج صغير يقطع الطريق ؛ فأزاحته

وانفتح أمامها وادي السعادة •
 كانا واقفين وجهاً لوجه ، يتعب أحدهما من التطلع إلى الآخر
 ولا يكفان عن ترداد الكلمات الحلوة
 ومضيا إلى بيت « كيم » كتفياً إلى كتف
 في نجواهما دغدغة النسيم ونور القمر
 أما أيماهما فكانت خالدة خلود الأنهار والجبال
 كانت على منضدة هناك ريش ومجموعات شعر
 وعلى الجدار لوحة تمثل صنوبرة أكثر جمالاً مما هي في الطبيعة •
 ولم تكف « كيو » عن الاعجاب بها ، ورجاها « كيم » أن تكتب عليها بضعة أبيات
 وبأناملها ، وهي أنامل حورية ، وفي سرعة الريح
 كتبت على اللوحة بعض المقطوعات
 ودهش « كيم » وصاح معجباً « تحت يديك يولد اليشب والألماس »
 « بان » و « تان » هاتان المرأتان اللتان يفتخر بموهبتهما القدماء
 « تكادان تبلغان عبقريتك ، على أبعد تقدير
 « لعل مآثر حيواتي السابقة •
 هي التي جعلتني أستحق هذه السعادة • »
 وقالت : « عندما أراك تبدو لي رجلاً ذا أصل طيب ومستقبل لامع • »
 « أما أنا فقدرتي سريع العطب كأنه جناح يعسوب
 « أترى تتيح لي السماء أن أذوق السعادة »
 « كنت ما أزال صغيرة عندما قالت لي النبوءة :
 « هذه الزهرة كثيرة النضارة ، وستبقى طوال حياتها
 « عرضة لضربات الحظ »
 « أنا أرى أي رجل ستغدو ، فأفكر في نفسي »
 « يمكن أن تجتمع السعادة والتعاسة ؟ • »
 « أجاب « كيم » : لقد كان لقاؤنا قدراً »
 « إن إرادة الناس تنتصر غالباً على قسوة الحظ »

« إذا حدث وانفصمت عرى حينا
فسأضحى بحياتي على مذبح أيماي * »
الف كلمة حلوة وألف كلمة تبادلها
إن فرح الربيع يزدهر في قلبيهما
ومع الخمر تذوقا نشوة حبهما
زمن السعادة قصير ، بل هو أقصر من شبر
هنالك في الغرب حجبت الجبال الشمس
إنها لا تستطيع أن تتأخر ، فودعته
وفي بيتها علمت أن أهلها مدعوون إلى العشاء
وفي سرعة أسدلت ستائر الباب
ومضت إلى الحديقة في الليل
كان القمر يعطرز أوراق الأشجار بأنواره وظلاله
وفي ضوء قنديل خافت ، كأنه حباحب أصفر في الليل
وراء ستائره سمع « كيم » بين اليقظة والحلم
وقع خطوات خفيفة كأنها نسيم يخطر على أزهار النيلوفر
كان شعاع من القمر يتسلل خلصة
واقترب ظل رشيق كالزهرة
أتراه يرى حلماً من الأحلام التي تنبثق في الربيع ؟
وسمع صوتاً ناعماً : الليل معتم ، والحديقة ممقفرة
ولكن ليس أمام من يريد قطف زهرة الحب طريق طويل
نحن نقف وجهاً لوجه * لعل ذلك سيصبح غداً حلماً
يمكن في سهولة أن نتصور استقبال « كيم » لها وفرحته بها
أعاد ملء قنديله وتأجيج بخوره
وعاد الحبيبان يؤكدان أيماهما ، ومن شعرها
الذي يتموج تموجات أروع من تموجات الغيوم ، قصت « كيو » خصلة
وقسمتها قسمين : كانت الخصلة عربون الحب

القمر ، في أعلى السماء ، مضيئاً صافياً ، كان هو الشاهد •
 تناجيا وتعادشا
 وباح كل منهما لصاحبه بأعمق أسراره وأفكاره
 وقررا مصيرهما إلى مائة عام ، إلى الأبد
 كانت كأس الخمر تتلأأ كأنها جوهرة
 وستائر الحرير معطرة ، والمرأة ترصع صورتيهما
 وقال كيم : « أشعة القمر صافية ، نسيم الليل ندي »
 « وأنا أكاثم رغبة لم ترتو منذ زمان
 « على جسر » لام » (١٠) لم تضرب يد اليشب
 « ولكنني أخشى ، إن رجوتك ، أن أزعجك
 وقالت « كيوي » « لقد تبادلنا ورقة الأرجوان
 « ونسجنا الخيوط الحمر ، وتكفي كلمة واحدة فتمت وحدتنا
 « دعنا من حديث القمر والزهر
 « فأنا ، دون أسف ، لا أرد لك طلباً • »
 وقال : « أنت موسيقية مشهورة
 « مثل « شونغ كي » (١١) ، وأحب أن أسمعك
 « وأحلم بالأنهار والجبال التي تحلمين بها • »
 وأجابت « كيوي » « أنا قليلة الموهبة ، ولكنني أربي رغبتك • »
 كان في الشرفة قيثارة ، وقدمها « كيم » إليها في حفاوة واحترام
 وقالت : « فني متواضع ، لست أستحق كل هذا الاهتمام • »
 وجست الأوتار العليا والسفلى وأحكمتها
 وانبعثت الموسيقى ، فسمعنا الحديد يصدم الحديد
 وسمعنا الذهب يرن : إنها الحرب بين « هان » و « سو » (١٢)
 ثم جاء دور التنهيدات الطويلة ، والأنات الأليمة
 « تو ما » تبكي العنقاء التي دلهاها الحب (١٣)
 وعزفت « كي كانغ » لحن « كوانغ لانغ » (١٤)

هذه هي أغنية الماء الجاري ، والغيوم الشاردة
ونواح الحسناء « شيو كوان » التي باعوها للبرابرة (١٥)
إنها تجتاز الحدود وتبكي على ملكها الذي تحبه ،
وتبكي على أسرتها اليائسة ٠٠٠ وتتابع الأنغام
رائعة ، صافية ، صرخات عصفور في ليل
تضطرب كأنها زمجرة سيل على رابية
الأنغام البطيئة تهب مثل نسمة ناعمة
والأنغام السريعة تجري مثل سيل هادر .
ويخيل إليك أن القنديل يسطع نوره أو يخفت على حسب الألحان
وها هو ذا يستمع إليها ويفرق في حلم حزين
يخفض رأسه ويلوي ركبتيه
 ويفرك حاجبيه ، ويشعر بتقطع أحشائه
إنه يقول : « موسيقاك رائعة

« ولكن كم فيها من مرارة ، كم فيها من أسى !
لماذا تختارين هذه النغمات المؤثرة
« التي تجرح قلبك ، وتقلق من يستمع إليك ؟ »

وأجابت : « العادة غالبية
« كل إنسان له طبعه : سواء أكان حزيناً أم مرحاً
« سأحاول تعديلها ، متبعة نصيحتك ، فهل أنجح ؟ »
« بدت الزهرة أكثر نضارة والعطر أكثر إثارة للنشوة
وفي عيون الحبيين تصاعد محرقاً لهيب الحب .
وتصاعد هوى « كيم » كأنه موجة
وأطل شيء من الرغبة في حنانه .
وقالت « كيو » تنذره « لا تفسد هوانا »
« دعني أقل لك كلمة بسيطة

- « ما أسرع الذبول إلى زهرة الخوخ ، عصفور السماء
 « لن أوصد في وجهه أبواب الحديدية
 « لقد رفعتني إلى منزلة زوجة
 « والمرأة التي تحمل رداء القنب (١٦) ، يجب أن تظل نقية •
 « أ أكون من اللواتي يرتعن بين أشجار التوت ؟
 « سأكون غاضبة منك ، محتقرة لك
 « أترانا نقطف، عابرين زهرة يوم واحد
 « لنفسد إلى الأبد حب حياة كاملة
 « ألم تكن « توا » و « ترونغ » أجمل الأزواج (١٧)
 « ولكن سرعان ما أخمدت الغيوم والأمطار بريق اليشب والذهب
 « الزهرة اللينة سرعان ما تسأم طيور الربيع
 « أجنحتها تتلاقى ، أفنانها تتعانق
 « ولكن هذا الحب ذبل وغطاه العار
 « وخبا بخور اليمين ؛ وتحت سقف المعبد
 « هوى ذلك الحب في العار وقد كان صافياً ورائعاً
 « وكان على « توا » الحسناء أن تلقي مكوكها (١٨)
 « لكيلا تخجل بعد ذلك من حبها
 « لماذا تريد أن تسرع في كسر الغصن ، في انتزاع الزهرة ؟
 « سوف يلبي حبي حبك ذات يوم * * » •
 كانت الكلمات مستقيمة صادقة فأجبرت « كيم » على احترامها •
 شحب ضوء القمر على أوراق الشجر
 وعند البوابة أعلن أن رسولا أتى

★ ★ ★

أسرعت « كيو » في العودة ، ومضى « كيم » إلى الحديقة
 يفتح البوابة • ودخل رسول صغير
 خبر مزعج : مات عمه في أرض غريبة
 ووالده يطلب منه السفر
 إلى (ليو زونغ) البعيدة ليشرف على الجنازة
 واضطرب « كيم » وهرع إلى « كيو »
 يخبرها بما حل به من مصيبة ، وبأساء على فراقها
 « ما كدنا يرى أحدنا صاحبه
 « ما كدنا نعقد بكلمة مصيرينا يا للحب الحزين
 « وما نحن هؤلاء نفترق • القمر الذي شهد أيماننا ما يزال يضيء
 « سأصبح بعيداً عن عينيك ، ولكنني سأبقى قريباً من قلبك • أقسم لك
 « على بعد ألف فرسخ منك ، وطوال فصول وفصول
 « سأبقى غريقاً في آلامي التي لن تنقشع عن قريب
 « صونني نفسك ، أكثر من الألماس ، أكثر من الذهب
 « لكي يشعر هذا الذي يحبك أنه مطمئن القلب
 « وهو في الناحية القصوى من الأفق ، وراء الغيوم البعيدة • »
 وصرخت « كيو » وقد مزق الألم أحشاءها ، في كلمات متقطعة :
 « ما أقسى الاله الذي ينسج خيوط الحب
 « وقبل أن نذوق لذة الوصال يقسم لنا ألم الفراق
 « نحن مرتبطان بأيماننا : وعلى مر الأيام والليالي
 « قد يتبدل لون شعري ، أما سويداء قلبي فلن تتغير
 « لن أعدّ شهور الانتظار ولا سنيه
 « سأفكر فيك وحدك دائماً ، وأنت تأكل تحت المطر
 « وتنام في الريح ، وسأحتمل ألمي في صمت
 « لقد تعاهدنا على الاخلاص طوال الحياة ، وأقسم لك

« إنني لن أعزف على قيثارتي في مركب آخر
 « ستبقى الجبال والأنهار وحياتنا طويلة
 « وسأذكرك حتى تعود »
 بقيت أيديهما متشابكات ، لا يستطيعان الفراق

ولكن ، على أعلى السطح ، بدت طلّاع أنوار النهار
 كل خطوة تفصل بينهما ، كل كلمة وداع
 تمزق قلبيهما ، وخنقت الدموع الكلمات
 كان الحصان قد أسرج « والزاد قد أعد في سرعة
 ومضى كل في طريق ، يحمل عبء ألم مشترك
 تتابعت القرى أمام المسافر الكثيب
 وعلى الأغصان كانت العقاقق ترسل صرخاتها
 وأسراب متفرقة من البط البري تخترق السماء
 والرياح تعصف والمطر يهطل
 وأحس الفتى أنه ينوء بعبء الحب

★ ★ ★

بقيت « كيو » في الشرفة
 تلملم في صعوبة ما في قلبها من قلق .
 وراء نافذتها يصعد دخان رمادي
 يا لها من زهرة رائعة الألوان ، أضاعت ألقها
 يا لها من صفصافة ندية ، تساقطت أوراقها في الربيع وأصبحت صفراء
 ظلت تفكر حتى عادت الأسرة من العيد
 ولم تكذ تلتقي بأسرتها حتى داهمت البيت
 شرادم من الشرطة ، هذا يحمل سيفاً ، وهذا يحمل عصا
 رؤوس ثيران ، ووجوه خيول وسادت فوضى ليس لها مثيل .

وضعوا نيراً خشبياً في عنق المعجوز (فونغ) وفي عنق ولده
 وضربوهما ضرباً مبرحاً فيا للمعار !
 وامتلأ البيت بطنين هذا الذباب الكريه
 كسروا أنوال النسيج ، كسروا صناديق التطريز
 والأشياء الشخصية وأشياء الأسرة التذكارية ، لم يتركوا شيئاً •
 كلها اختفت في جيوبهم الواسعة
 من أين حلت هذه المصيبة المفاجئة من نصب الفخ ؟
 من ألقى الشرّك ؟ ذلك ما عرفوه بعد قليل
 تاجر حرير نصاب اتهمهم ، في جنون
 بأنهم بشوا الشقاق في أسرته ، كان ينادي بظلامته
 فتهز الأرض ، وكانوا يعلنون براءتهم ، فتتزلزل السماء
 جعلوا يرجونه ويستخذون له ، ولكن عبثاً فالآذان صماء
 وظلت الأيدي تتابع عبثها «السمح
 على جسر من الخشب علقت الضحايا
 لو حل ذلك بالصخر لتقلقل ، فكيف وقد حل بالناس ؟
 وارتسم الذعر على كل الوجوه
 وتوسلوا إلى السماء ، ولكن السماء كانت بعيدة
 يا لهؤلاء الحكام والشرطة من عصابة حقيرة •
 أي شناعة لا يرتكبونها في سبيل المال ؟
 وفكرت « كيو » ما العمل لانقاذ أهلها الأعزاء
 المصيبة حلت ، ويجب أن تقرر
 أتراها ستضحى بهذا الحب الذي عقده القدر ؟
 أتراها تترك أباه وأمه اللذين غذاها وربياها ؟
 أتراها عبثاً أقسمت على حب واسع كالبحر خالد كالجبال ؟
 يجب أولاً أن أفي ديني : البر بالوالدين يجب أن ينتصر •
 وقالت للشرطة : اتركوهم ، سأبيع نفسي وأشتري حرية أهلي

كان العجوز (شونغ) مدير التنفيذ ولكنه كان طيب القلب
وأعجب بعواطف « كيو » النبيلة
ونصحها قائلاً : « كي نرشو هذا وذاك
عليك أن تدفعي ثلاثمائة قطعة ذهبية ، غير منقوصة
سأحاول أن يبقى أهلك تحت المراقبة
حاولي تدبير المال ، في مدى يومين أو ثلاثة * »
يا لهذه الطفلة المسكينة ، يا للصبية البريئة ،
لقد حلت بها الكارثة كما تحل الزوبعة ، إن الفراق أقسى من الموت •
ولكن كيف تأسى على حبها ، وهي التي لم تأس على حياتها ؟
قطرة المطر ، هل يحق لها أن تتشكى ؟
والقشة من العشب أليس عليها أن تدفع دينها لرب الربيع ؟
تشمم السمسارة رائحة الصنفرة الرابعة
وانتقل الخبر من فم إلى أذن
وجاءت إحدى السمسارات بزبون قدم من منطقة بعيدة
يدعى (ما جيام سينه) زعم أنه من (لام تانه)
كهل في الأربعين من عمره ، حليق ، يلبس لباساً فاخراً
السيد يمشي في المقدمة ، والخدم في المؤخرة ، ودخلت معه حاشية صاخبة •
ووراء السمسارة التي أربكها تقديم واجبات الاحترام
تربع الرجل رأساً على مقعد الشرف
وجعلت السمسارة تستعجل « كيو » لتستقبل الزبون
والصبية مثقلة بعذاب الحب وشقاء الأسرة
كانت تتقدم في بطء تحت الشرفة المزينة بالأزهار
كل خطوة تخطوها تكلفها سيلاً من الدموع
يا لها من زهرة تحت المطر تضربها الريح ويعبث بها البلل •
كانت تنجل من رؤية الأزهار
كانت ترى عارها في المرأة

أخذت السمسارة بيدها ، وداعبت شعرها الجميل
 كان وجه « كيو » أقحوانة ذابلمة
 تمشي كأن أقدامها مكسورة : مثل شجرة اجتثت من جذورها
 رازوا مواهبها ، ساوموا على محاسنها
 وألزموها أن تعزف على القيثارة ، وأن ترتجل أشعاراً
 أرضت البضاعة ذوق الرجل ، ووجد طعمها طيباً ذا نكهة •
 وبدأت عمليات النخاسة • وقال الرجل : « على جسر » لام
 اكتشفت جوهرة ، ويهمني أن أعرف ثمنها • »
 وقالت السمسارة : « مثل هذه الصبية الجميلة تساوي ألف قطعة من الذهب
 ولكن الأسرة المفجوعة تعول على كرمك • »
 واستمرت المساومة عنيفة : فلماً بعد فلس

ثم اتفقوا : ٤٠٠ قطعة ذهبية ، ويضاف إليها بضع قطع
 وانتهى المزاد ! راكبة الزورق تستطيع أن تأخذ المجداف
 البطاقات المكتوبة باسم الخطيبين تقوم مقام الرهينة
 تاريخ الخطبة ، يوم الزواج ، كل ذلك تم الاتفاق عليه
 الرجل غني غنى فاحشاً : فما الذي يعسر عليه أن يسويه
 وتوسلوا إلى الشرطي العجوز فتدخل : « أطلق سراح الأب
 يا للأب المسكين ، يا للبنت المسكينة ، ها هما هذان يتلاقيان وجهاً لوجه
 وشعر العجوز بقلبه يقطر دماً وبأحشائه تتقطع
 وصرخ قائلاً : « يا ابنتي ، كم من حلم جميل حلمت به من أجلك
 » كنت أظن أن رب السعادة سيقود يدي

» فانسج خيوط زفافك الأرجوانية ، وألقي الكرة إلى خاطبك (١٩)
 » أيتها السماء : لم كل هذه القسوة؟! لم كل هذه المظالم؟!
 » لماذا تفرضين علينا هذا الفراق؟
 » إذا كان هذا الجذع العجوز يحتمل ضربات الفأس فلا بأس

« ولكن لم عذاب هذه الطفلة ، الكي يزداد أسي أبيها
 « وهو الذي سوف يموت اليوم أو غداً • خير لي أن أقضي من أن أقاسي
 هذا الشقاء ! »

ورافقت سيول من الدموع كلمات الأب العجوز •
 وها هو ذا يسرع ، ويضرب رأسه بالحائط
 أسرع الجميع للامساك به • وأخذته « كيو » في رفق
 قالت له : « أنا طفلة غضة موردة الخدين ، دُين أبوي اللذين ولداني •
 « لم أَدفع منه قشة ، وأنا خجلى
 « أمام (وانه) التي كتبت تطلب الرأفة أو (لي) التي باعت نفسها (٢٠)
 « يا والدي : أنت جذع الشجرة الخالدة ،
 « التي تحمل أثقال أغصان لا يحصى لها عدد
 « إذا نحن لم نحطم القيود التي تربطنا
 « عصفت الزوبعة بأسرتنا كلها
 « ومن الأفضل أن أضحي بشخصي المتواضع
 « ما قيمة زهرة اقتلعتها الريح
 « ما دامت الشجرة خضراء • ذلك هو قدري هبني
 « برعماً سقط في مطلع أيامه
 « كفاك عذاباً وحساباً •••
 « إنهما يهدمان سقف بيتك ، ويؤديان إلى ضياعك • »
 أصغى الأب إلى صوت العقل ، ونظر إلى ابنته
 وسالت الدموع على الخدود محرقة مرة
 ولكن ها هو ذا « ماجيام سينه » وحاشيته
 وقع العقده ، ودفع المال ••
 يا رب الزواج ، لماذا أنت قاس •
 لماذا تعقد ، مصادفة ، الخيوط التي تمسكها بيديك ؟

المال موجود إذن فمن اليسير أن يصبح أبيض
ما كان أسود . وساعد الشرطي العجوز ، وقدمت الهدايا للسلطات
وسويت القضية باسم القانون .

★ ★ ★

مضت العاصفة التي زعزعت الأسرة
وحل موعد الفراق العسير على « كيو »
كانت تقبع في غرفتها ، ليلاً ، وحيدة هي والمصباح
ثيابها مبللة بالدموع ، شعرها يشعته الألم
« أيها القدر ، مهما كنت قاسياً ، فأنا صابرة ، ولكن الألم
يعتصرني وأنا أفكر في ذلك الذي وعدته وعد شرف
لقد تعب وتألم عبثاً
لقد مزق حبي حياته
ما تزال الكأس التي شربناها ندية ، لم نكد نقسم على الوفاء
حتى حنثت بيمينني ، وفصمت عرى حبي
كيف يستطيع ، وهو تحت سماء (ليو زونغ) وراء الأنهار والجبال
أن يعرف ما حل بي من مصائب ؟
أيها القسم ، يا دين الحب ، ليس لي أمل في هذه الحياة
ولكنني ، إذا بعثت مرة أخرى ، فسأبقى وفية لوعدي
سأصبح ثوراً أو حصاناً ، لكي أصون كلمتي
أما في هذه الحياة فسيبقى ديني عليّ لا أستطيع الوفاء به
سأحمل إلى مملكة الظلال ، حبي نقياً صافياً كالبلور . »
ظلت وحيدة تجتر أفكارها السود
والزيت ينفد في مصباحها
والدموع تفرق مناديلها
واستيقظت أختها « فان » ، فجأة من نومها الربيعي

ودنت منها تحت نور المصباح ، وسألته في حنان :

« ما أشد عمى الضربات التي كالتها لنا السماء !
 « من كل أعضاء الأسرة ، أنت وحدك يا أختي حملت أثقالنا
 « لمذا ترهقين نفسك بالسهر في الليل
 أتكتمين في قلبك حباً يائساً » .

قالت « كيو » « قلبي يفيض أسىً وأنا أكتم زفراتي ،
 « أنا ضائعة في شباك حب لا أستطيع أن أحل عقدها
 « إذا حللت وثاق شفتي لأتكلم خجلت
 « وإذا كتمت السر كان الكتمان خيانة
 « لي عندك رجاء . إذا شئت
 انخيت أمامك قبل أن أتكلم
 « لقد تقطع نياط قلبي في منتصف الطريق
 وأنا أترك لك يا اختاه أن تلمي قطعه المبعثرة
 « منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه « كيم » .
 « في يوم من الأيام سجلنا عهدنا على المروحة
 « وذات مساء شربنا معاً خمرة القسم
 « ولكن العاصفة هبت فجأة ، ولم أعرف هل أددع
 « دين حبي أو دين أهلي عليّ ؟
 « ما تزال لك في ربيعك أيام طيبة
 « فأرجوك يا أختي ، أن تحلي محلي في المحافظة على يميني
 « أستحلفك بروابط الدم التي تجمع بيننا .
 « يمكن أن تتحول عظامي إلى رماد ، وفي مملكة الموتى
 « سأمضي والابتسامة على شفتي أتشوق عبر سعادتك

« إليك القلادة ، وهي عربون حبنا ، وإليك سجل قسمنا
 « احتفظي بهذه الذكريات المشتركة ، وبخييط حبنا
 « رُبّما غدوتما زوجين ذات يوم
 « فتذكري هذه التي حل بها الشقاء
 « لن تجدي لشخصي ، ولكن ذكرياتي ستبقى هنا :
 « ملامس قيثارتي ، بقايا بخوري
 « وإذا حدث أن أحرقت هذا البخور وأن لمست هذه القيثارة
 « وإذا رأيت الأعشاب والأوراق تتمايل في هبة الريح
 « فاعلمي أنني قد عدت إليك لحظة ، وأنني معك
 « ستبقى روحي دائماً مثقلة بحمل يميني
 « وجسدي وهو طري كالقصبه سوف يتكسر لينى بوعدى
 « لن أرى فى مملكة الظلال وجهيكما ، ولن أسمع صوتيكما
 « ستسكين كأساً من الماء من أجل راحة روح ملعونة
 « لقد تكسرت القلادة والمرأة ، وتكسر شبابى
 « وا أسفاه كيف أستطيع أن أصف لك سعة حبى
 « مائة مرة ، ألف مرة أقدم احترامى لحبيبى
 « ما أشد ما كان الخييط الذى جمع بين قلبينا قصير المدى
 « ما أشد ما كان الحظ الذى أصابنا سريع العطب
 « الموج يرتفع ، والزهرة التى انتزعتها الريح تمضى فى التيار على
 غير هدى

« كيم ، يا حبيبى كيم ، ذلك كان حظى
 « لقد خنتك منذ اليوم ! »

وأغمى عليها ، وخدمت أنفاسها وتجمدت أطرافها
 واستيقظ والدها ، وأصاب البيت دعر شديد
 وقدمت إليها الاسعافات ، ومضت الأزمة ، وظلت « كيو » تبكى
 وسألوها فازدادت نحيباً ، ولم تنبس بكلمة

قالت « فان » في صوت خافت تفسر موقفها :
« إليكم القلادة واليمين ... »
وصرخ الأب : « أمن أجلي سحقت حبك !؟

« الخيوط التي تقطعت ستعيد أختك عقدها
« أيتها السماء ، لماذا يجب على الابرة أن تنفصل عن المغناطيس ؟
« وعلى البذرة أن تنفصل عن العنبر ؟ ، وأنت يا أبتني
« لماذا حكم عليك أن تكوني عشبة تتقاذفها الأمواج !؟
« أن تكوني غيمة تمزقها الرياح كما تشاء ؟
« لقد تركت لنا وصاياك الأخيرة
« قد تتفتت الصخرة ولكن وصاياك ستبقى قاعدتنا الذهبية . »

وانحنت « كيو » أمام والدها ، وقدمت له احترامها
سيدفع دين حبي بفضلك يا أبي
لست أبالي إن كان كتب عليّ أن أكون أمة
لست أبالي إذا ابيضت عظامي في أرض غريبة

★ ★ ★

أين من يصف لنا شقاء « كيو » ؟
في الليل ، كانت جولات الحرس ، سريعة الخطى
كأنما تستعجل سهرات الليل
كان هودج الزفاف ، وكله مغمور بالزهر ، ينتظر عند الباب
وها هي ذي القيثارات والمزامير تعزف أغاني الوداع
ما أشد ألم هذه التي تسافر ، وألم أولئك الذين يبقون .
الخيوط التي تربط بين قلوبهم تتمزق
وتتداخل كأنها خيط دودة القز تنسجه وهي خائفة القوى .
الدموع تنهمر حتى تكاد ترق لها الحجارة .

- وعند المساء ، كانت الغيوم السود تغطي السماء بالقتام .
والاعشاب تيبس والأغصان تثقلها الأنداء
• وقادها الموكب الى الفندق ، وأغلقوا عليها الأبواب .
• وحولها تنتشر زوايح ربيع من الشهوات .
يا للعار ! أتسقط صبية في عمرها ، في مثل هذا التورد وهذه النضارة ؟!
ان قلبها يتمزق ، وهو تجتر ألمها ويأسها
لقد سقطت الزهرة الالهية في أيد قذرة
وقالت لنفسها : « ألم يكن حرصى على طهارتي عبثاً ؟
» عندما كان حبي حاراً مثل الشمس ، جامعاً مثل المطر
» آه . لو كنت أعلم انى سوف أقع في هذه الحمأة
» لكنت أنت الذي قطفت زهرة بكارتي
» لماذا أغلقت الطريق أمام نسيم الشرق الرفيق ؟!
» نحن الآن نتوجع ، وألمى دون حدود
» أترانا نلتقي مرة ثانية ، أيتاح لنا أن نحلم بأمل ؟
» ماذا بقي منى ؟ وقد أرهقني حظي
» أتراني سأحمل القدر الأسود قدر الخدود الوردية ؟ • «
كانت على المنضدة سكين أخذتها وخبأتها طي ثيابها ،
» سأضع حدّاً لأيامي - إذا حدث في يوم من الأيام
» أن غمرت قدمي أمواج الخزي والعار • «
هزيع من الليل مضى بعد هزيع ، وهي وحدها ساهرة تحلم
لا تشك في أن القدر تمثل لها
في شخص « ماجيام سينه » الحزين
كان قد مارس مهنة الحب السهل ، كان عربيدياً لم يبتسم له الحظ
كان يصطاد ما بين القمر والأزهار
تعاونه (تو با) وهي سيدة لها مقاصير خضر (٢١)

كانت محظية شاخت ، وذبلت
دبرت المصادفة الأمور ، فبائعة النشارة
تحالفت مع النصاب بائع الكوسى المر (٢٢)
وفتعا معاً دكاناً ، يتاجران فيها
بالمساحيق والعمطور ، والابتسامات والمداعبات
يطوفان المدن والقرى ، ويجمعان ما يزعمون أنه خادمت
يدربانهن على اللهو واللذات
أترى ذلك حظاً سعيداً أو تعيساً ؟ من يستطيع اكتناه أقدار السماء ؟
لقد اختار الحظ امرأة بائسة
فيا له من قدر حزين يصيب فتاة نقية بريئة !
إنها زهرة بيعت في صباها لداعرين حقيرين
وكان الفخ منصوباً في إحكام : خطبة وزواج
وفرح الرجل ٠٠٠ لقد أمسك براية الشرف
كان كلما تأمل غنيمته زادت شهوته
أين يجد مثل هذا الجمال ، مثل هذا العطر الالهي ؟

« إن ابتسامتها وحدها - دون مبالغة - تسوى ألف قطعة ذهبية
عندما تحل لدينا ، فساكون أبا عذرتها
« الأمراء النبلاء ، والزبائن الأغنياء ، كلهم سيخصمون عليها
« وهذا وحده يسوى على أقل تقدير ثلاثمائة قطعة ذهبية
« وهكذا نستعيد رأس المال وتأتي بعد ذلك الأرباح ٠٠٠
« ما أحسن هذه الروعة المنتقاة في متناول شفتي !
« بزواجي منها سوف أنقص سعرها ، ولكن الاغراء كبير
« هذه الزهرة السماوية على طرف يدي النجستين
« لنقطف الغصن ، لنشرب حتى نرتوي .
« من من زبائننا الباحثين عن اللذة
« يعرف مداعبة الأزهار ، يفهم أسرارها ؟

« يكفي نقيع قشرة الرمان ، دم ديك
 بعض الاحتياطات وتبقى المظاهر سليمة
 لن يجدوا قطرة ، وتبقى التعرف على حالها
 وإذا أرادت العجوز إزعاجي ، فسوف أرضيها
 أركع أمامها على ركبتي فترضى
 ومع ذلك فستكون الرحلة طويلة ، وغيايبي يثير الشبهات •
 وأسفاه • إن الزهرة الغضة عرفت لسعة اليعسوب
 في أكثر أحشائها سرّاً عاثت الحشرة العقيرة •••
 ثارت الزوبعة في أقصى غضبها وعنقها
 لم تشفق على الجوهرة ولم ترفق بشذى الزهرة
 كانت تلك الليلة ليلة أحلام مرعبة وكوايبس
 « كيو » راقدة دون حراك ، وحيدة تحت المشاعل التي تنفث دخانها
 تبكي بدموع كالسيل ، وتشمئز من نفسها
 يتفجر حقدّها على الرجل • أي مخلوق سمج !
 هذا الجسد الثمين مثل الذهب ، هذه الخدود الوردية المعرضة للاهانة
 أي أمل بقي لها ؟ أن تبقى هنا ، تلك هي النهاية
 غاظها قدرها وكرهت حظها
 وأمسكت بالسكين لتضع حداً لحياتها
 وعاد إليها صوابها : سأموت أنا وأستريح
 ولكن ماذا يحدث لأولئك الأعزاء ؟
 سيحيق الظلم مرة أخرى بأبويّ
 عليّ أن أتعقل ••• لا بد مما ليس منه بد " عاجلاً أو آجلاً"
 وظلت طويلةً تزن الأسباب الموجبة والسالبة
 وما هو ذا صياح الديك ينبعث من وراء الجدران
 وفي المرقب نفخ البوق في ضباب الصباح
 وأسرع « ماجيام سينه » فأمر بالرحيل

آه يا لمأساة الفراق • وعلى الطريق الوعرة
 تعثرت الخيول ، وترنحت العجولة •
 وفي الاستراحة الأولى على بعد عشرة فراسخ قدم الأب طعام الوداع
 كان الضيوف والمدعوون يشربون ويأكلون خارج النزل •
 وفي الداخل جلست الأم والبنت معاً
 كانتا تتبادلان النظرات وتبكيان بدموع سخية
 وأسرت « كيو » إلى أمها هامسة :
 « أنا أخجل لأنني خلقت بنتاً ناعمة سهلة العطب
 « لا أستطيع أن أقوم بوفاء ديني لوالدي
 « اليوم ، تعكرت الموجة وثار الغبار
 « أيمن أن أودع قلبي عندك إلى الأبد
 « يا أماه ، لقد راقبت سكناته وحركاته في هذه الأيام
 أخشى أن أكون قد وقعت بين يدي نصاب
 « إذا قدم تركني وحيدة ، وإن دخل كان مرتبكاً
 « وإن خرج كان كأنه يهرب ، كلماته يلقيها جزافاً ،
 « خدمه لا يحترمونه ولا يخافونه •
 « ليس فيه شيء من علائم النبيل والوجاهة ، ولو نظرنا جيداً
 « فان فيه كل مظاهر التصنع والتكلف
 « يا أماه ••• بنتك عما قليل لن تصبح لك بنتاً
 « ستصبح الأرض الغريبة مأواها ، ثم يضمها قبرها • »
 أرادت الأم ، عند سماعها هذه الكلمات • أن تصرخ بالسماء طالبة عدلها
 ولكنها لم تكذ تفرغ كأس الوداع
 حتى كان الرجل ينح العجلات على السفر
 كان الأب أشبه بالميت وهو يرى ابنته المذبذبة
 أمسك بسرج « ماجام سينه » يرجوه :
 « غصن من الصنصاف غض ، زهرة من أزهار الخوخ ناعمة ،

« تلك هي ابنتي : ولكن شقاء والديها جعل منها أمة لك
« ستصبح ضائعة في البحر الواسع ، وتحت السماوات البعيدة
« لتكن أنت لها الصنوبرة الكبيرة التي تحتضن في ظلها
« هذه العشبة المسكينة وتقيها الثلج والندى »

وأجاب الرجل : « نحن الآن تؤلف بيننا
« روابط الزوج المقدسة ٠٠٠ وإذا حنثت يوماً
« فليكن القمر والشمس شاهدين عليّ
« وليسقط على رأسي غضب السماوات »

إختفت العجلة في زوبعة من الغبار الأصفر
كانها ذاهبة إلى الجحيم تسوقها الرياح والغيوم
أتبعها أسرتها « فونغ » نظراتها طويلاً ، وهي تمسح عبراتها
وظلت أنظارها معلقة ، يوماً بعد يوم ، بهذه الرقعة من الأفق

★ ★ ★

بعيداً بعيداً قادت الطريق « كيو » عبر بلاد غريبة
وجسور بيض من الجليد ، ورقاب غيوم سود كثيفة ؛
وأقصاب ترتجف ويلتصق بعضها ببعض عند هبوب الريح
كانت سماء الخريف تسكب حزنها عليها وحدها
والقمر يذكرها ، ويا لعارها ، بقسمها
الذي أرادت أن تجعله ثابتاً مثل الأنهار والجبال
كان الخريف ينشر قطعاً من الذهب على الغابات الخضرة
والعصافير تزقزق فكانها تذكرها بأهلها البائسين
أنهار غريبة تتلاحق بعد جبال مجهولة
ومضى شهر ، ووصلوا إلى « لام تري »
وقفت العجلة أمام بوابة

- وأزاحت امرأة ستارة ، ودنت منها : سحنة شاحبة
ولكن ما أسمنها ! ... وما أكثر نهمها !
وجعلت ، دون تردد ، تدور حول القادمة الجديدة
وبدعوة منها دخلت « كيو » الى البيت .
على اليمين بنات مخضبات الأهداب
وعلى اليسار زبائن ، وفي الوسط مذبح فيه بخور
على الجدار صورة ملك له حواجب بيض
لقد جرت العادة في « المقاصير الخضر »
أن تكون تحت حماية هذا الملك ،
• وأن تقدم إليه الأزهار والبخور في الصباح والمساء
وعندما لا تستطيع « بنت » اجتذاب الزبائن
كانت تخلع ثيابها وغلالتها وتحرق كومة من البخور
أمام حاميتها المقدس ، تدعوه مرة بعد مرة
وكانت تجدد أزهار المذبح وتضع بعضها تحت سريرها
• فاذا الرجال يعودون إليها ويحومون حولها
وانعنت « كيو » للرئيسة حائرة
وبدأت العجوز تدعو : « لتزدهر أعمالنا
« ولتتتابع أيام الأعياد وليالي القصف واللهو
« ليسقط ألوف الزبائن تحت «سحرك
« لتزدحم العنادل والعصافير في جوقه صاخبة
« على أشجار الخيزران والخوخ التي تهتز معاً
« لتتدفق سيول من البطاقات الحلوة ورسائل الحب
« فلا يكاد زبون يخرج من البوابة
« حتى تتلقفي آخر في مخدعك * »
لم تفهم « كيو » مغزى كل هذه الكلمات
• ولكنها أحست أنها وقعت في فخ مشروع قدر .

لم تكذ « تو با » تقدم نذورها إلى أرواح المنزل
حتى قفزت واستقرت على السرير الكبير وأصدرت أوامرها
وقالت : يا ابنتي ... انحني أمام أمك التي هي أنا
ثم قدمي تحياتك لأبيك هذا ...

وقالت « كيو » : لقد قررت أن أبيع نفسي ، عندما حلت المصيبة

« لأكون زوجة من الدرجة الثانية : ولست أفهم الآن

« هذا الغموض ... أي دور تعدونه لي هنا

« كل شيء جرى حسب القواعد : الخطبة والزواج

« لقد تقاسمنا خلوة الزوجين

« وأرى الأدوار تغيرت ، فأرجو أن توضحوا لي هذه الأمور »

فهمت « توبا » ما جرى وانفجر غضبها :

« إذن فقد أصبح زوجي فريسة لك

« لقد أغوته الصبايا الناعمات

« أما رضا الزبائن ، وأما أرباح أعمالنا

« فقد داس عليها بقدميه ، وكان أول من ضاجعك فيا له من وغد

« لقد أفسد البضاعة ، فالوداع للأرباح والوداع لرأس المال .

« وأنت التي خنتني ، ستلقين في هذا البيت العذاب .

« عندما أرادك هذا الوغد العجوز على الفحشاء

« قدمت إليه جسديك بدل أن تصفيعه على وجهه

« تركته ينالك أيتها القدرة ... فيا لك من صبية ويا لك من فاسقة !

« انتظري فسوف تعرفين قانوني . »

دنت منها المرأة الشرسة ، وفي يدها سوط من الجلد

وصاحت « كيو » : « الأرض قاسية عليّ ، والسماة ليس لها قلب

لقد ضحيت بحياتي من أول يوم تركت فيه أهلي ...

قلت لها دون أسف : الوداع ... » وأخرجت « كيو » سكينها ...

- وخافت العجوز ، ورمقتها ، ولكن الحركة كانت قد تمت
الوداع أيها الجمال ، الوداع أيتها الموهبة ... طعنة بالسكين
تكفي لقطع كل علاقة بهذا العالم الترابي
وانتشر الخبر كأنه غيمة باردة ، واكتسح البيت جمهور غفير
وخيل للناس أن « كيو » قد رقدت إلى الأبد
وأضاعت العجوز صوابها
وحملت البائسة الى غرفة داخلية
واعتنوا بها وجاؤوا لها بطبيب
ولكن الموت لم يرح « كيو » ... ما تزال الحبال تشدها إلى هذا العالم .
وأثناء سباتها ظهرت لها صبية وأسرت في أذنيها :
- « إن دورة الأسباب والنتائج لا يمكن أن تنقطع
« أنت لا تستطيعين الافلات من دين الآلام الذي عليك
« أيتها الحسنة ذات الخدين الموردين ، ستحملين قدرهما الثقيل
« هل يملك الانسان قطع الخيط الذي لا تريد السماء أن تقطعه ؟
« عيشي حتى آخر لحظاتك معيشتك كمخلوقة غضة
« لكي أعطيك موعداً باللقاء ، بعد ذلك ، على نهر « تيان دونغ »
استعادت « كيو » وعيها بعد يوم من العناية
- كانت « توبا » قرب سريرها تلاحظها وتحاول ملاطفتها
« نحن لا نعيش إلا مرة واحدة ... وأنت تشبهين زهرة
« في ربيعها ، ما تزال الأيام الجميلة في انتظارك
« أقول لك بيننا . سوء تفاهم أصبح خطأ ، لا يطاوعني قلبي ،
« وقد عرفت أن لك كرامتك ، أن أدفعك إلى عشاق أنذال
« أنت هنا ضائعة تائهة . فأغلقني عليك الباب
« احتفظي بنضارة ربيعك في انتظار سعادتك
« ما دام الانسان حياً فان له في الأمل حقاً

« سنبحت لك عن إنسان من أسرة نبيلة ، يكون أهلاً لك
لماذا تثيرين غيظ الحظ ، وتجربين الشقاء إليك
« فتضيعين نفسك إلى الأبد وتخربين بيتي ؟ »
هذه الكلمات المقنعة المهموسة في أذنيها في إلحاح
بدت لـ « كيو » مفعمة بالمغزى وبالصواب
ثم ألا يذكرها الحلم الذي رآته
بأن عليها أن ترضى بإرادة السماء ، وأنها إذا تخلصت من هذه الدورة
في التناسخ
فسيبقى عليها دين يجب أن تقضيه في هذه الحياة ... فلماذا إذن
تهرب منه ؟

ستبعث في وجود آخر وهي مثقلة بحملها

وأصفت في صمت وانتباه وقالت :

« أنا لم أجر وراء التعاسة ، ولكن هل لي أمل
في أن تصبح كلماتك حقيقة واقعة
« وهل ستحفظين غداً عهد اليوم ؟
« أخاف أن تحاصر اليعاسيب والفراشات هذه الزهرة
إذن فخير لها أن تموت نقية من أن تعيش في الطين ، »
وقالت العجوز الداهية « اصبري يا ابنتي
« أنت امرأة ذات قلب ... ولن يخدعك قلبي
« إذا أخلفت وعدي

« فلتشهد عليّ هذه الشمس التي تلمع فوق رأسينا ، »
هذه الكلمات الصارمة أدخلت الطمانينة الى نفس « كيو »
حبسوها في « مقصورة اللازورد الجميل » وحيدة هي وجمالها الربيعي
من بعيد كانت تتراءى ظلال الجبال ،
كانت رفيقة لها مثل القمر القريب

وحواليها على مد البصر تمتد رمال التلال الذهبية
 ويدور غبار الطرقات الوردي .
 والغيوم التي يلونها الصباح والمصباح الذي يترنح في الليل
 كانت كلها تقلقها . المناظر التي تتأملها
 والقلق الذي يأكلها كانا يتقاسمان قلبها
 أين ذلك الذي كان يشرب كأس الحب تحت ضوء القمر ؟
 يوماً بعد يوم انتظرت أخباره دون جدوى
 في هذا الشاطئ الضائع ، تحت تلك السماوات البعيدة
 الحب ، الذي يعمر قلبها ، لم يخمد أواره
 ما أكثر أساها عندما تفكر في والديها ، وهما صباح - مساء
 على عتبة البيت يرقبان الأفق دون أمل .
 من ذلك الذي يروح عليهما بالمروحة في الصيف ويغطيها في الشتاء ؟
 كم مرة في باحة منزلها ، مسقط رأسها ،
 غابت الشمس وهطل المطر ؛
 وشجرة الكتلة هنالك لعلها الآن أصبحت عجوزاً (٢٣)
 ونظرت الى مصب النهر عند المساء في حسرة
 أشرعة تبدو وأشرعة تختفي ، من بعيد
 تحمل ما لا تعرف من المسافرين
 ونظرت الى النهر تجري أمواجه ، في حسرة
 الى أين تمضي هذه الانهار دون هدى وأين تستقر ؟
 ونظرت الى السهل الذي يذبل فيه العشب في حسرة
 السماء والأرض تختلطان في خضرة لا يميزها الناظر
 شاهدت الريح تحتشد على الشاطئ . في لوعة
 علت ضجة الأمواج حتى بلغتها ، وهي على كرسيها .

★ ★ ★

هذه الأنهار هذه الجبال ، كلها غريبة عنها
 رددت بضعة أبيات تذكر فيها ألم المرأة المنفية
 وفي حسرة ، أسدلت ستائرهما ، ووراء الجدار
 سمعت صوتاً يردد شعراً على وزن شعرها
 وظهر شاب في زهرة عمره
 حسن الهيئة ، أنيق ، صقيل الشعر ، يلبس في ذوق
 وفكرت « لا بد أنه مثقف من أسرة طيبة »
 أفادت المعلومات أنه السيد « سو كانه »
 لقد أبصر خلال الستائر ظل « كيو »
 ويظهر أنه أبدى عطفاً عليها
 وجعل يصرخ : كيف تستطيع مثل هذه الحسناء الفريدة هذا الجوهر الالهي
 أن تتشرد ، لتقع في هذه الأمكنة ؟
 اني لأتميز غيضاً
 آه يا قلبي من يستطيع أن يكتنه ما تشعر به ؟
 آه ، لو علمت الحسناء أن هنا بطلاً
 مستعداً لكسر القفص وتحرير العصفور
 هذا كله عنده لعبة من اللعب
 وسحبت الستائر ، وسمعت « كيو » هذه الكلمات المتباهية ترن رنيناً •
 وفكرت في الرجل ، وفكرت في حظها
 وأثر فيها عطفه فشعرت أنها أقل عزلة وتفرداً
 وأعقبت أيام المطر أيام الصحو دون نهاية
 متى أنتهي من تحرير حياتي في الريح وفي الغبار ؟
 لأتسلح بشيء من الشجاعة • لأكتب الى الرجل بضع كلمات
 لعله يمد يده المنقذة الى البائسة الغريقة
 في الكتاب ذكرت له كل قصتها
 واجباتها نحو والديها ، وشقاءهما

ولم يكد ينقشع ضباب الصباح
 حتى مضت الرسالة • ولم تكد تصطبغ بالذهب ألوان الفسق
 حتى وصل الجواب : على ورقة زهرية جميلة
 سجلت الرسالة صورتين رمزيتين ••• رسم « تيش فييت »
 الاشارة واضحة لكل من يعرف القراءة :
 « تعالي في الواحد والعشرين ، في الساعة « توات » (٢٤)
 كانت العصافير المنفردة تعود الى الغابات عند المساء
 وفوق أشجار الكاميليا لاح القمر
 على جانب الجدار تحرك ظل الأوراق
 وولج البسب « سو كانه » ودخل في رشاقة
 واضطربت « كيو » ولكنها قررت أن تستقبله
 وجعلت تحييه ، وأسرت له في صوت خافت :
 « أنا مثل الزبد ضائعة في غضب الأمواج
 « كالعصفور الشريد الذي ترصده شبك الصياد
 « أرجوك ، أنقذ حياتي
 « سأعقد تحت قدميك خيوط عرفاني بالجميل • »
 وأصغى « سو كانه » دون أن ينبس ، ثم حرك رأسه وتمتم :
 « فكري إذن • أنا لست مثل الناس
 « لقد جعلتني موضع ثقتك ، ولن أعفي نفسي منها
 « حتى أردم هذا البحر من الشقاء »
 وقالت : « مالي حيلة الا أن أعتد على شهامتك
 أتوسل إليك أن تقرر ، لعلنا نصل الى نهاية • »
 وقال : « عندي حصان سباق سريع كالريح ، وخادم شديد المراس
 « والفرصة سانحة ، فلنهرب
 « فلن تكون هنالك ست و ثلاثون طريقاً للنجاة
 « سأكون هناك ، ولن يصيبك سوء • »

أثارت هذه الكلمات شكوك « كيو »
ولكنها وقد جرت شوطا غير قليل لم تستطع التفكير في الأخطار الممكنة
يجب أن تتابع طريقها ، مغمضة العينين
لترى أين يمكن أن تقودها السماء ...
وفي خفة هبطا الدرج معا
ركبا الحصان ، ومضيا واحدا رديف واحد
انقضى الليل هزيعاً بعد هزيع ، وفرغت ساعة الماء قطرة بعد قطرة
مضى ليل الخريف ، وهزت الريح الأشجار
ولمع القمر خلال الأوراق ، كأنه مرآة
وغطى الندى الشاحب الأعشاب على الطرقات المقفرة
كان قلبها ، الذي يغمره الحنين الى أرضها ، ينقبض عند كل خطوة
ها هي ذي الديكة تصيح ، في ألحان متتابعة متسارعة
وراءهما هدرت أصوات
وخفق قلب « كيو » حتى كاد ينفجر
ولوى « سوكانه » عنان حصانه في اتجاه ، لا يعلمه الا الله
وتركها وحيدة يفترسها رعب لا يوصف
في الغاية الكثيفة ؟ ما العمل ؟ أتتقدم أم تعود أدراجها ؟
أه يا رب ... علام كل هذه القسوة ؟ علام تصر
على سحق زهرة باقدامك ، على إلقاء هذا الصفاء المورّد في الدنس ؟
وأسرعت نحوها عصابة كثيرة العدد
لماذا لا تكون ذات أجنحة فتطير ؟ لماذا لا تكون ذات مخالب فتشق الأرض ؟
كانت « توبا » هناك : ووثبت على « كيو » وقادتها الى البيت
دون أن تنبس ، وفي سورة غضبها
هجمت على الزهرة المسكينة مزقت جسدها الغض مثل الصفصاف
يا للوجع الذي يعانيه مخلوق من لحم ودم !

يا للأسى الذي يحسه من يرى عذاب هذه الزهرة القرمزية !
وتقطعت أنفاس الفتاة المسكينة وهي تعترف وترجو الرحمة
ومن ظهرها الممزق تناثرت قطع من اللحم
ومن رأسها المسحوق بالأرض ، جرى الدم
وصاحت متوسلة : « لست الا امرأة مسكينة
انتزعت من أهلها ، وسقطت في هذا المكسان
حياتي تحت تصرفكم ، وليس لي ما أرجوه
ان شخصي لا يهمني ، أنا راضية بحظي ، ولكن ماذا أفعل بما لكم عليّ
من مال ؟

الضفدعة التي تعيش في الطين لا تخاف أن تدنس رأسها
النقاء والفضيلة برئت منهما ، أعدكم بذلك •
وطلبت المرأة كفيلاً ، اقراراً مكتوباً •
وجاءت فتاة من المنزل اسمها « ماكيو » حركها العطف عليها
غامرت فكانت ضامنة لها •
والعجوز ، التي كان يثور غضبها حيناً بعد حين
لم تعلن عفوها الا بعد أن أفرغت شتائمها
حملوا « كيو » الى داخل البيت لتستريح •••
ودنت منها « ماكيو » تمدها بنصائحها :
« ما حدث حدث ••• لقد وقعت في فخ خداعه
من الذي لا يعرف هنا هذا الشخص الذي يسمى « سوكانه » ؟
انه هنا في هذه المقصورات الخضر ، مشهور برذائله
« كم من غصن ناعم هصره
انها هي الساحرة ، أما هو فالواسطة ، لقد أوقعاك في الفخ
مثل المحارب الذي يدعي أنه يتراجع لكي يكر فيشق الصفوف •
لقد قبض ثلاثين قطعة ، هذه هي نهاية الحكاية
أما سرّ هذا الاخراج المسرحي ، فانتظري جانبه الآخر

راقبي لسانك فان فيه حتفك .
 وقالت « كيو » : « ومع ذلك فقد أقسم أيماناً غليظة
 كيف يمكن أن أكتشف كل هذا الخداع ؟ »
 وبقيت ممفكرة ، عندما بدا وجه الوغد المشؤوم
 أبيض صافياً كأنه صفحة ورق ، وجعل « سوكانه » يصيح :
 قيل لي : « ان فتاة هنا تطلق إشاعة
 تقول انني أغويتها واختطفتها
 اذا تجرأت فلتنظر اليّ وجهاً لوجه .
 وأجابت : « اذا كان الأمر كذلك فسامحني
 وما دمت تنكر فأنا موافقة . لم يحدث شيء »
 وهاج « سوكانه » وماج وتقدم ، يستعد للوثوب عليها
 وصرخت : « لتشهد عليك السماء »

« من أغوى البلبل ؟ من خدع العصفور ؟
 ينطقون بكلمات صارمة ثم يبتلعونها
 ما تزال معي الرسالة مع كلمات « تيش فييت »
 نعم لنتلق وجهاً لوجه ، فلا مجال للخداع . »
 هذه الكلمات المستقيمة الصادقة هزت الحضور هزاً
 تحدث بعضهم عن ندالة الرجل ، وبعضهم عن وقاحته
 صدر الحكم عليه بالاجماع : مذنب . . . فتوارى عن الأنظار
 ها هي ذي الآن في غرفتها وحيدة تفكر في قدرها
 وتبكي بدموع حارة ، وتندب نفسها
 وأأسفاه . . . كانت مثل الثلج ، مثل الفضة طاهرة نقية
 ولكن عندما تهب الريح في زوبعة سوداء
 فان عليها مثل غيرها أن تتقلب في الريح وفي الغبار
 هكذا حياة الانسان : حزن وفرح

الحسنات ذوات الخدود الحمر لا يعشن الى الأبد
 لعلي في حياة سابقة كنت مذنبه لا أستحق تلك الحياة
 وأنا الآن لا أستطيع أن أهرب من قضاء ما عليّ من دين •
 ومهما كان ، فقد تصدع الاناء
 وعليّ أن أدفع ديني ، ما دمت على قيد الحياة

★ ★ ★

ذات مساء ، كان القمر يسطع كالمرآة الصافية
 انتحت « توبا » بـ « كيو » ناحية وجعلت تلقنها الدرس في لطف •
 « ان تجارة الممذات فن قائم بذاته
 ونحن ، بنات المهنة ، علينا أن نعرف أسرار هذه التجارة • »
 وقالت « كيو » « لقد لفحتني الريح وبللني المطر
 وما عليّ الا أن أدفع ديني على حساب جسدي ما دام ذلك الدين
 قدراً مقدوراً • »

وقالت العجوز « الرجال يتجمعون
 يريدون تعويضاً عما يدفعون من أموال
 هناك ألف وصفة ووصفة في مهنتنا
 علينا في الليل أن نعرف كيف نتعرض وكيف نقاوم
 علينا في النهار أن نظهر التحفظ والحياء
 يا ابنتي حاولي أن تحفظي هذه الوصفات عن ظهر قلب
 الطرائق السبع في الاغراء ، والأشكال الثمانية في الحب
 بعد اللذة ينبغي أن تسقط الزهرة واهنة ، والصفصافة منهوكة القوى
 الحجر يتدحرج والرجل يفقد توازنه وصوابه
 الابتسامه على طرف الشفاه ، الغمز بالحاجبين

- « التعجب من القمر ، ومداعبة الأزهار
« تلك هي مهنتنا ، وستكونين فنانة بارعة
« عندما تدركين كل هذه الدقائق الناعمة . »
• أصغت « كيو » الى هذه التعليمات من أولها الى آخرها .
وشخب وجهها ذو اللون الوردى ، الصافي كاليشب
سمعت هذه الكلمات وصعد العار على جبينها فوصمه
أية اختبارات غريبة لم تخضعها لها الحياة ؟
« وأنا التي ربيت في حي جميل وبيت نبيل
« ها أنذا أدعى الى القيام بمهنة و يالها من مهنة ، يا للحسرة .
« يجب أن يكون وجهي صفيقاً ، وألا أشعر بالعار . »
• حقاً ! لا يمكن أن يسقط الانسان في مكان أكثر انحطاطاً من هذا المكان
• واأسفاه ماذا يستطيع العصفور المتشرد أن يصنع ، وفي الفخ وقع .
وفي المقصورة الخضراء مدوا ستائر وردية
علقوا إعلاناً بأعلى الأسعار
زاد عدد الذين يشتهون الجوهرة
تدفقت الفراشات الخليفة واليعاسيب الشرهة
واستمرت العريضة شهوراً ، وغمرت الضحكات الليالي
كان الفصن يتلقف كل العصافير التي تمر به
كانت الورقة تهب نفسها لمداعبات كل الرياح .
• عند الصباح تودع عاشقاً ، وعند المساء تستقبل عاشقاً
فاذا انقضت نشوة اللهو والقصف وأشرفت الليلة على نهايتها
كان كيان « كيو » يهتز كله ، وتشفق على نفسها
« لماذا نشأت في الحرير والديباج ؟
• أنا الآن أجرد نفسي كما تجرر الزهرة التي سقطت في قارعة الطريق .
« أيها الوجه المسكين الذي لفحته الريح ، وشققته الأمطار

« أيها الجسد المسكين الذي استسلم لشهوات الفراشات واليعاسيب * »

الزبائن يمضون ، وقد غرقوا في النشوة
ولكن كيف تستطيع أن تشعر بأفراح الربيع ؟
كم مرة ، وقد تدثرت خوفاً من الريح ، واستندت الى أصص الأزهار
ظلت تتأمل الثلج الذي يغطي نصف النافذة
والقمر الذي يغمر ما حولها بنوره
أي منظر طبيعي لم يحمل الى نفسها أساه
كل منظر لا يمكن أن يحمل الفرح الى القلب الحزين
وحدث أحياناً أن رسمت وكتبت أشعاراً
وعزفت على القيثارة في ضوء القمر
لعبت دورة شطرنج في ظل الزهر
كل ذلك كان مرحاً تؤمر به أمراً
أين القلب الذي يمكن أن يتجاوب مع قلبها ؟
الريح تغني في أشجار الخيزران
المطر يببل أشجار الخوخ المزهرة
وهي تجتر ألف فكرة ، في غير مبالاه وقد عصرها الأسي
الذكريات ، البعيدة والقريبة ، تمزق أحشاءها
وتختلط الذكريات كأن أحداً يلف بعضها ببعض
ثم تنهار كأن أحداً انهال عليها ضرباً
وهي تفكر في أهلها ، وفيما قدموا لها من معروف لا حصر له
هناك ، تجنح الشمس للغروب ويمتد ظل أشجار التوت
ولكن الجبال العالية والأنهار العميقة تحول بينهم وبينها
أيمكن أن يشكوا في ما خبا القدر لابنتهم ؟
في باحة المنزل الأبوي ، كان إخوتها وأختها وهم صغار
من يحل محلها في انقاذ الوالدين العجوزين ؟
تذكرت اليمين التي ترتبط بها الى الأبد

أيمكن أن يعرف « كيم » وهو بعيد ، ما في قلبي من حشرات ؟
لعله عند عودته سأل عن تلك الصفصافة ، صفصافة الأمس
ألم يقصف غصنها قاصف لينقله من يد الى يد ؟
وهل حلت أختي « فان » محلي لتعوضه عن حبه ؟
أو أن الزهرة سقطت على غصن لم يكن لها ؟
كانت كل هذه الأسئلة تختلط في قلبها ، مثل كبة من الحرير
طوال الليالي كانت تحلم بمسقط رأسها
من نافذتها المكلفة بالحرير ، تحت سماء غريبة
كانت ، وحدها ، ترى مغارب الشمس تتلاحق وراء المغارب
وترى السماء مرة بعد مرة يكسوها ضياء الشمس بالذهب
أو تكسوها أقمار الليل بالفضة
أيتها السماء ! لماذا تصبين عليها جام الشقاء ؟
لقد قدر لها أن تولد ولها خدان موردان
ولكن القدر ينشب مغالبه فيها جزاء وفاقا على عطاياه
هكذا كتب لها أن تجرر نفسها في الريح وفي الغبار
ولن تنقذ نفسها من برائن القدر الا اذا شربت حتى الثمالة كأس العار

* * *

(تتمة القصيدة في العدد القادم)

الحواشي

- (١) في بلاد الشرق الاقصى تتعرض الانهار والبحار غالباً للفيضانات وتشكل طبقات الطمي ، وتغيرات مجاري الأنهار ، والكتساح المد ، مما يجعل المياه تغطي كثيراً على الارض اليابسة أو يجعل الارض اليابسة تظهر حيث كانت تزمجر المياه . وصورة البحر الذي يكتسح حقول أشجار التوت ، أو حقول التوت التي تظهر حيث كان البحر ، صورة تستعمل لتشير الى التغيرات والتبدلات العميقة التي تحدث في الطبيعة أو في حياة الناس ، فيقفون منها غالباً موقف العاجزين .
- (٢) اقتبس « نغوين دو » موضوع « كيو » من رواية صينية . وعهد (جيتا تينه) من أسرة (مينه) (مانغ) يقع في القرن السادس عشر .
والعاصمتان هما « بكين » في الشمال و « نانكين » في الجنوب .
- (٣) قيثارة « هو » وتسمى أيضاً « تي با »
- (٤) الثناسخ : (الكارما) انظر الشرح ص ٢١١
- (٥) وجد شاب في ساقية ، ورقة قرمزية كتبت عليها قصيدة ، فأخذ ورقة أخرى ونقش عليها بضعة أبيات وألقاها في الساقية . وحمل التيار الورقة لتقع بين يدي صبية من صبايا الحريم الامبراطوري ، كانت هي التي نظمت القصيدة المكتوبة على الورقة القرمزية التي وجدها الشاب . وبعد قليل من الزمن تحررت المرأة من الحريم ولقيت الشاب فتزوجته .
أما عصفور السماء اللازوردية فهو رسول الحب .
- (٦) « لام توي » : تأمل الفضاء اللازوردي . وكلمة « توي » هي أيضاً شطر من اسم « كيو » وهو « توي كيو » .
- (٧) « هوب فو » : منطقة ساحلية غنية باللؤلؤ ، وأصداف اللؤلؤ تختفي عندما يكون الحاكم جشعاً وتظهر عندما تكون الادارة شريفة .
- (٨) تواعد شاب وحبيبته على اللقاء تحت جسر . ولم تأت الحبيبة ، فانتظرها الشاب في عناد وهو يعتمد على دعامة الجسر حتى جاء المد فابتلعه .
- (٩) اشارة الى أغنية صينية قديمة :
لو سبروا غور نهر «توونغ»
لكان أقل عمقا من حينا .
أنت ، يا حبيبتي ، عند المنبع ، وأنا عند المصب
يفكر كل منا برفيقه دون أن يراه
كلانا يشرب من النهر نفسه .

- (١٠) على جسر « لام » طلب شاب يد فتاة • فطلبت أمها منه أن يقدم مهراً لا ينتهها يداً «مقبضاً» يناسب جرنناً لها من اليشب وأعطت إحدى الحوريات الشاب هذه اليسد من اليشب ، واستطاع الشابان أن يتزوجا •
- (١١) « بانها » وهو صديق « شونغ كي » الحميم كان يعزف على قيثارته : وهو يفكر في الجبال • ويصني « شانغ كي » الى الموسيقى ثم يقول « هذه رائعة مثل الجبال العالية » ويفكر « بانها » في نهر كبير ، فيقول « شانغ كي » « الموسيقى تسيل مثل نهر كبير • » وعندما مات « شانغ كي » كسر صديقه قيثارته ، لانه لن يجد شخصاً يفهمه ، كما فهمه •
- (١٢) مملكتان في الصين القديمة نشبت بينهما حروب ضارية •
- (١٣) « تو ما » : موسيقي مشهور خلب لب « تراك فان كوان » الحسناء وهو يعزف قطعة « العنقاء العاشق » •
- (١٤) « كي كانغ » مؤلف قديم •
- (١٥) « شيو كوان » قدمت جزية لملك البرابرة • والقطعة الموسيقية التي تندب شقاءها عنوانها « اجتياز الحدود » •
- (١٦) الزوجة الشرعية المكلفة ادارة أرزاق الأسرة ، تلبس ، اقتصاداً ، ملابس من القماش الخشن ، ولا تبدد المال في لباس ثمين •
- (١٧) « ترونغ » و « توا » تحاببا تحت سقف معبد « فو كو » ، ولكن زواجهما لم يستمر الا شهراً واحداً •
- (١٨) غازل « تا كون » فتاة مشغولة بالنسيج ، اسمها « توا » فالقت مكرها في وجهه •
- (١٩) أمر الامبراطور (هان فو دي) ابنته أن تقذف بكرة من برج على خطابها المجتمعين في أسفل البرج : ومن نجح في الاستيلاء على الكرة فهو مقبول •
- (٢٠) أرسلت « ونه » عريضة الى الامبراطور تلتبس فيها أن تعذب وتعاقب بدلا من أبيها • أما « لي » فقد باعت نفسها لانقاذ أبيها •
- (٢١) بيت السدعارة •
- (٢٢) امرأة باعت نشارة خشب ، مؤكدة أنها نغالة ، لغشاش آخر أعطاهها كوسى مرأ ، وهو يزعم أنه خييار •
- (٢٣) اشارة الى الأب •
- (٢٤) اذا قسمنا الخططين (تيش فييت) حصلنا على اليوم الثاني عشر • الهرب في ساعة « توات » •



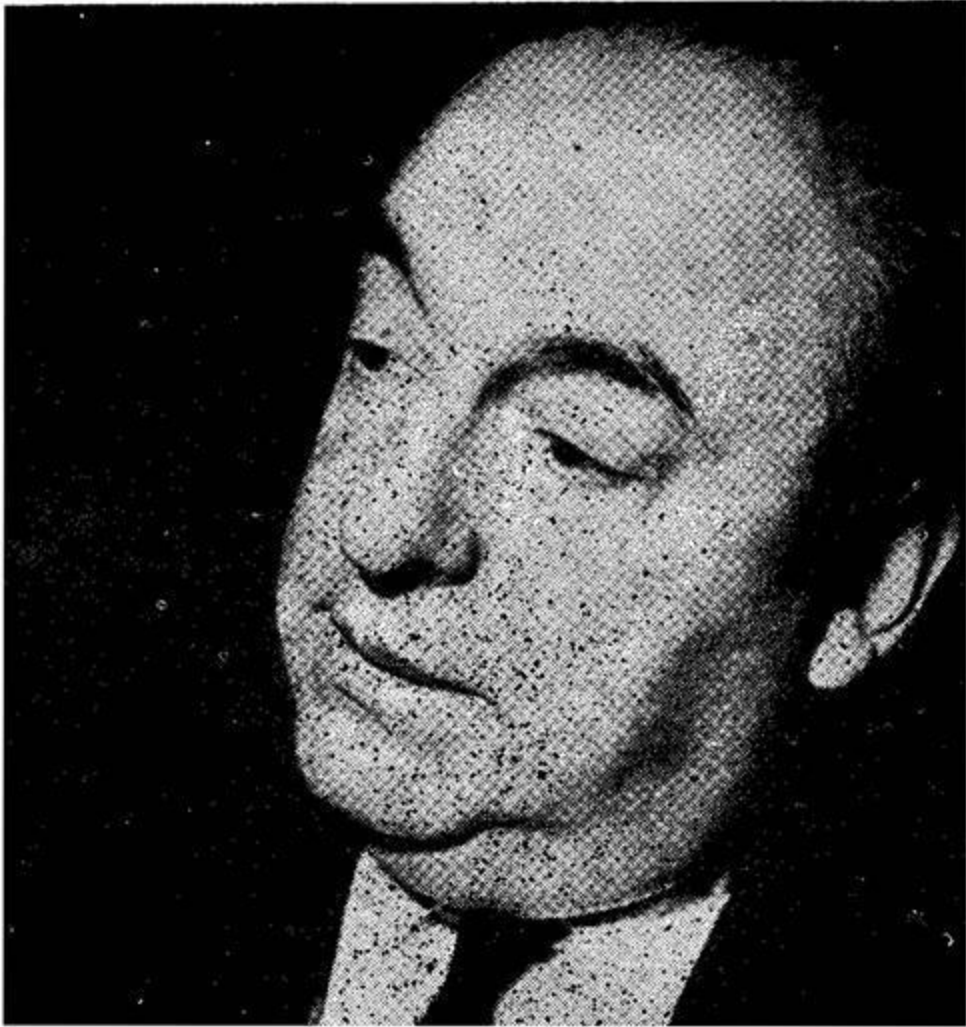
مع الكتب

مذكرات بابلونيرودا

«أشهد أنني قد عشت»

أديب عزت

على امتداد العواصم ، واختلاف البلدان ، وفي مختلف أقطار هذا العالم ، يرحل يومياً عن الحياة إلى القرية التي لا عودة منها ، كما يقول ناظم حكمت عن الموت ، يرحل أناس كثيرون ، وقلما يمضي يوم ، ينقضي أسبوع ، يمر شهر ، ولا يرحل عن الحياة أناس ، بل أنه في بعض الأحيان يأخذ الموت عشرات ومئات بل وآلاف الناس في كوارث طبيعية كالزلازل أو انهيارات مناجم ، أو ٥٥ أو ٥٥ ويكون هذا الموت موتاً طبيعياً ، يحمل صفة الكارثة ، ومع الأيام تندمل ذكرياته ، يذهب صداه ، وتشفى بشكل أو بآخر الجراحات التي يتركها ، الخراب الذي يخلفه ، غير أن رحيل كاتب حقيقي ، موت شاعر مجيد ، مناضل كبير ، يترك ، ودائماً يترك الصدى الأكبر ، الحزن الأعظم والأسى الأشمل والأعم ، وكثيراً ما تشعر الإنسانية ، كثيراً ما يشعر الإنسان في أي بلد كان لدى فقد شاعر مناضل ، كاتبه كبير ، مناضل جيد ، بأنه إنما فقد صديقاً عزيزاً ، إنساناً غالياً ، ويهمه شخصياً وكذلك تشعر الشعوب ، فتصدر عن ذلك الشاعر أو الكاتب كتب ، وتنشر دراسات وتستحضر ذكريات في شتى عواصم العالم ، وكثيراً ما تنشر ملصقات عنه ، صور له وتضيء على جدران بيوت يهتم أهلها بالثقافة والأدب ، وثمة لا ريب على جدران بيوت كثيرة في وطننا وفي العالم ٥٥ وإلى جانب اللوحات مساحات جدارية تشع عليها صور غيفارا أو هيمنجواي ، لوركا أو نجيب محفوظ ، ناظم حكمت أو ٥٥ وإلى



● بابلو نيرودا ●

جانب كل ذلك فان ثمة عدداً كبيراً من التماثيل لشعراء وأدباء تضيء في ساحات هذه العاصمة أو تلك من بلدان العالم .
وفي مثل تلك الحالة ، الحالات ، فقط ، يندحر الموت ، موت الشاعر أو الكاتب ،

أو المناضل ، تستمر حياته خالدة في الحياة ، ويظل يعيش ويحيا رغم رحيله يسير في شوارع الناس ، يدخل الى بيوتهم ، ويضيء ، يتوهج ملء كل حياتهم ، ويندحر موته ، يتوقف ، ينهزم ، يفسح المجال أمام استمرار الحياة أفكاراً وحضوراً وتواجداً كما حدث عند استشهاد لوركا ، عند رحيل ناظم حكمت ، عند انتحار هيمنجواي وماياكوفسكي ، فالانسان كاتباً كان أم شاعراً أم قائداً ، عندما يلتزم بالشعب وبالانسان ، وبالمستقبل الاجمل للناس ، ويكافح من أجل هذا المستقبل فإنه لا يموت ويموت ويفنى جسداً ، لكنه يستمر في العيش ، وفي الحياة فكراً ومعطيات ، ويظل يرفرف فوق وطنه وفوق العالم مثلما الضوء والنسمة ، كما يقول مالك حداد ، ولا يموت ، لا يستطيع أن يموت كما يقول بوتيف الشاعر البلغاري الشهيد .

وقد مرت أيام ، انقضت شهور ، واستمر أيام ، وتنقضي شهور ، وتنصرم سنون ، على رحيل الشاعر التشيلي بابلو نيرودا ، ومثلما ظل الى الآن حياً ، أفكاراً وأشعاراً وحضوراً في الساح الثقافي عبر العالم ، فإنه كذلك سيبقى كما بقي خالداً ماياكوفسكي والوار وهيمنجواي ، وكل الذين عاشوا في هذه الحياة ، الرحلة ، وكانت حياتهم، وجودهم عملاً وأفعالا واضاءات على دروب الانسان والمحبة والمستقبل الأكثر جمالا وعدالة وحرية وحياة .

والى جانب العديد من الدراسات والمقالات التي نشرت في وطننا وفي العالم ، والتي تناولت حياة وكفاح نيرودا ، فقد صدر حديثاً كتاب جيد يعتبر مرجعاً لدراسة أفكار وحياة وكفاح نيرودا ، ويحمل الكتاب اسم « مذكرات بابلو نيرودا ، أشهد أنني عشت » والكتاب مترجم عن اللغة الاسبانية ، وقام بترجمة الكتاب الى اللغة العربية د. محمود صبح ويقع الكتاب في « ٥٠٩ » صفحات من القطع الكبير، وعنوانه الاصلي هو : « بابلو نيرودا ، أعترف بأنني قد عشت » مذكرات Pablo Neruda Confese Quehe vivide, memorias ما صدر عن دار النشر « سيكس بارال Editorial seix Barral, S. A. » وقد صدر الكتاب أول وتم طبعه في برشلونة بتاريخ ٢٣ آذار ١٩٧٤ أي بعد مضي ستة أشهر على وفاة الشاعر .

ويشرح د* محمود صبح الجهود التي بذلها في ترجمة الكتاب فيقول :

« لقد شرعنا بترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر أيار من عام صدور الكتاب ، وقمنا بتعريبها على مرحلتين ، الأولى : ترجمة حرفية استغرقت ثلاثة أشهر ، والثانية ، تعريب مع المحافظة على النص الأصلي وذلك بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة جملة ، ومراجعة النص الأصلي في الوقت نفسه ، وقد استغرقت هذه المرحلة أربعة أشهر » كما يستطرد قائلاً :

لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات الى أن أنهيناها ،
الحديث النبوي الشريف :

« ان الله تعالى يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وبيت المتنبي :

« ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام »

وهو يرجو من القارئ :

« أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ، بيت أبي تمام :

« وعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا »

وأود أن أقول هنا بادئ ذي بدء بأن المترجم كان في غنى عن هذه المقدمة الرومانسية ، إذ أن الكتاب يحمل من الثراء والجودة ما يستطيع به ومعه أن يقدم نفسه للقارئ ، دون مقدمات ، ولا ريب أن الذين يقرأون نيرودا ، أو يهتمون به هم على مستوى أكبر من استعطافهم كقراء بمقدمة تريد أن تعتذر عن تقصير في الوهم ، وهم أيضا على مسافة أبعد من الرجاء « نرجو من القارئ أن يضع نصب عينيه حين يقرأ هذا الكتاب » وشرح الفارق لهم بين عين الرضا ، وعين السخط والاستشهاد على ذلك ببيت شعر لأبي تمام . . ولكن المترجم أراد لهذه الرومانسية في العلاقة بين المترجم والقارئ أن تكون بطاقة يتوجه بها الى قراء الكتاب الذي ترجمه وبذل في ترجمته جهداً ملحوظاً ولعله يؤمن بهذا الأسلوب العاطفي . . وهو على أية حال أسلوبه في تقديم ما يترجم . . و . . المهم .

يتحدث نيرودا في الفصل الاول من فصول هذا الكتاب عن ذلك العالم الذي ولد فيه وترعرع ، وشب ونما •

« انه لعالم شاقولي ، أمة من العصافير ، حشد من الأوراق ، أتعثر بحجر ، أخذش الرقبة المكشوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمقني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان ، عقرب مذهب ينفث نحوي سمه المنبثق ، بينما يختفي قوسه القزحي المشع مثل برق خاطف •• حين أمر أجتاز غابة من شجر السرخنس أكثر علواً من قامتي : تدع أن يساقط عليّ ، فوق وجهي المشرب ، ستون دمة تنهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي تطل مراوحها ترتعد لمدة طويلة ، ثمة جذع متأكلة : ياله من كنز !• نبات الفطر الأسود والأزرق قدمنها أذانا ، نباتات طفيلية حمراء قد أفعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى أعارتها لحاها ويتفجر ، سريعاً ، أفعوان يطلع من أحشائها المتأكلة ، كما انبثاق الفجر ، كما لو أن الروح هربت من جذوعها الميتة ، وهناك بعيداً ، كل شجرة انتحت مكاناً قصياً مبتعدة عن نظيراتها •• تميز فوق بساط الدغل المكتوم ، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء أو مكتنزة أو ملساء أو ورفاء لها نمو مختلف وشكل آخر كما لو أن مقصاً ذا حركة متبدله قد قصها ففصلها بعضها ليس كبعض •• ثمة غدِير ، الماء الشفاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأعبل واليشب ، تطير فراشة نقية كنقاوة الليمون ، تتراقص بين الماء والنور ، تحييني عن قرب الرياحين وهي تنحني لي برؤوسها الصغيرة الصفراء ، وهناك في الأعالي ، مثل قطرات فصدت من الشرايين ، تتماوج زهور الكوبهيوية الحمراء ، الأحمر منها هو زهر الدم ، والأبيض منها هو زهر الثلج ، قد شق السكون ثعلب سريع فاهتزت الأوراق بيد أن السكون هو ناموس هذه الأوراق •• قلما يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ • رجوع وخاز لعصفور مختبئ الالماماً ، قلما يوشوش عالم النبات الا قليلاً ، قليلاً الى أن تهب زوبعة فتجعل موسيقى الدنيا كلها تتجاوب ، من لا يعرف الغابة التشيلية ، فهو لم يطأ هذا الكوكب الارضي ، من تلك الاراضي ، من ذاك الطين ، من ذاك السكون ، خرجت أنا لأسيز ، لأغني عبر الكون ••

ومن الذكريات الشعرية الجميلة التي يتحدث عنها الشاعر في كتابه ، ذكريات المطر .. فهو عندما يشرع بالكلام عن أيام طفولته وأعوامها يقول :

« المطر كان لي الشخصية الوحيدة التي لا أنساها ، مطر القطب الجنوب الغزير الذي يهطل مثل الشلال من قطب بولو polo ينحدر من سماء » كابودي هورنوس حتى سماء الثغر .. في هذا الثغر ، أو فاوسيت بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للأرض ، للشعر والمطر ..

كانت السماء تمطر خلال شهور بكاملها ، أعوام بأسرها ، كان المطر يتدلى خيطاناً كأنها ابر طويلة من البلور يتكسر على أسطح المنازل ، أو أنه يستحيل أمواجاً شفافة تلمن النوافذ ، وكانت كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء الا بشق الأنفس والجهد الجهد في ذلك المحيط الشتائي .

لقد كنا نتوجه الى المدرسة عبر الدروب ننقل الخطى من حجر الى حجر ، متعرضين للبرد والمطر ، الرياح تتخاطف المظلات ، الماطرات « البرشكوتات » كانت غالية جداً ، ولم تستهوني القفزات ، وكانت الاحذية تبتل بالماء ، سوف أذكر دائماً الجرابات المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيراً من الاحذية وهي تنفث بخاراً يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة ، ثم تأتي الفياضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش أكثر الناس فقراً ، الى النهر ، كذلك كانت الأرض تنهز راجفة ، أحياناً أخرى ، كانت تطل من سلسلة الجبال قنزعة نور رهيب : البركان « يايما » كان يستيقظ .

والديّ هما من بلدة « بارال » حيث ولدت أنا هناك ، في وسط تشيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيد ، من غير أن أذكر ، دون أن أعرف ان كنت نظرت اليها مرة بعيني ، ماتت أمي السيدة (روسياباسو لتو) . أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز « يوليو » من عام ١٩٠٤ بعد شهر في آب هلكت أمي بمرض السل ، أمي لم تعد توجد .

ويتحدث نيرودا في هذا الفصل أيضاً عن والده فيقول :

« كان سائق قطار صابورة ، قلائل هم الذين يعرفو ما هو قطار صابورة ، في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضبان الحديدية ان لم يكن قد وضعت لها فواصل وحجيرات بين الروافد ، ولذلك فانه يجب أن تستخرج الصابورة من المقالع في قف ثم يقلب الحجر الصغير الى العربات المستوية السطوح في القطار ، قبل أربعين سنة كان سائقو قطار من هذا النوع يجب أن يكونوا فطاحل أشداء ، أما أجور الشركة فقد كانت بائسة جداً ، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل في القطارات الصابورية أن يبرزوا شهادة بلا سوابق « لا حكم عليه » ، والذي كان يسوق القطار ، ليس الا ، لكنه كان قد تعود على الأمر والطاعة ، فهو أحياناً يأمر وأحياناً يطيع ، ولطالما أخذني معه ، كان الرجال هناك يقتلعون الاحجار في منطقة « إبوروا » التي هي القلب البري للشعر والتي كانت مسرحاً للمعارك الرهيبة بين الاسبان والاراكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني شيئاً من النشوة ، وتبعث فيّ شيئاً من الشمالة ، لشد ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل ، وكم كان صعباً العثور عليها خبيثة بين الفجاج والشقوق ، غامقة اللون براقعة المحيا والبشرة ، لونها كان شبيهاً بلون ماسورة البندقية . . .

ولعل قراءة هذه السطور من مذكرات نيرودا تطرح سؤالاً :

كيف كانت العلاقة . . . علاقة الشاب الصغير ، الفتى الطالع ، والذي أصبح فيما بعد واحداً من أكبر شعراء العصر . . . مع أولئك الرجال الذين يقتلعون الاحجار والذين « لطالما أخذني والذي معه » الى أماكن عملهم وكفاحهم من أجل اللقمة والحياة ؟

يقول نيرودا في مذكراته عن تلك الرابطة التي كانت تجمعهم اليهم ، معهم :

« ان استكشافاتي هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشغيلة ، وسرعان ما أخذوا يولون اهتماماً بهذه المكتشفات ، فما أن يسه والذي أو يلمته حتى ينطلقوا الى الغاية البكر ، وكانوا يعثرون لي على كنوز غريبة عجيبة ، طبعاً ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب . . . »

وفي مقطع آخر يحكي نيرودا ، قصة واحد من أولئك العمال الذين غالباً ما تكون حياتهم هي ثمن الحصول على الأرفة وفرح الأطفال في عالم قاس لا يرحم ، وإذا كان الشاعر الفرنسي جاك بريفيير يقول في قصيدة له عن عامل من زماننا :

« الشمس' في كبد السماء

ساطعة"

مشرقة"

جميلة"

وفجأة :

أمام باب المعمل

وقف العامل

نظر الى الشمس الحلوة

وقال :

قولي أيتها الشمس الساطعة الجميلة :

أليس من المؤلم إعطاء يومٍ مشرقٍ ساطعٍ آخر

الى رب العمل .. »

وإذا كان ناظم حكمت يقول عن ظروف العمل اللا إنسانية ، في قصيدة له :

« المطر' :

يهطل' بغزارة

يهطل' :

والريح'

تعصف بالشجر والبيوت والناس والدروب

وفي غرفة بلا ستائر

وملؤها الصقيع

استيقظ الفتى مذعوراً

فقد كانت صفارة المعمل تدوي وهي :

لا ترحم أقل تأخير .

وإلى جانب النهارات الجميلة الساطعة التي تذهب هدراً ، وتضيع من أجل الخبز وجشع أرباب العمل ، وإلى جانب البيوت البسيطة العزينة ، التي تمتلئ بالصقيع وظروف الحياة اللا إنسانية ، والتي يستيقظ فيها العمال مسكونين بالذعر خوفاً من أن يتأخروا دقائق بعد أن دوت صفارة المعمل * * ثمة أيضاً من يلقون حتفهم ببشاعة ، وبدمهم ينعجن خبزهم وخبز أطفالهم :

« من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه : مونخه » ، كان والذي يقول عنه أنه ضارب سكاكين خطير ، وكان له في وجهه الأسمر خطان كبيران ، أحدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خددتها في خده حد سكين والخط الآخر كان مرسم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف مفعمة باللطافة والمكر معاً ، « مونخه » هذا كان يجلب لي زهور شجر « الكوبيهوية » البيضاء ، عناكب كثيفة الشعر ، أفراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو أكثر خلباً للأبصار ، أحضر لي جعل شجر « الكوبيهوية » والقمر ، لست أدري ان كنتم قد رأيتموه ذات مرة ، فأنا لم أراه الا في تلك المرة ، كان برقاً يرتدي قوس قزح ، لقد كانت ألوان ذيله وقشرته تغلب الأبصار بالأحمر والبنفسجي والأخضر والأصفر ، ثم فرّ من بين يديّ حين لم يكن معي مونخه لكي يعود فيلتقطه لي ، ما استطعت قط أن أبرأ من تلك المشاهدة الخلاية ، ولا نسيت أبداً ذاك الصديق ، لقد قص عليّ أبي حكاية موته ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجاً في باديء الأمر ، فتوقف القطار ، لكن كما كان يروي لي أبي ، ما عثروا الا على جثة هامدة وكيس من العظام * »

ويتحدث نيرودا عن مرحلة الدراسة الاولى ، والمعاناة والعذاب على درب تحصيل العلم وسط ظروف قاسية من الفقر * .

« ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل الى « تيموكو » في هذا العام الذي أذكره دائماً دخلت الى المدرسة ، كانت عبارة عن دائرة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة ، وسرداب تحت الأرض معتمة ، وهناك من علو المدرسة كان يُلْمح في الربيع ، نهر كاونين المتعطف اللذيذ وهو يصفح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية * كنا نهرب

من الدروس لكي نغطس أرجلنا في الماء الفرات الذي يترقرق فوق الأحجار الصقيلة البيضاء ،

لكن المدرسة كانت حقلاً لمجالات عديدة بالنسبة لأعوامي الستة ، فكل شيء كان له احتمال المجهول ، ضمير الفيزياء ، الذي ما تركوني أدخله أبداً ، كان مليئاً بأدوات باهرة ، بأنايب معوجة ، بأوان كثيرة ، المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة أبوابها ، ما كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم ، بيد أن القبو أكثر الأماكن سحراً وروعة ، ففيه كان يخيم السكون وتسود العتمة ، وهناك كنا على ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الأسرى بالأعمدة العتيقة ما زلت حتى الآن أشتم رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة « تيموتو » .

كنت آخذ بالنمو جسماً وعقلاً ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت تجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة بوفالوبيل ، Buffalobill وفي رحلات سالغاري Salgari أما أوائل الحب النقية جداً فقد كانت تفيض في رسائل موجهة الى « بلانكا ويلسون » وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة الشهر ، وبناء على طلب أحد الفتيان التائهين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية اليها ، لم أعد أذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما أنها باكورة أعمال الأدبية ، إذ أنه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما إذا كنت أنا هو من كان يصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجروء على انكار أعمال الأدبية ، وبتلكو أحببتها أن أجل ، إذاك ناولتني سفرجلة ، لم أشأ أن أضمها . فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين وهكذا وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة إثر سفرجلة ..

وتمضي الأيام .. ومع الأيام التي تمر ، الشهور التي ترحل ، والسنوات التي تنقضي يمضي الشاعر قدماً في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدى أو ترتيب مثل بحار يمخر في الخضم وحده ، ما كان ليرتوي أو يقنع : « بنهمي للقراءة

في أناء الليل وأطراف النهار ، عثرت على الشاطيء بميناء « بورتوسا بيدرا » على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل هو السيد « الفوسنو وينز » فأكبرني وأكبرني نهمي الأدبي ، « أفقراتها جميعها ؟ » كان يقول لي ، وهو يناولني كتاباً جديداً لـ « بارغاس بيو » أو لـ « إيبسن أو لـ « روكامبل » كنت ألتهم كل شيء دون تمييز كما النعمة .

وفي سطور أخرى يكتب نيرودا ، أناشيد عرفان ، يقدم بالحرف والكلمة انحناء جميلة ، اعترافاً انسانياً ، ولا ينسى من قدم له ذات يوم وردة ، أو أغنية ، أو كتاباً فيذكر ذلك العطاء ، يمجّد « الانسان » الذي مد ذات يوم يداً تحمل ورداً ، تعاطفاً ، محبة ، فيقول :

« في ذات الوقت وصلت الى « تيموكو » سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة ، فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطيء قصير ، انها المديرية الجديدة لمدرسة الاناث ، قدمت من مدينتها الجنوبية ، من ثلوج « ماغايانيس » تدعى غابرييلا ميسترال كنت أنظر اليها وهي تجتاز شوارع قرיתי بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت أخشاهما ، غير أنه حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة ، كانت تتألق أسنانها البيضاء في وجهها الملوّح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دن « تاراوكانني » جميل ، حين تبسّم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان . ما كنت لآكون خليلاً لها ، لأنني كنت بعد صبيهاً هيباً ، مغرقاً في التفكير والتأمل ، رأيتها من بعد مرات قليلة وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتباً تهديها إليّ ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها في أفضل وأجمل ما في الأدب العالمي ، أستطيع القول أن « غابرييلا » قد أربكتني في هذه الرؤية الجدية الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس وأن « تولستوي » ودوستويفسكي وتشيفخوف ، كانوا الأثريين لديّ وما زالوا يرافقونني . »

وإذا كان هناك شاعر فرنسي كبير يقول :

« كلنا اخوة جففت ثيابنا

أشعة شمس واحدة »

وإذا كان هناك شاعر انساني كبير يقول في رسالة الى ولده

« ثق في الحب وفي الأرض وفي البحر
ولتمنح ثقتك قبل كل شيء .. للانسان
أمنح حبك للسحابة والآلة والكتاب
ولكن أمنح حبك قبل ..
كل شيء :
للانسان »

فان نيرودا يؤكد أيضاً وأيضاً في كتابه هذا ، على أهمية الايمان بالانسان ،
الانسان الحقيقي الذي يكون النور عندما يدلّهم الظلام ، الواحة في الصحارى ،
الفرحة في الحزن والأسى والجراح ، والذي أبداً يضيء قنديله ، يوحد نيرانه ،
يفتح بيته للمتعبين والحزاني ..
ويورد نيرودا قصة ايمان بالانسان .. قصة ظلت في ذاكرته أعواماً وأعواماً :

« دعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالأفراس ، كان البيدر في مكان عال
بالجبال بعيداً جداً عن القرية ، استهوتني مغامرة أن أمضي وحيداً أستجلي الدروب
وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك ، وان تهت فلا ريب أنني سأجد من يفيشني ويعينني ،
ابتعدنا أنا ومطيتي عن « باخو امبريال » واخرقنا حاجز النهر ، كان المحيط
الهادي هناك يفك عقاله فيلطم في تواتر وكر وفر الصخور وأحراج ربوه (ماولة)
آخر تلة على الشاطيء ، شاهقة سامقة جداً ، ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة « بودي »
تلاحم الأمواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة ، كان علينا أن ننتهز
تلك الفرصة حيث تتفت احدى الموجات وتتقهقر لتستعيد أنفاسها ، لتعبر في ضيق
شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي
بمهراس التلة المسننة الحادة ..

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى العذر وبدأت تتجلى صفيحة البحيرة
الزرقاء الساكنة ، كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطيء حتى مصب بحيرة
« تولبتن » ان هذه الشواطيء التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل

أشرطة رقيقة عديدة تسمح للعابر أن يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال
وازاءه زبد البحر •

انها سواحل تبدو أبدية غير منتهية ، كأنها على امتداد تشيلي خاتماً لكوكب ،
خاتماً محدقاً تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة مدرجاً يبدو كأنه يدور عبر
سواحل تشيلي الى ما هو أبعد من القطب الجنوبي ••

على جوانب الطرقات كانت تحييني أشجار البندق ذات الأغصان المورقة
الخضراء الغامقة البراقة بجميع أصنافها ما كان منها مرصعاً بعناقيد فاكهة
وما لم يكن ، أشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزينت فبرزت حمراء فاتنة في هذه
الفترة من السنة ، سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جداً الى درجة أننا ، أنا
وحصاني كنا نسير تحت أغصانها دون أن نستطيع لمسها • وان دنت أحياناً فجست
رأسي ، ما رأيت أحداً الا في آخر الشوط ، صيادين غريبين ، في ذلك المدى حيث
يلتقي المحيط والبحيرة ، يتعانقان أو يتشاحنان • « ويتابع الشاعر وصف عدد من
المشاهد حتى يقول :

« أدركت أنني قد تهت ، الليل والغابة اللذان كانا لي البهجة والسرور •
ها هما يتهدداني ويتواعدني ، يملأني رعباً وهلعاً ، طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع
وايبي في وحدة الطريق المدلهمة ، حين تقاربنا توقفت فرأيت فلاحاً من هؤلاء
الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له الا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحداً من هؤلاء
الرعاة من الذين يطلعون من الشاطيء ، وقصصت عليه ما جرى لي •

أجابني بأني لن أبلغ البيدر تلك الليلة ، هو كان يعرف المكان كله موضعاً
موضعاً وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين أين يدرسون القمح ، قلت له اني لا
أريد أن أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه أن يرشدني الى موضع أوي فيه
الى أن يبرز الفجر ، فأشار لي في ايجاز بأن أمضي في درب متفرع عن الطريق
مسافة فرسخين •••

« سوف ترى من بعيد بيتاً خشبياً كبيراً ذا طابقين » قال لي •

— أهو فندق ؟ سألته •

— كلا أيها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة ، انهن ثلاث

فرنسيات يعملن في تجارة الاخشاب ، ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة ، انهن طبيبات المعشر مع الناس جميعا ، ولسوف يأوينك ويرحبن بك . شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة ، هو ابتعد يخب به حصانه المقوض ، وأنا سلكت الدرب الضيق كأنني نفس في جوى وأسى ، هلال بكر أبيض معقوف كقلامة ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلا أنوارا ، لا مندوحة في أنها منبعثة من منزل ، أجهدت حصاني قبل أن تحرمني الاقفال والمفاتيح من دخول ذاك المعبد ذي الأعاجيب . . . اجتزت حواجز الحمى ، متجنبيا جذوعاً مقطوعة وجبالا من نشارة ، وصلت الى الباب بله الى رواق أبيض لتلك الدار الضائعة في تلك الأنحاء المنفردة المتوحدة ، ناديت قرعت الباب ، بادئاً في رفق ثم في قوة ثم عنف ، حين يئست وقد مرت دقائق رهيبة ، وظننت أن ما في الربع من أحد ، أطلت سيدة ذات شعر أبيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بين بين ، كي تستقصي الطارق القادم في غير وقت .

من أنت وماذا تريد ؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبخ .

لقد تهت في الغابة ، أنا طالب في مدرسة ، دعاني لحضور درس الحنطة على البيدر آل « ايرنانديث » لقد أنهكتني المسير ، لقد قيل لي أنك وأختيك فعالات للخير ، لست أبغي الا أن أنام في أي مكان وأن أوصل حين يطلع الفجر طريقي نحو حصاد آل « ايرنانديث » .

تفضل - أجابتنني - لأنك في بيتك .

قادتني الى بهو معتم وهي بنفسها أشعلت قنديلين أو ثلاثة ، لاحظت أن القناديل جميلة من البرونز المذهب ، البهو يفوح برائحة الرطوبة ، ستائر كبيرة تنسدل على النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها مم ؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومغلق كالحلم ، السيدة الساهمة الحاملة ذات الشعر الأبيض كانت تتحرك دون أن أتبين لها قدماً أو أن أسمع لها خطوا ، يداها تلمسان شيئاً أو آخر ، مجمع صور ، مروحة هنا أو هناك داخل السكون .

تخيلت اني قد هويت الى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقاً منهوكاً ، فجأة دخلت سيدتان طبق الأصل من التي استقبلتني ، كان الوقت متأخراً وكان ثمة برد شديد ، جلستا من حولي ، احداهما في ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق والأخرى تنظر اليّ بعينين كئيبتين ، كعيني التي فتحت لي الباب ، ابتعد الحديث كثيرا عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة بآلاف الحشرات ، المخترقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية ، سألتني عن دروسي ، فاجأتهن حين لفظت على غير توقع منهن اسم « بودلير » واستغربن حين قلت لهن بأني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن ، تغيرت عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما أن لو أن ثلاثة براقع نزعت عن وجوههن ذات الملامح العتيقة .

– بودلير – هتفن ، لعل هذه هي المرة الاولى التي فيها يتلفظ باسمه في هذه الاماكن المنعزلة منذ أن وجد الكون لدينا هنا كتابه « أزهار الشر » *Fleurs du Mal* ليس من أحد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة في هذه الاماكن على مسافة دائرة قطرها « ٥٠٠ » كيلو متر ، لا أحد يعرف الفرنسية في هذه الجبال .

اثنتان من الاخوات الثلاث ولدتا في أفينيون ٠٠٠ الصغرى تشيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعاً ، جدودهن ، أبأوهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد، هن الثلاث كن قد تعودن على المطر ، على الريح ، على نشارة الاخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من الفلاحين البدائيين والخدم الاجلاف المتأخرين وعلى البقاء هنا في هذه الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المستننة الموعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء الى السيدة الكبرى . حينذاك خرجتا بإشارة منها عبر دهاليز باردة جدا الى غرفة الطعام ، اندهشت وذهلّت ، في وسط القاعة، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين، مضاعة بشمعدانين من فضة مليونيين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان معاً على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاحني حياء عارم ، كما لو أن الملكة « فيكتوريا » كانت قد دعنتني الى وليمة في قصرها ، فقد جئتهن أشعث الشعر ، مغبر الثياب ، مرهق الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة أمير ، وأنا على حالتي أبعد الناس عن أن أكون أميراً ، بالاحرى كنت أبديو وكأني راعي بغال برائحة كريهة ترك عند الباب قطع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جدا أكلت كمثل هذه المرة ، مضيفاتي كن معلمات في الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطبيب .

على الرغم من أن التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فاني كنت أسمعهم يتحدثون عن أشياء غريبة ، كان فخر الاخوات الاعظم الاكبر هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة « ارث مقدس » ممارسة ثقافة لن يعدن اليها أبدا وقد عزلهن عن وطنهن الزمن الغيبي والبحار الهائلة ، أرانني كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلا غريبا .

— نحن عجائز معتوهات — قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابرا قصدوا هذه الدار النائية ، بعضهم بغرض التجارة ، وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة ، ما لم ير من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد من زوارهن، تاريخ الزيارة ، وجبة الاكل التي أعددها في كل مناسبة .

— نسجل وجبة الاكل حتى لا نقدم منها ولا طبقاً واحدا ، فيما اذا عاد فزارنا من كان قد تذوق هذه الاطباق من قبل .

رخت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق ، عند انبثاق الفجر، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابس لي ، عندما أسرج لي الحصان أحد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح .

ما تجرأت على توديع السيدات الكريزمات السخيات اللباسات ثياب الحداد . في أعماقي شيء كان يقول لي أن ذلك كله حلما غريباً لذيذاً ، وأنه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحديث أربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة

مراهقتي فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن « أزهار الشر » في وسط تلك الغابة البكر ؟ ماذا حصل لزجاجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقعة المضائة بعشرين شمعة ؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الأشجار ؟

لا بد أنه طراً ما هو أبسط شيء ! الموت والفناء ، ربما أن الغابة التهمت تلك الحيوانات وتلك القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية لكنهن ما زلن يعين في ذاكرتي كما لو كن في عمق بحيرة الاحلام الشفاف ..

مجداً وطيباً لهاته النساء الثلاث الحزاني اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصن لياقة عريقة ، كن يدافعن عما أتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، أي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيدة ، هناك بعيداً ، في أقصى حدود جبال هي أكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

ويواصل نيرودا الحديث في مذكراته عن ظروف الأسى والفقر والكفاح وسط تلك الظروف في سبيل حياة أفضل ومن أجل الدراسة والتسلح بسلاح العلم والمعرفة في مواجهة الحياة والاعباء ، فيقول عن سني الدراسة :

— حياة الطلبة في غرف الايجار خلال تلك السنين العجاف كانت جوعاً على جوع ، كتبت شعراً أكثر مما كنت كتبت من قبل ، لكنني كنت أكل أقل بكثير ..

من تلك الغرفة بشارع « ماروري » انسجبت مثلما ينسل رخوي من صدفة ، ودعت ذيل السلحفاة ذاك كي أتعرف على البحر ، أي على العالم ، البحر المجهول هو : شوارع « سانتياغو » التي ما كنت شاهدها من قبل حين كنت أمضي غادياً أو رائحاً ، ذهاباً أو اياباً بين الجامعة العتيقة ، والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع « ماروري » ..

كنت أدري أن مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة ، أكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كن ينقذنني بحبة بطاطا وبرأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء ، لكنما ، لم يكن من ذلك بدء الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لالبيها أو هكذا خيل اليّ ..

وعن الشعر ومعاناة نيرودا مع الشعر وعن العذابات التي عاناها من أجل طباعة مجموعته الاولى يقول نيرودا :

« التجأت الى الشعر في سرعة الخائف الوجل ، كانت ترفرف فوق «سانتياغو» المدارس الأدبية الجديدة ، في شارع « ماروري » رقم ٥١٣ ، انتهيت من كتابة ديواني الاول ، كنت أكتب قصيدتين ثلاثاً ، أربعاً ، خمساً في اليوم الواحد .

في عام ١٩٢٣ ، نشر ديواني الاول هذا « شفقيات » ، كي أدفع تكاليف الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة وأحقق انتصارات عظيمة ، أثنائي القليل بيع ، الى دار الرهائن على عجل مضت ساعتني التي كان والدي قد أهداني اياها في وقار وجلال ، اذ أنها كانت ساعتها الخاصة به ، ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء ، لقد كان صاحب المطبعة رجلاً لا يرحم ولا يشفق اذ أنه بعد أن أصبحت الطبعة جاهزة والأغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها » ، ساهم الناقد الونه Alone في سناء بدفع ما تبقى عليّ من « بيسوس » فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت الى الشارع وكتبي على منكبني بحذاء مهترى ممزق ، مجنوناً من الغبطة والطرب .. » .

وكيف كان نيرودا ينظر الى الشعر ، ما الذي كان يريده من الشعر في تلك السنوات ووفقاً لأي منظور انطلق يكتب ؟

وما هي الأرضية التي انطلق منها ، وأية أفكار ، رؤى ، أهداف ، حملته على الكتابة معنا لنستمع اليه يقول في كتابه ، يشرح كل ذلك :

« كان رأيي دائماً هو أن عمل الكاتب ليس لغزاً ولا هو بالمأساوي ، بل أنه على الأقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة ، ان ما هو أكثر شبيهاً بالشعر ، هو رغيف خبز أو وعاء خزفي أو حفر على الخشب مشغول في طراوة وحنان ، ولو أن الأيدي التي تصنع هذه التحف بليدة غير متقنة ، بيد أنني أعتقد أنه ليس ثمة من صانع واحد يشعر كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو أول خلق ابتدعته يداه .

وعن الظروف الاقتصادية والحركة السياسية وأوضاع الحياة العامة التي كانت سائدة في تلك البلاد ، يتحدث نيرودا :

« أثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي . »

مدوياً كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحث بين الطلبة والكتّاب عن دعم أصلب وتأييد أمتن، من جهة أخرى ، كان الزعيم الكبير للبرجوازية الصغيرة أرتورو اليساندري بالما الدينامكي الديماغوجي ، فقد كانت البطالة وقلة الاعمال تهز مؤسسات النظام الرأسمالي ، أنا في تلك الاوقات كنت أكتب في مجلة « وضوح » أسبوعياً ، كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية وندافع عنها وكثيراً ما كنا نصلطم بالشرطة أثناء مظاهراتنا في شوارع سانتياغو ، فينهال رجال الامن علينا ضرباً وتشتيماً ، كان يصل الى العاصمة آلاف العمال المطرودين من أعمالهم في مناجهم ملح البارود والنحاس ، لقد كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امتزجت السياسة في شعري وفي حياتي ، لم يكن ممكناً اغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، أو عن الحزن في قلبي ، قلب شاعرٍ تشيلي .

ويتحدث الشاعر في الفصل الثالث من فصول الكتاب عن الاصداء التي تركتها شهرته التي بدأت تنمو وعن ردود الفعل لدى الناس ، وعند الحركة الثقافية :

« والحقيقة هي أنه ما أن حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس ، يسألونني ان رأوني في أحد الشوارع أو أحد الاماكن : « لكن ، ماذا تفعل هنا ؟ يجب عليك أن تذهب الى باريس » ويتحدث في هذا الفصل عن الذكريات وعن سفره الى « رانغون » ليعمل هناك في السلك الخارجي التشيلي وعن نبض الحياة وحياة الناس في عدد كبير من المدن والضواحي والقرى الهندية . »

وفي الفصل الرابع وتحت عنوان : « اسبانيا في القلب » يتحدث الشاعر عن عودته الى تشيلي وعن أول لقاء له مع الشاعر الاسباني الشهيد « فيديريكو غارثيالوركا » فيقول :

« سفر طويل عبر البحر دام شهرين أعادني الى تشيلي عام ١٩٣٢ ، هناك في تشيلي نشرت ديواني « حامل المقلاع المتحمس » الذي كان مبعثراً بين أوراقي، ونشرت كذلك ديواني ، « مقام في الارض » الذي نظمته في الشرق ، في عام ١٩٣٣ عينت قنصلاً لتشيلى في « بوينس إيرس » ، حيث وصلت في شهر آب .

لقد وصل الى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريباً « فيديريكو غارثيالوركا » كي يبدن مسرحيته مأساة « أعراس الدم » لم تكن قد تعارفنا بعد ، فتم تعارفنا في « بوينس إيرس » وكثيراً ما كان الادباء والاصدقاء هناك يحتفلون بنا معاً ويكرمونا ، على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث ، كان لفيديريكو خصوم ، وكذلك كان لي أيضاً خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون ، هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزياً كي يطفئوا النور حتى لا يرى ، وهذا ما حصل في تلك المرة ، بما أنه كان هناك اهتمام لدى الناس لحضور حفلة هذا التكريم التي كان يريد اقامتها على شرفنا « نادي القلم » في فندق « بلاثا » . فان أحدهؤلاء الخصوم أخذ يتصل بالناس هاتفياً كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي سيقام على شرف لوركا ونيرودا قد ألغي ، وقد بلغ بهذا الخصم أو الخصوم الحد من الصفاقة أنهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدوا الوليمة ، لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا أخيراً وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتاب الأرجنتينيين . . . ويواصل نيرودا في هذا الفصل الحديث عن الشاعر الاسباني ميغيل إيرنانديث وعن الحرب الاهلية الاسبانية ، وعن الجريمة التي حدثت في غرناطة ، جريمة اغتيال لوركا فيقول عن الحرب الاهلية : أما أنا فلقد عرفتھا ، مليوناً من الضحايا الاسبان ! مليوناً من المنفيين الاسبان ! كان يبدو لي أن هذه الشوكة الدامية لن تمحى أبداً من ضمير الانسانية .

وعن اغتيال لوركا :

« كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى « بويي ديغلانه » متعهداً في السيرك الكبير « برثيه دي مدريد » ، صرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الألعاب « الرياضية » فأقنعتني أن أذهب الى السيرك وأن أصطحب « غارثيا لوركا » معي لتتأكد من

أصالة هذا الاستعراض الجميل ، أقنعت « لوركا » واتفقنا أن نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة ، كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات « ساكن الكهوف المبرقع » والمارد وانسان الغابة الشرير . .

تخلف « فيديريكو » عن الموعد ، كان قد راح ليلقى حتفه ، لم أراه من بعد هذا أبداً ، موعدة كان مع مرده وسفاحين آخرين ، هكذا بدأت حرب اسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر * وأي شاعر : أبداً لم أر شاعراً مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية ، القلب المجنح والشلال الشفاف ، لقد كان العبقري المسرف في وحيه والهامة ، كان خلاصة أعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجاً عربياً أندلسياً ينير ويفوح مثل أيقة ياسمين على مسرح اسبانيا ، كان كل هذا ، يا ويلتي لقد اختفى ذلك المسرح فأواه وآه .

ثم يشرح الشاعر ظروف طباعة مجموعته « اسبانيا في القلب » في الجبهة ، حيث تعلم الجنود صف حروف المطبعة ولأنه كان ينقصهم الورق ، وجدوا طاحونة قديمة فقررروا صنعه هناك ، لقد كان خليطاً غريباً ما صنعه من القنابل المتساقطة في أجيج المعركة ، كانوا يقذفون بكل شيء الى الطاحونة من رايحة للعدو الى عباءة مدماة على الرغم من هذه المواد غير المتألفة فيما بينها ، ومع قلة خبرة الأيدي الصانعة فقد خرج الورق بديعاً جداً ، ان ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة من هذا الكتاب تدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ، رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في « واشنطون » بمكتبة « الكونغرس » موضوعة في واجهة زجاجية تعرض أكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما أن طبع ديواني وجلد حتى أخذت تتسارع هزيمة الجمهورية ، لقد امتلأت الدروب التي تؤدي الى خارج اسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين ، لقد كان هذا النزوح أشد الحوادث ايلاماً في تاريخ اسبانيا ، وكان عملي القنصلي قد انتهى الى أن الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبتي بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية ، ويتحدث نيرودا بعد ذلك عن حياته في باريس وصداقته مع اثنين من أعظم أدباء فرنسا وهما بول ايلوار

وآراغون ، وعن الكفاح المشترك مع الابداء والمثقفين الفرنسيين في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

وفي الفصل السادس يتحدث عن التزامه الحزبي وعمله في حل مشاكل المهاجرين الاسبان ، وفي الفصل السابع يتحدث عن المكسيك والأدباء والفنانين في ذلك البلد وينتهي هذا الفصل بقوله :

ان المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي ، ما من شيء سوى الموت يقدر على أن يطوي أجنحته فوق قلبي .

وفي الفصل الثامن يحكي عن استقالته من العمل في وزارة الخارجية ، وفرحه بموافقة وزارة الخارجية على تلك الاستقالة ، وعاد الشاعر الى وطنه ليجد الوطن كما كان :

« لم يكن البلد قد تغير أو تبدل ، أرياف وضيع نائمة غافية ، فقر مريع في المناطق . والناس المتأنقون يملأون ناديهم . و . . يجب على المرء هنا في تشيلي أن يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء » .

وعن وصوله الى مجلس الشيوخ في آذار ١٩٤٥ يقول :

« لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائباً في مجلس الشيوخ ، انني سأظل أفتخر مدى حياتي بأن الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في أتعس منطقة بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم النحاس وملح البارود ، ولأن الشاعر اختار الدفاع عن قضية هؤلاء الناس الفقراء المعذبين الذين اختاروه ليكون صوتهم فانه .

« لقد كانت خطاباتي عنيفة دوماً ، وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائماً بالناس الذين يأتون ليسمعوني ، لكن بعد مضي وقت طويل على انتخابي وعضويتي طُلب من المجلس طردي فطردت منه ووجه الامر الى الشرطة باعتقالي » .

ولكن الناس الذين أحبهم ، قاتل من أجلهم ، وكان صوتهم وفرحهم هم الذين حموه من الاعتقال وأحاطوه بدفء الحب والحماية والدفاع عن قضيتهم التي هي قضيتهم ، قضية حياة أكثر عدالة وحرية وحياة :

« كنت أبدل داراً بدار في كل يوم تقريباً ، في الجهات جميعها كانت الأبواب تفتح كي تحميني ، كان ثمة دائماً أناس لا أعرفهم يعبرون عن رغبتهم في ايوائي لعدة أيام ، كانوا يرجون مني أن أبقى عندهم ملتجئاً ولو لبضعة أسابيع ولو لبضع ساعات ، فعبرت قرى ، حقولا ، مدنا ، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ، مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، أطباء ، بحارة » وبمساعدة الناس ، وتخطيط الحزب يتم تهريب الشاعر الى الأرجنتين ، من هناك باسم جديد وجواز سفر جديد يسافر الشاعر الى باريس ويتحدث عن مساعدات أرغوان وايلوار له في باريس ، وعن الوضع شبه السري الذي عاشه هناك ، وعن زيارة بيكاسو له في مخبأه وعن لقاءاته مع ايليا اهرنبورغ الكاتب السوفيتي المعروف ..

وفي الفصل التاسع يتحدث عن خروجه من باريس ، من المنفى حيث دعي لأول مرة الى الاتحاد السوفيتي بمناسبة احياء ذكرى بوشكين المئوية ، وينشر في هذا الفصل العديد من الافكار والذكريات عن مشاعره وهو في الاتحاد السوفيتي كما يسرد ذكرياته عن لقاءاته الكثيرة مع الشاعر ناظم حكمت :

« كنت على الدوام أزور في موسكو أو في الريف شاعراً كبيراً آخر ألا وهو الشاعر التركي «ناظم حكمت» ، وهو كاتب خرافي اسطوري . كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته خلال ١٨ سنة ، لقد اتهم « ناظم » بأنه كان يريد اثاره فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم ، جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية ، كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي على درجة الانهاك وعلى جسر الباخرة ومن بعد أدخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر فشعر أخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه ، كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقرزز ويرتعد ، عند ذلك فكر : لا بد أن الجلادين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون أن يروني أتداعى ، يريدون أن يروني تعيساً بائساً ، فانبعثت قواه في أنفه وعنجهة ، وبدأ يغني أولاً في صوت حقيقي ، من بعد في صوت أكثر علواً ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرتة ، غنى الأغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، أناشيد شعبه النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه من غناء ، وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة

والعذاب ، عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : « يا أخي ، انك بهذا قد أجببت عنا جميعاً فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعاً معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا أن نبدأ الغناء » .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الاقطاعيون .

ويتحدث نيرودا في هذا الفصل أيضاً عن زيارته للهند وعن زيارته الاولى للصين .

وفي الفصل العاشر يتحدث عن سيلان ، وعن زيارة جديدة للصين ، وعن عودته الى الاتحاد السوفيتي وعن علاقاته مع عدد من الادباء السوفييت .

وفي الفصل الحادي عشر يتحدث عن حياته الشعرية وعن الشعر حرفة ، فيقول بأنه أبدأ ما فكر من قبل ، حين كتب أوائل كتبه المقعمة بالحزن والوحدة، انه مع مضي السنين :

« سأجدني أنشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة ، لقد جبت وجلت في أنحاء تشيلي كلها ، أنثر شعري بين أناس شعبي . »

وعن ايمانه الكبير بالشعر وموقف الشاعر يقول نيرودا شارحاً : نظرت للشعر:

« عليه أن يجوس الدياجير حتى يلتقي بعيني الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين قد يحتاجون في ساعة شفقية أو في ليلة ذات نجوم الى بيت شعر واحد على الاقل ، أن هذه الزيارة المباغثة تعادل كل ما قرأناه ، كل ما تعلمناه ، لا بد لنا من أن نضيع ونعيش بين من لا نعرفهم . »

كي يقطفوا عما قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الأحداق المتساقطة منذ ألف سنة وحتى الآن في الغابة ذاتها .

وعن زوجته وملهمته والانسانة التي وقفت أبدأ معه والى جانبه تمنحه الورد والابتسامة ، القصيدة وكوب الماء يقول نيرودا :

« ما تيلده أورتيا . . زوجتي . . ان زوجتي لهي قروية مثلي أنا ، ولدت في بلدة بالجنوب تدعى « تشيبان » وهذه شهيرة من الناحية السعيدة ، بأوانيتها

الفخارية الريفية ، ومن الناحية التعيسة بزلازلها الرهيبة ، لقد قلت كل ما أريد أن أقوله لها في ديواني « مائة أرجوزة حب » ربما تستطيع هذه الأشعار أن تدل عما تعنيه هي بالنسبة لي ، لقد جمعنا الحياة والأرض .

مع أن هذا لا يهم أحداً غيرنا فاني أقول ، نحن سعيدان جداً ، نقسم وقتنا المشترك الى جلسات طويلة في شاطئء تشيلي المنعزل الوحيد ، اني لأهدي اليها كل ما أكتب وكل ما أملك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة راضية .

فقد جلبت لي من الارض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها ، الزهور جميعها . ثمار السعادة الشابة جمعاء .
وبحزن عميق، يتحدث نيرودا عن موت صديقه الشاعر الفرنسي «بول ايلوار» فيقول :

.. قد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي وأني أفتقد حنانه الذي كان جزءاً من خبزي ، كفاف يومي ، لا أحد يستطيع أن يعطيني ما حمله معه لأن اخوته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا النقي ، اني لانحني فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا تعطيانني النور والعظمة ، البسالة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما غرسته أنت في هذه الارض ، « ثم يتحدث عن ذكرياته وصداقته مع الشعراء بيير ريفيردي، وجيرزي بوريرجا الشاعر البولوني وسومليوجورجي الشاعر الهنغاري وكواسمودو الشاعر الايطالي وبابخو الشاعر المشهور من البيرو وغابرييلا ميسترال الشاعرة التشيلية المعروفة ، وعن النقد والنقد الذاتي والدور الذي لعبه النقد الأدبي في حياته الشعرية فيقول :

« لا يمكن انكار أنني حظيت بنقاد جيدين ، لا أقصد الولايم والمآدب الأدبية التي أقيمت لي ولا أعني الشتائم التي أثمرتها بشكل غير ارادي ، أعني أناساً آخرين ، من بين الكتب التي ألفت عن شعري ، بعد أن أستثني ما كتبه شبان هواة متحمسون ، أخص بالذكر وأضع في المكان الأول الأفضل ما ألفه الكاتب السوفيتي ليف أوسبوفات فلقد توصل هذا الشاب الى اتقان اللغة الاسبانية

فراى شعري بشيء أكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظوراً مطابقاً من نور عالمه .

كما يذكر باهتمام في هذا المجال الناقد والكاتب « أميزرودريغيث » من الاورغواي والباحث اللغوي الاسباني أمادو الونسو . وبعد ذكر دور النقاد يؤكد نيرودا نظرتة الى الشعر ودور الشاعر بقوله :

يجب أن نطلب من الشاعر أن يتخذ له مكاناً في الشارع ، وفي المعركة كما في النور وفي الظل . ربما أن واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله ، ان شرف الشعر كان الخروج الى الشارع ، كان المشاركة في هذا العراك وفي ذاك .

كما يتحدث نيرودا في هذا الفصل عن الأسى العميق الذي تركه في حياته رحيل الشاعر أرنستوتشي غيفارا ويذكر ما كان قد ذكره عنه غيفارا في يومياته فيقول:

« لقد كان فجيعاً مرة اغتيال « تشي غيفارا » رسمياً في بوليفيا الحزينة جداً ، أن نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة : ملايين المراثي حاولت أن تصنع جوقه كي تمجد وجوده البطولي المأساوي ، لقد انهدرت عبر الدنيا أشعار ما كانت دوماً على مستوى هذا الألم ، تلقيت برقية من كوبا من عقيد أديب ، يطلب مني مرثيتي التي لم أكتبها حتى الآن ، أفكر أن مثل هذا الرثاء يجب أن يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الأليمة ، سأتروى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي .

انه ليهزني أن أكون أنا الشاعر الوحيد الذي ذكره تشي غيفارا ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته ، أذكر أن تشي، حكى لي ذات مرة ، أمام الرقيب « ريتامار » كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي « النشيد العام » على أوائل ملتحي « سيراماسترا » المتواضعين الأمجاد ، ينقل في يومياته بجلاء هاجس بيت شعر من قصيدتي نشيد الى « بوليفار » جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدام . .

ويواصل نيرودا الحديث في هذا الفصل عن المرات العديدة التي تم فيها ترشيحه لجائزة نوبل وعن المتاعب التي سببها له ذلك الترشيح من محاصرة

الصحفيين له و ٠٠ و ٠٠ وعن فوزه بهذه الجائزة عام ١٩٧١ وسفره الى استوكهولم لتسلم الجائزة ويصف الاحتفال البروتوكولي العام بتسليمه الجائزة .
ويسرد نيرودا ذكرياته عن لويس كارلوس بريستيس الزعيم اليساري البرازيلي وعن ستالين وفيديل كاسترو ، ومما يقوله نيرودا عن أول لقاء له مع كاسترو :

٠٠ أما أنا فقد أدخلوني الى الغرفة المجاورة ، وجدت نفسي في غرفة نوم اضافية كأنها غرفة نوم بستاني أو سائق ، لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو أن أحد الاشخاص كان نائماً عليه فنهض منه في استعجال تاركاً الشراشف في فوضى والمخدة على الارض ، ثمة طاولة سرير صغير ولا شيء آخر ، ظننت أنهم من هناك سيأخذونني الى قوينة لائقة كي أقابل القائد ، لكن هذا لم يكن هكذا إذ فتح الباب على حين غرة واذ بـ « فيديل كاسترو » يملأ الفراغ بقامته .

كان أطول مني برأس ، اتجه نحوي بخطى سريعة .
— مرحباً ، بابلو ٠٠ — قال لي وغمرني بذراع شادة ضاغطة .
كما يصف نيرودا أول لقاء له مع أرنستو تشي غيفارا فيقول :
كان أول لقاء لي مع تشي غيفارا ، مختلفاً جداً ، جرى اللقاء في « هافانا » .

وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريباً ، وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية أو الاقتصاد ، لا أذكر الآن على وجه الدقة ، مع أنه كان قد حدد في منتصف الليل ، أنا وصلت متأخراً ، كنت أحضر اجتماعاً رسمياً وأجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان « تشي » ينتعل جزمة ، ويرتدي زياً عسكرياً للميدان ويتمنطق بحزام فيه مسدسان ، كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصري ، كان « تشي » أسمر ، متمهلاً في الكلام ، ذا نبرة ارجنتينية واضحة ، لقد لذ لي ما قاله عن كتابي «النشيد العام» كان يعتاد قراءته ليلاً على رجاله المحاربين في «لاسيرومايستر» .
الآن ، بعد أن مرت السنون أقشعر حين أفكر أن أشعاري رافقتة كذلك في موته ، عن طريق « ريجيس دوبريه » عرفت أنه في جبال « بوليفيا » أحتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

ودعته وما عدت فرأيته من بعد قط ، من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي ، لكنني ما زلت أرى في تشي غيفارا ، ذاك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوماً في معاركه البطولية ، ازاء الاسلحة ، مكاناً للشعر .

وفي الفصل الثاني عشر يتحدث عن تجربته الحزبية والنماذج التي عرفها والتقى بها وخبرها خلال حياته الحزبية وإنعكاس انتمائه الحزبي على حياته كشاعر وانسان ، كما يتحدث عن ترشيحه لرئاسة الجمهورية .

ثم يشرح ظروف انسحابه من الترشيح لمرشح الوحدة الشعبية « . في لحظة مناسبة وصلت البشرية ، ظهر « أليندي » على أنه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها ، بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من الترشيح ، أمام حشد هائل جدل فرح تكلمت أنا لاعلن انسحابي وتكلم « أليندي » ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعه له ، لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الأشجار » . وكما هو معروف فقد انتصر « أليندي » وسبب انتصاره كما يقول نيرودا للطبقة المسيطرة ذعراً مميّتاً ذلك لأنهم ولأول مرة فكروا في أن القوانين التي فبركوها في حيلة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم ، هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وحليهم وعمالاتهم الصعبة الى الالتجاء في جهة من الجهات ذهبوا مع ذهبهم الى الارجننتين ، الى اسبانيا ، حتى أنهم وصلوا الى استراليا ، أن خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة الى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

وبعد أن يشرح نيرودا الدور الكبير الذي قام به « أليندي » في خدمة الشعب التشيلي وما حققه من انجازات خلال فترة رئاسته يختم مذكراته بالقول :

« ان أعمال « أليندي » وآثاره ذات القيمة التي لا تمحى أغضبت أعداء حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الأزمة ينم عنه قصف القصر الرئاسي ..

اني أكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على تلك الاحداث التي لا يمكن نعتها والتي أدت الى موت صاحبي ورفيقي العظيم

الرئيس « أليندي » لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سراً ، ولم يسمحوا إلا لأرملته بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا يموت ، ان رواية المعتدين هي أنهم وجدوه جثة هامدة بأدلة بيّنة على أنه انتحر ، أما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة إذ أنه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلا وحيداً فرداً : ألا وهو رئيس جمهورية تشيلي « سلفادور أليندي ، الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون أن يكون له من رفيق سوى قلبه العظيم ، ولقد أحيط بالدخان والنيران ، فقد كان لهؤلاء أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى أبداً عن منصبه ، فدفن ذلك الجسد سراً في مكان ما ، لقد مضى ذاك الجثمان الى اللحد لا يصاحبه الا امرأة وحيدة تحمل في نفسها ألم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي ممزقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة أخرى .

ولقد انتهت في الثالث والعشرين من ايلول ١٩٧٣ حياة نيرودا ، وتحت وطأة المرض والحزن العميق بعد أن شهد الانقلاب العسكري الذي أطاع بالحكم الديمقراطي الذي كان هو أحد دعائمه ، ولذلك فانه وكما يقول د . محمود صبح مترجم الكتاب :

« يقال بأن نيرودا قتل كما قتل الرئيس سلفادور أليندي » بأيدي أعداء الحرية والنور والعدالة . .

وبالرغم مما ذكرته في المقدمة فان كتاب « مذكرات بابلو نيرودا أشهد أنني قد عشت » ترجمة وشروح د . محمود صبح هو اضافة جادة للمكتبة العربية ، وصورة مشعة مضيئة ، عن حركة الحياة والناس والكفاح والشعر والحب والثورة في غابات أمريكا اللاتينية ووثيقة هامة عن نضال الشاعر بالكلمة والساعد والمنشور والسلاح من أجل الانسان والشعر والحياة ، ولا . . ريب أن د . محمود صبح يستحق التقدير لجهوده الواضحة في ترجمة الكتاب و . . تقديمه للمقارئ على امتداد الوطن العربي الكبير .



حياة جورج صاندا اليومية

بقلم : جاك فيمان
ترجمة : مهاة فرح الخوري

شأت الظروف أن تصادف الذكرى المئوية لوفاة جورج صاندا الادبية الفرنسية الشهيرة في سنة ١٩٧٦ التي تلت عام المرأة الدولي • بدون شك ، لو كانت جورج صاندا لم تنزل على قيد الحياة ، لصفقت لهذه التظاهرة الدولية ولشاركت فيها بكل قدرتها ووزنها ، وهي المرأة التي كانت تعشق التحرر والمجابهة فكانت تلبس زي الرجال ، وتتخذ لنفسها اسم رجل مع أن اسمها الحقيقي « أورور دوبان » وتدخن السيكار والسيكار والغليون ، وتسرع من معاشره الجمهوريين والاشتراكيين والثوريين متعدية عصرها •

وقد اقيمت اعياد رومانطيقية في مسقط رأسها ، قرية نوهانت ، كان لها وقعها ، وشاركت فيها الاذاعة الفرنسية كما نظمت في القرية نفسها حفلات موسيقية شارك فيها كبار العازفين المنفردين وأشهر الفرق الموسيقية •

قضت الكاتبة المذكورة بتاريخ الثامن من حزيران ١٨٧٦ ، وكانت بذلت أقصى جهودها في سبيل تحسين ظروف حياة المرأة ، وكرست لهذا الهدف حياتها وكتاباتاتها • وان كانت هذه الروائية نالت شهرة في عصرها ، فهي نموذج المؤلف الذي خلده اسمه أكثر من إنتاجه ، وراح شخصه يثير الاهتمام أكثر من مؤلفاته • وقد استحوذت حياتها الغرامية على قلوب هواة الروح • لماذا ؟ كيف كانت جورج صاندا تقضي حياتها اليومية ؟ هذا ما اهتم به جاك فيمان في هذا المقال الذي نشرته مجلة « استوريا » •

إذا ما ألقينا على وجود جورج صائد نظرة اجمالية ، ندرك أنه ما من وجود غيره كان أكثر سكونية وأقل تعرضاً للطوارئ والمآسي . وقد بلغ مجموع ما عاشته خارج فرنسا حوالي ثلاثة عشر شهراً . شهران في مدريد خلال طفولتها ، وسبعة في إيطاليا ، وبضعة أسابيع في سويسرا وشتاء واحد في جزر الباليار . وباستثناء بعض الرحلات الى جبال البيرينة والى جنوب غرب فرنسا ، فانها قضت حياتها جيئةً وذهاباً بدون هوادة بين باريس وبين قصرها الريفي .

من جهة ثانية ، لم تتعرض لحادث ما ولا لمرض خطر . وعلى الرغم من انها كانت تشكو باستمرار ، فانها كانت بالواقع تتمتع بصحة جيدة متينة . وكذلك لم تتعرض قط لمغامرات ولا لخطف غرامي ولا لمأس ، اذ كانت علائقها الغرامية كلها تعقد بترو وتقطع أيضاً بناء على رغبتها . الجهاز العاطفي بنظرها جهاز على الهامش ، جهاز متمم ليس الا ، بالرغم مما أوحى هذه العلاقات من ابحاث غزيرة .

وكان ينحصر اهتمامها الكبير في أن تعيش حسب هواها في اطار بيتها في مقاطعة بري . كان هدفها أن تهيمن بمفردها على البيت الذي ترعرعت فيه وأن تصون العمل الذي حررها ومنه تعيش وهي أشبه ما يمكن بالرجل الذي يطوع كل شيء ويُخضع كل شيء .

باريس ، لم تغر جورج صائد الا قليلاً . وباستثناء كتاباتها الاولى ، راحت ترضي بحماسة شهيتها للحرية ونزواتها الفكرية . وقضاؤها موسم الشتاء في باريس له مبرراته . فعملها يتطلب ذلك ، ثمة كتب للنشر ، ومسرحيات للتمثيل . من جهة ثانية ابنتها موريس يتابع دراسته هناك ، والموسيقار شوبان لا يستطيع أن يتغيب طويلاً عن العاصمة الفرنسية . وبدءاً من عام ١٨٤٨ اكتفت بشقة صغيرة في هذه المدينة وتتناول وجباتها وتستضيف أصدقاءها في مطعم صغير يقدم الطعام بسرعة وباتقان ويحافظ على تقليد الحساء الدسم .

ثلاثون وأربعون عاماً من أصل اثنين وسبعين عاشتها في مقاطعة « بري » في قصرها في قرية « نوهانت » . اقليمية بكل ما في هذه الكلمة من معنى : فلم تتمكن من التخلي عن خجلها ، ولا عن الشغف بناقوس الكنيسة . وكلما برزت

أسباب ، مهما كانت ، من خيبات أمل في الحب أو تعقيدات سياسية ، أو مباشرة أعمال صيانة أو انهائها ، كانت تنتهزها مناسبة للجوء الى نوهانت *

تعب بيتها هناك حباً جماً ، تشعر بالراحة في أرجائه ، تبذل الجهد كله لصيانته وللمحافظة على طابعه * وكان زوجها يبدو لها في أول الامر غريباً في نوهانت ، كدخيل * وما أن تقرر انفصالهما حتى حصرت اهتمامها في ابعاده مهما كلف الامر * تدفع له نفقة شهرية مقابل الارتحال * مرادها أن تعيش مع نفسها وفي بيتها *

ويكفي أن نصغي الى ما قالت بهذا الصدد لنعرفها على حقيقتها الثابتة وفي طابعها التقليدي :

» سأتلو بضع كلمات عن هذه الارض ، أرض نوهانت حيث نشأت حيث قضيت عمري كله تقريباً ، وحيث أرجو أن أموت *

الواردات متواضعة ، السكنى بسيطة ومريحة ، المنطقة خالية من الجمال على الرغم من موقعها في قلب الوادي الاسود وهو موقع واسع رائع *

وبكل الاحوال ، انها ترضينا ونحن نحبها * جدتي كانت تحبها أيضاً ووالدي كان يقصدها ليستجم وليمضي ساعات عذبة من الراحة عبر عناء اضطرابات حياته * أما القصر ، لو كان ثمة قصر ، فكان بيتاً متواضعاً من عهد لويس السادس عشر ، متاخماً للقريبة واقعاً في قلب الساحة الريفية لا يزيد ابهة عن مسكن قروي » *

« من كتابها : قصة حياتي »

بالواقع شيّد بيت جورج صاند في أواخر القرن الثامن عشر من قبل المالك نفسه الذي باعه لوالدها مدام « دوبان » * وهو مؤلف من طابق أرضي حيث مدخل واسع وغرفة طعام وصالة ومسرح ، ومن طابق أول فيه سبع غرف ومكتبة * وحين بيعت هذه الاخيرة في عام ١٨٩٠ كان جدول جردها يشير الى وجود ٧٦٧٠ مجلداً * ثمة عليّات واسعة مملوءة في ذلك الحين بالالبسة والازياء وبمجموعات من العشرات

والنباتات ، وفيها مشغل لم يكن المصور « دي لا كروا » يترفع عن العمل فيه .
حديقة جميلة تحيط البيت ، مزروعة بأشجار الفواكه والخضار والورود الجميلة .

جهزت جورج صائد بيوتها بوسائل الترفيه كلها المعروفة في ذلك العصر ، من
جهاز تدفئة وحمام وغيرهما . سعيدة كانت الأدبية داخله ، تعيش في ذكريات الآباء
والاجداد ، وتتمتع بحضور شخصيات الساعة .

في الصيف ، يعج قصر نوهانت بالناس . كان يشاهد على التوالي ، الموسيقاران
« ليست » و « شوبان » ، والكتّاب ، « بالزاك » و « فروماتان » و « تيوفيل
غوييتي » و « فلوبير » والرسام « دي لاكروا » والامير « جيروم بوناپرت » . بيد
أن جورج صائد المنزهة عن كل نفج ، لم تكن تستضيف الشخصيات ذات الشهرة
بغير ما تستقبل به الآخرين . ولم يكن الدافع لاستضافتهم الا المحبة .

فضلا عن ذلك ، حين يشعر الضيف بالراحة والطمأنينة ، يبقى في ضيافة
البيت . شاهد على ذلك المصور « أوجين لامبير » صديق ابن الكاتبة « موريس
صائد » أتى لبضعة أسابيع فلم يغادر الدار الا بعد مضي عشر سنوات .

كانت الحياة داخل أرجاء البيت ، منظمة كما في دير . الفطور في العاشرة
صباحا (لم تكن جورج تشارك فيه . نزهة ساعة من الزمن . من الثانية بعد
الظهر الى السابعة مساء ، عمل لمن يود ، برنامج حر لمن لا يريد العمل . العشاء
في السابعة مساء ، ثم سهرة يتخللها تبادل أحاديث ، الى فك الغاز ، الى
تمثيلات ، الى مسرحيات دمي ، قراءة ورقص وموسيقى في أمتع جو عائلي غاية
في البساطة . كل داخل البيت يعيش حسب هواه . ولا تضحي سيدة البيت بشيء
من عاداتها ، ولا تشارك في الحياة الجماعية الا بعد الظهر وفي المساء . تنسحب
في منتصف الليل ، وتكتب الى الخامسة أو السادسة صباحاً . تنام بعد ذلك
وتستيقظ ظهرا ، فتتناول طعام غداء خفيف في غرفتها وهو مؤلف غالبا من
شريحة لحم وشقة طير وشيء من الخضار وفنجانا من القهوة المرة . ويصادف
أن تنصرف الى عملها بعد النزهة . كانت تعمل في قصر « نوهانت » عددا من
الخدم يتراوح من سبعة الى تسعة . السخاء والبساطة يهيمنان على طاولة الطعام ،

بحيث يشعر الضيوف أياً كانوا شعور الأولاد الملتفتين حول عمة محبوبة يسرها
جمعهم أيام العطل .

تمكنت جورج صاند من تغطية نفقات الضيافة هذه بفضل عملها .

لا تبرج ولا تزين لدى الادبية الفرنسية ، بل نظافة ونقاوة وعناية
بالذات . لم تلجأ في يوم من الايام الى مساعدة وصيفة لارتداء ملابسها أو
لتصنيف شعرها . وحتى الى سن متقدمة ، كانت تستحم في النهر وتغسل في
المياه الباردة .

باستثناء بعض الازياء الباريسية التي تقتنيها ، كانت تخط. أزياءها
بنفسها . ماهرة في فن الابرة والخياطة ، تطرز بسرعة واتقان . وتنفذ أشغال
النجود وغيرها .

نشأتها في الريف ودقتها المتناهية ، علمتها كيفية المناقشة حول صفات
رأس خيل أو ثمن بقرة . تهتم بكل كبيرة وصغيرة . تشرف على صنع المربيات
وتحضر صحن الحلوى بنفسها .

كرهها للاسراف وحرصها على الاقتصاد المنزلي لم يمنعاها من انقاذ المعوزين
ومساعدة المرضى والمتقدمين في السن بدفع أجور الاطباء وفواتير الصيدلي ،
ومن أن تجزل الخير سراً وبسخاء .

باكتسابها بدانة مع التقدم في العمر ، وبوجهها الهادئ تحت العصبات
السوداء ، حققت جورج صاند النموذج الكلاسيكي لسيدة الريف ، خبيرة في فن
ادارة البيت والاستقبال ، مع شيء من الوقار الذي يكمل الشخصية . مثلها
كمثل جدها الاعلى المارشال « دي ساكس » تكره المجون ، متحفظة بما فيه الكفاية
بسلوكها وبحديثها ، لا تقبل من خدمها أي انحراف في السلوك . وقد طردت أحد
العملة لانه ساكن خطيبته قبل ثلاثة أيام من الزواج .

مثل هذه التفاصيل التي تثير الابتسامة عندما يفكر المرء بجراة حياتها
الخاصة وبجسارتها ، تفسر هذه الحياة أكثر من أدق التحاليل . فهي تبرهن ،

إذا كان للبرهان ضرورة بعد كل ما نعرف عنها ، الى أي حد كان القلق الجنسي لدى هذه المرأة شذوذاً وطارئاً • وهكذا نجد نفسنا أمام حالة فيزيولوجية هي السر الحقيقي لحياتها ، حالة تنتفي أهميتها في مجال الحياة الخاصة ازاء نتائجها في المجال الفكري • وهي المهووسة على هذا الشكل بما لا يدرك ، فقد نمت فيها هستريا نفسية من النوع الخيالي الذي يجد في الابداع الروائي المهرب والمتنفس •

الطاقة الخلاقة هي واحدة بالفعل ، وان كانت المهمات التي تأخذها على عاتقها متنوعة • بالنسبة للوظيفة التناسلية ، فان الانتاج الفني أو الادبي هو نشاط استعاضى ، تأليف لحن عوضاً عن ولد •

بيد أنه يتعذر ممارسة النشاطين بنفس الوقت • بما انه ثمة تركيز للقوى على شيء محدد فانه يتعذر بذلها في أمر آخر • واذا كانت العبقرية لا تلتئم مع العجز ، فالتحفة الفنية هي وليدة العفة • الشعر الغنائي لا ينشد التملك ، بل الرغبة أو الاسف • الكاتبة جورج صاند تجهل راحة امتلاء القلب بالعواطف والسعادة • ان طبيعتها غير المكتملة تفرض عليها عدم الخروج قطعاً من مرحلة الرغبة ، وتحكم عليها بالاشغال الادبية المؤبدة •

بكل الاحوال يجب عدم الاستسلام الى محاولة اعطاء تفسير وحيد يجيب على كافة الاعتراضات • ذلك أن الحاجة الى المال كانت أيضاً بالنسبة لجورج صاند حافزاً مستمراً أدى الى زيادة حجم انتاجها ، وبكل الاحوال أساء الى نوعيته •

كانت تكتب بصورة خاصة ليلاً • وأكدت قائلة :

« لا شيء يعوض هذا الهدوء العميق الذي يهيمن منذ منتصف الليل حتى الرابعة صباحاً » •

ويقول بالزاك بهذا الصدد :

« حياتها أشبه ما يمكن بحياتي ، انني أنام في السادسة مساء وأستيقظ عند منتصف الليل » وبفضل هذه العادة المتبعة منذ صباها والتي كانت تنقلها معها ، فانها كانت تتكيف مع أساليب الحياة والاجواء كافة ، فتعمل بالانتظام نفسه في قصر « نوهانت » أو في باريس أو في ايطاليا أو في جزيرة الماجوركا • ولكنها

لم تكن تلجأ مثل بالزاك الى القهوة المرة المنشطة بل تكتفي بالقليل من الماء المالحى بالسكر مع الليمون ، وهذا كان يكفيها لتمضية الليل .

كانت تضيء قنديل الزيت ، وتدخن السيكرات بدون توقف وتلقي بأعقابها في كوب من الماء . طاولتها خالية من أية وثيقة أو مذكرة أو من أي شيء آخر باستثناء الريشة والمحبرة ودفتر .

وعلى الرغم من اعترافها بأنها لم تلزم نفسها قط برسم مخطط لأي مؤلف، كانت تستوثق قبل المباشرة بالكتابة اذا ما شعرت بضرورة ذلك . من جهة ثانية ساعدتها رحلاتها على تصور « الاطار » الذي كانت تصفه فيما بعد .

وأخيرا فان مقدرتها الكبيرة على الاستيعاب كانت تتيح لها التعلم وهي تصغي، واغناء نصصها بشكل مناسب . الحياة ، واصدقاؤها والمقربون اليها وفلاحوها يقدمون لها الشخصيات التي تحتاج اليها . وبالنسبة للباقي ، كانت تعتمد على شعور بسيكولوجي رقيق وأكيد وعلى سهولتها الخارقة .

وصدف أن كتبت رواية كاملة خلال شهر واحد . وفي عام ١٨٣٤ خلال الاشهر السبعة التي قضتها في ايطاليا ومرضت أثناءها ، ما ان استعادت صحتها حتى سهرت ثماني عشرة ليلة قرب سرير « الفرد دي موسه » وقاومت العواطف العاطفية التي نعرفها . وبنفس الوقت فرشت وزينت بيديها المسكن الذي كانت تحتله مع « باجيللو » وتمكنت أيضا من كتابة روايتي « اندره » و « جاك ماتيو » وأول جزء من « رسائل مسافر » أي مادة أربعة أجزاء .

لا يمكن أن يكون هذا معدل انتاج امرأة مرهقة بالحب ، بل يستنتج من ذلك صغر مكان الحب في وجودها ، وكم كانت قليلة الاويقات المكرسة له .

باستثناء المسرح الذي لم تكن جورج صاند موهوبة فيه ومع ذلك حصلت على بعض النجاح ، فانها عرفت طوال حياتها مجدا وشهرة قد يدعوان للاستغراب بالنسبة لاختلاف سوية انتاجها . ومع أن مؤلفاتها متفككة ومثقلة ومكتوبة بسياق الريشة ، فقد أغرت جمهوراً واسعاً ووفياً . ذلك أولاً أن الاسلوب واضح

للغاية وموسيقى من عرق كلاسيكي أصيل • فمهما بدا مهملاً تافهاً لا يستخدم سوى نعوت فقيرة ، فانه مع ذلك صاف خفيف سيال • واذا وقعت جورج صائد بالصدفة على المصطلح الملائم وعلى التعبير الصحيح ، فانها تبلغ الاوج أي الكمال في السهولة •

ثم اذا ما كان أكثر أشخاصها مختلفين ومبتذلين ، مصطنعين للاعراب عن وجهة نظر ما ، فانها تعبر عن المشاعر بنعومة ، وتحسن على الاخص بصفتها قروية أصيلة ، تصوير الحاجات والاشياء والطبيعة • كافة الملاحظات المجمعـة بصبر تنتظم بصورة لا شعورية في أدبها الوصفي •

ويمكن القول انها عكست بالتتابع مثل مرآة متناسقة مشاعر عصرها ومفاهيمه ، وقد كتبت بهذا الصدد :

« لست الا مبسطا ، ذا ريشة سريعة وقلب مرهف التأثر » •

وكم هو صحيح هذا القول ••• كانت عبقريتها لاقطة ، نسوية بجوهرها ، فهي القيثارة التي ترتعش بمرور الريح • في البدء رومانطيقية ، ثم اشتراكية ، وأخيراً أخذت تتبرجز وهي تتقدم في السن ، شأنها شأن كل الناس • وعلى كل حال غير مكترثة بمتناقضاتها ، ترتاح لمشاعرها العاطفية الشبيهة بمشاعر العاملة المرحة ، ولميتافيزيقيتها النابعة من ضعف ايمانها • لم تضللها نجاحاتها قط ، اذ كتبت تقول :

« أعتقد انني سأغدو منسية تماما بعد خمسين عاما » •

منسية ؟ لا ستبقى دائماً لها صفحات من المختارات الادبية ، جواهر متناثرة في حشو من الكلام لم يعد يقرأ •••• ولكن الصحيح انها اذا ما بقيت ذكراها حية فانها مدينة بذلك لشخصها أكثر مما لمؤلفاتها •

كان ثمن هذا النجاح ، كما يحدث دائماً ، سرباً يتكاثر يوماً بعد يوم من الزوار والفضوليين والمراسلين والمتمسكين • وبما أن طبيعتها لا تنقطع ، فقد انتهت الى تكريس معظم وقتها في كتابة توصيات وقراءة مخطوطات وخاصة بريدها

الضخم . كانت تجيب بنفسها على الرسائل كلها . ولقد قدر انها كتبت في حياتها ٥٠ الف رسالة على الاقل أي ما يعادل ١٢٠٠ مجلد ب ٣٥٠ صفحة الواحد أي حوالي ضعفي انتاجها كله .

لو كانت جورج صائد أكثر اهتماما بمجدها ، أو على الاقل بمتطلبات فنها – وهي الموهوبة – لكان بوسعها أن تكتفي بموارد مزرعتها في قرية نوهانت ، وان تفرض على نفسها مجهود التأليف والانشاء الذي لم تخضع نفسها له قط . الا انها لم تجد في الادب بادئ ذي بدء سوى وسيلة للتخلص من سلطة زوجها ، ثم لتأمين لذة الرفاهية والكماليات . فلم تتمثل الادب الا من الناحية العملية ولكنها لم تتخذة وسيلة للعيش ، لان موارد مزرعتها كانت تكفي لتأمين معيشتها ، بل اتخذته مهنة مريحة تؤمن لها موارد غزيرة .

الحقيقة ان دارتها في نوهانت ، المفتوحة للضيوف على الدوام كانت تكلفها كثيرا ، وكانت هي أيضا كريمة سخية وتحرص على ارضاء نزواتها ومنها الرحلات التي كانت تستهلك جزءا كبيرا من مالها .

وإذا ما تذكرنا أنها لم تتوقف عن تأمين نفقات ابنها وعائلته تبين لنا ما كانت تتخبط فيه من صعوبات مالية والسبب الذي من أجله لم تخلف لورثتها سوى مزرعة نوهان وحقوق التأليف .

وقد كتبت لابنتها في ٢٥ نيسان ١٨٥٢ :

« لنوجز وضعي المالي ووضعك . اننا نملك (تقصد نفسها وإبنتها موريس وابنتها صولانج المنفصلة حديثاً عن زوجها) ريعاً قدره ٧٠٠٠ فرنك أما الموارد الأخرى فانها تخرج من دماغي ومن سهراتي ومن دمي المحترق ومن أعصابي المتوترة المريضة » .

وكتبت الى لويس أولباخ في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٩ :

« لقد ربحت بالفعل مليوناً من عملي ولكنني لم أكتنز قرشاً واحداً . أعطيت

كل شيء باستثناء ٢٠٠٠٠ فرنك وظفتها منذ سنتين لكي لا أكلف أولادي نفقات الدواء اذا ما انتابني المرض » .

لم تكن تسرف في الكلام الا اذا أرادت ذلك . ويصدق أن لا تنبث ببنت شفة طوال فترة الطعام . أحيانا كانت تذيب الجليد في الحال : هكذا كانت مع « فلوير » بينما يصدق للزوار أن ينهوا زيارتهم دون أن يسموا نغمة صوتها . ولم يكن في الامر تكلف بل مزاج ونزوة .

وأخيرا جاء الهدوء ولو متأخرا . . وقد كتبت في شهر ايلول عام ١٨٦٨ :

« ها أنا ذي طاعنة في السن . انني أجتاز بلطف الخامسة والستين من عمري . »

من غرابة مصري انني أنشط وأقوى وأرشق كثيرا مما كنت عليه في صباي . أمشي مسافات أطول وأسهر بشكل أفضل وأستيقظ بدون جهد بعد نوم ممتاز .

انني أسبح في الماء البارد والجاري بسرور بالغ . لم أعد أصاب برشح قط . اني هادئة تماما . شيخوخة حصناء بالفكر ، بقدر ماهي بالفعل . لا أسف قط على الشباب . »

يشعرنا هذا القول بمدى هدوئها وتحررها من قيودها وعودتها الى طبيعتها العميقة . . انها أسطر ربما تساعد على فهمها بشكل أفضل .

وهذه السيدة القصيرة الممتلئة المربعة الشكل ، العريضة الكتفين ذات الوجنتين الثقيلتين المسمرتين، ذات اليدين الجميلتين والنظرة الثابتة العميقة تحت عصابها الرمادية ، أعطت بما كتبه في رسالتها الى لويس أولباخ التي تصلح كخاتمة لـ « قصة حياتي » عن نفسها آخر شهادة طيبة ، اذ قالت :

« لست سوى امرأة طيبة اتهمت بشراسة وهمية في الخلق ، اتهمت أيضاً بأنني لم أعرف كيف أحب بشغف . يبدو لي أنني عشت بالحنان ويمكن للمرء أن يرتضي به » .



محتوى العدد

ص

- مسرحيتان - كل منهما ذات فصل واحد
بقلم : ليونيد أندرييف
ترجمة : شريف شاكر ١١٥
- قصائد من شعر بابلو نيرودا
ترجمة : الأب الياس زحلاوي ١٦٦
- معجم الأساطير اليونانية والرومانية
ترجمة واعداد : سهيل عثمان
عبدالرزاق الأصغر ١٧٨
- كيو - قصة شعرية
بقلم : نغوين دو
ترجمة : عبدالمعين اللوحي ٢٠٠
- مذكرات بابلو نيرودا
أديب عزت ٢٦٤
- حياة جورج صاند اليومية
بقلم : جاك فيفسان
ترجمة : ميادة فرح الخوري ٢٩٢

ص

- النار في التحليل النفسي
بقلم : غاستون بشلار
ترجمة : نهاد خياطة ٣
- زوجا أنا
قصة : ميخائيل شولوخوف
ترجمة : ليسان ديرانسي ٢٩
- وتبقى الأدغال - قصة
بقلم : ماريو بينيديتي
ترجمة : ميخائيل عيد ٤٩
- الحقاني - قصة
بقلم : لايوس بيرو
ترجمة : حسيب كيالي ٧١
- أمومة - قصة
س: راجارا تنام
ترجمة : هاشم حمادي ٨١
- قصتان
بقلم : يودورا ولتسي
ترجمة : دمنير صلاحي الاصبعي ٨٩

الموزعون

سورية : مكتبة حسين نوري - دمشق
 المملكة الاردنية الهاشمية : وكالة التوزيع الاردنية
 الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
 تونس : الشركة التونسية للتوزيع
 بقية الأقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع - بيروت

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :		في البلاد العربية :	
■ للأفراد	١٥ ل.س	■ البريد العادي	٢٤ ل.س
■ للدوائر الرسمية	٣٦ ل.س	■ البريد المسجل	٤٨ ل.س

تضاف تكاليف الطائفة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى محاسب اتحاد الكتاب العرب

سعر العدد

سورية	٣٠٠	ق.س	عسدن	٦٠٠	فلس
لبنان	٣٠٠	ق.ل	السعودية	٦	ريالات
الكويت	٤٥٠	فلس	ليبيا	٣٧٥	درهم
أبو ظبي	٩	دراهم	تونس	٧٠٠	مليم
دبي	٩	دراهم	المغرب	١٠	دراهم
الخليج العربي	٩	دراهم	الجزائر	٦	دنانير
الاردن	٤٠٠	فلس	السودان	٧٥٠	مليم
قطر	٦	ريالات	العراق	٤٠٠	فلس
البحرين	٦٠٠	فلس	مصر	٥٠٠	مليم

سر موسیٰ با پنا